الإيمان مفتاح السعادة النفسية

(منهج لتجديد الإيمان، وسكينة النفس،
وطمأنينة القلب من خلال الحكم العطائية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان

مفتاح السعادة النفسية

(منهج لتجديد الإيمان، وسكينة النفس، وطمأنينة القلب من خلال الحكم العطائية)

إعـداد

الدكتور / محمد عمر سـالم

أستاذ الطب النفسي المشارك بكلية الطب – جامعة الإمارات

استشاري ومدرس الطب النفسي جامعة لندن – بريطانيا (سابقا)

الناشر

دار الكتاب الجامعي

العين – دولة الإمارات العربية المتحدة

2011

الحقوق جميعها محفوظة للناشر

حقوق الملكية الأدبية والفنية جميعها محفوظة لدار الكتاب الجامعي - العين - الإمارات العربية المتحدة. و يحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مُجزأ أو تسجيله على أشرطة تسجيل أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

Copyright ©
All rights reserved

الطبعة الثانية

1431 هـ - 2011 م

دار الكتاب الجامعي

UNIVERSITY BOOK HOUSE

دار الكتاب الجامعي
عضو جمعية الناشرين الإماراتيين
عضو اتحاد الناشرين العرب
عضو المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين
العين ـ الإمارات العربية المتحدة
ص.ب. 16983
هاتف 00971-3-7554845
فاكس 00971-3-7542102
E-mail: bookhous@emirates.net.ae

جمع وتنفيذ وإخراج: كمبيورايتر Compu_Writer لخدمات دور النشر «عادل ندا» القاهرة
E-mail: compu_writer@yahoo.com - (002-0100390516) ☏

المحتويات

الموضوع	الصفحة

مقدمة الطبعة الثانية ---------- 7
مقدمة الطبعة الأولى ---------- 9
الفصل الأول: في الفقر إلى الله ---------- 17
الفصل الثاني: علامات على الطريق ---------- 37
الفصل الثالث: في المدح والثناء ---------- 55
الفصل الرابع: عز لا يفنى ---------- 61
الفصل الخامس: في الرضا والتسليم بالقضاء والقدر ---------- 71
الفصل السادس: في التفكر والعزلة ---------- 103
الفصل السابع: في التوبة والرجاء ---------- 113
الفصل الثامن: في الحذر من الشيطان ---------- 135
الفصل التاسع: في الذكر والصلاة ---------- 141
الفصل العاشر: في الأنوار والواردات ---------- 161
الفصل الحادي عشر: في القبض والبسط ---------- 199

الفصل الثاني عشر: في الأوقات وعلو الهمة ---------- 207
الفصل الثالث عشر: في العلم والبيان ---------- 217
الفصل الرابع عشر: في ذم الدنيا والترغيب في العمل للآخرة ---------- 225
الفصل الخامس عشر: في الشكر ---------- 247
الفصل السادس عشر: في الفهم عن الله ---------- 261
الفصل السابع عشر: في الإخلاص والطاعة ---------- 281
الفصل الثامن عشر: في السير إلى الله ---------- 301
الفصل التاسع عشر: في معرفة الله ---------- 313
الفصل العشرون: المختار من المناجاة ---------- 341
خاتمة ---------- 359
المراجع ---------- 361

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله وآله وصحبه وسلم، أما بعد، فإني أحمد الله تعالى على القبول الحسن للطبعة الأولى لهذا الكتاب، وذلك بفضل الله وتوفيقه..

عملي في هذه الطبعة:

- تمت مراجعة شاملة لكل محتويات الكتاب مع بعض الإضافات والتعديلات في أماكن متفرقة.
- تم تشكيل الحكم لتيسير بيان معناها.
- تم تلوين آيات الكتاب الحكيم باللون الأزرق والحكم باللون الأحمر.
- تم إضافة "النظرية الإسلامية في النفس البشرية" في نهاية الفصل العاشر.
- تم إضافة قصيدتي "نشيد الحياة" في الفصل الثاني عشر وقصيدة "بك استجير" في الفصل التاسع عشر.

أسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يعم النفع به إلى يوم الدين.

وأرجو من أراد أن ينبهنا إلى أية ملاحظة على الكتاب، أن يكتب لنا على البريد الالكتروني التالي:

Mohamed.salem@uaeu.ac.ae

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، والصلاة والسلام على خير الأنام، سيد العابدين وخاتم المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله، عليه وعلى آله وصحبه أكمل الصلاة وأتم التسليم... وبعد

فقد أثبتت الدراسات الحديثة في علم النفس، وفي الطب النفسي، أن الإيمان عنصر أساسي من عناصر الصحة النفسية، وعامل وقائي مهم ضد الإصابة بالمرض النفسي، وقد نشرت مئات الأبحاث العلمية الرصينة التي تثبت ذلك في العديد من المجلات المتخصصة العالمية، حيث قارنت هذه الدراسات بين فئات المتدينين وغير المتدينين فيما يتعلق بالصحة والمرض النفسي، وخلاصة نتائج هذه الأبحاث:

- أن المؤمنين يتمتعون بصفة عامة بمؤشرات أعلى للصحة النفسية: مثل راحة البال والرضا والتكيف مع ظروف الحياة المختلفة.
- أن المؤمنين أقل عرضة للأمراض والمشاكل النفسية بكافة أنواعها، مثل القلق والاكتئاب واضطرابات التكيف وغيرها، أما فيما يتعلق بالإدمان والانتحار والانحرافات الجنسية المختلفة، فإن ورود ذلك بينهم يكاد يكون منعدما.

- وإذا مرضوا فإن شدة المرض تكون ضعيفة، وتكون استجابتهم للعلاج سريعة، وانتكاساتهم قليلة.

والمسلم لا يرى أية غرابة في ذلك، فالدين: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة: 138)، والله سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان، وهو أعلم بما يصلحه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الملك: 14)..

وقد تميز هذا العصر بقساوة القلوب والتكالب على الدنيا الفانية مع الزهد والإعراض عن الآخرة الباقية، فانقلبت الموازين وظهرت الكثير من الأمراض في المجتمع المسلم، لذا وجب العمل على إيقاظ القلوب من غفلتها حتى تعود للأمة الإسلامية أهم سماتها، ألا وهي الربانية، التي تعني صدق التوجه إلى الله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الأنعام: 162-163).

من خلال قراءاتي في كتب الرقائق وجدت أن حكم ابن عطاء الله السكندري لها أثر عجيب في تحريك القلوب وإيقاظ النفوس وإثارة الهمم في الحث على السير إلى الله، والحرص على القرب منه سبحانه، ودوام ذكره ومراقبته، وهي مرتبة الإحسان المذكورة في الحديث المشهور: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (صحيح البخاري).

ومؤلف هذه الحكم كما يذكره المؤرخون هو تاج الدين أبو الفضل أحمد محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، المالكي مذهباً والإسكندري داراً، ولذا عرف بابن عطاء الله السكندري. تتلمذ على يد الشيخ أبي العباس المرسي، وكان جامعا لأنواع

العلوم: من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول وغير ذلك، وكانت بدايته إنكارا للتصوف، واعتراضا على المرسي، ثم استمع إليه وأعجب به، ثم كان واعظا متكلما على طريقة أهل التصوف وانتفع به خلق كثير كما ذكر المترجمون عنه، كما أن له كثيراً من المصنفات، وتوفي بالمدرسة المنصورية عام تسع وسبعمائة للهجرة ودفن بسفح جبل المقطم بزاويته التي كان يتعبد فيها هناك.

والحكم العطائية من عيون النثر الديني، أغلبها في صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك، ويلحق بها "المناجاة"، وهي عبارة عن أدعية وابتهالات تعد أيضا من روائع الأدب الصوفي.

وقد جذبت هذه الحكم انتباه العلماء عبر العالم الإسلامي، وشرحت أكثر من أربعين شرحا، وأذكر هنا بعض ما قاله العلماء فيها:

قال أبو عبد الله محمد بن عباد النفري - وهو من أوائل من شرحوا هذه الحكم - أنها: "عبارات رائقة ومعان حسنة فائقة، قصد منها إيضاح طريق العارفين والموحدين وإبانة منهج السالكين والمتجردين".

وقال الشيخ أحمد زروق عنها: "عبارات جامعة وإشارات فائقة نافعة تثلج الصدر وتبهج الخاطر، وتحرك السامع لها والناظر".

وقد اعتمدها الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي مرتكزا لدروس طويلة في عدد من مساجد دمشق بدأ بها منذ عام 1974، واستمرت سنوات عديدة، وحتى تم إخراجها في سلسلة كتب بدأت سنة 2000، وقد قال عن هذه الحكم في مقدمة

كتابه الأول في شرحها: "هي مجموعة مقاطع من الكلام البليغ الجامع لأوسع المعاني بأقل العبارات.. كلها مستخلص من كتاب الله أو من سنة رسول الله ﷺ، وقد تسابق كثير من العلماء في عصور مختلفة إلى كتابة شروح لهذا الكتيب الصغير في حجمه (يقصد كتاب الحكم) والكبير في آثاره ونفعه، ويبدو أن أكثرهم إنما اندفعوا إلى ذلك ابتغاء التبرك به وأملا أن ينالهم شيء من نفحاته.. وهناك سبل مختلفة لتزكية النفس، ولكن لعل اتباع نصائح ابن عطاء الله في هذه الحكم، واحدة من أهم هذه السبل".

وأشار إلى هذه الحكم أيضا فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي في كتبه ومحاضراته، حيث ذكر كثيرا من هذه الحكم في سلسلته القيمة "في الطريق إلى الله"، وفي غيرها من كتبه، وكذلك شرح بعضا منها الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) في كتابه "الجانب العاطفي من الإسلام".

عملي في هذا الكتاب:

بعد مراجعتي لبعض الشروح المتداولة لحكم ابن عطاء الله وجدت أن شرح ابن عجيبة الحسني والمسمى "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" تميز بجميل عباراته مع جزالة أسلوبه ورقة معانيه، ولكن غلب عليه في كثير من المواطن الأساليب التي تعد من شطحات الصوفية، لذا عمدت إلى تهذيب ذلك الشرح مع الاستفادة من الشروح الأخرى للحكم، والتصرف بين هذه الشروح مع الاستعانة بمراجع أخرى مناسبة أثبتها في نهاية الكتاب، وقد حاولت الإبقاء ما أمكن على عبارات ابن عجيبة البديعة وأساليبه الجميلة في معظم الكتاب.

كما قمت بتجميع وترتيب الحكم في فصول حسب موضوعاتها، قدر الاستطاعة – حيث أنها في الأصل متفرقة الموضوعات كاللآلئ المنتشرة - فنظمتها في فصول متجانسة تقوية للمعنى، وقمت بتخريج الأحاديث النبوية قدر المستطاع.

وقد أخرجت هذه الحكم كاملة في كتاب سميته "منار السائرين وهداية السالكين في الطريق إلى رب العالمين"، ولكني وجدته كبيراً وقد يطول على بعض القراء، فأردت أن أعد مختصرا له (وهو هذا الكتاب) يضم معظم الحكم المهمة مع شرحها لتعميم الفائدة وتعظيم الانتفاع به.

وقد يعترض البعض على النظر في بعض الكتب التي تكلمت بطريقة التصوف، ولكن النقل عن هؤلاء نقلا يقبل ما يقبل، ويرد ما يرد، قد أجازه الكثير من العلماء، أبرزهم ابن القيم وابن تيميه والشاطبي في القديم، والدكتور يوسف القرضاوي في الحديث، فقد اعتبر ابن القيم أن هذا هو منهج أهل العدل والإنصاف، فقد قال في كتابه "مدارج السالكين":

"هذه الشطحات (يقصد الشطحات الصوفية) أوجبت فتنة على طائفتين من الناس، أحدهما: حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقا، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها...

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم وحسن معاملاتهم، عن رؤية عيوب شطحاتهم. ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم، وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: وهم أهل العدل والإنصاف، الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد ".

وقال ابن تيميه في رسالته عن "الفقراء": "وقد تنازع الناس في طريقهم: فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة... وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء...وكلا طرفي هذه الأمور ذميم... والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطيء، وفيهم من يذنب فيتوب...ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلا، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره".

ويقول أيضا عن مواجدهم: "إذا كانت أسبابها مشروعة... فهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانه وقساوة قلبه".

والشاطبي في الاعتصام لا ينكر أحوال الصوفية عامة، بل يرى أن من الواجب أن توزن أحوالهم بميزان الشرع فإن وافقته كانت صحيحة، وإلا كانت بدعة.

وقال العز بن عبد السلام عن أبي الحسن الشاذلي: "إن كلامه قريب العهد من الله".

وقال الدكتور يوسف القرضاوي: "وموقفي من التصوف هو موقف يتميز بالإنصاف، والاعتدال في تقويم التصوف، فلست مع المفرطين في مدحه، ولا من المبالغين في قدحه، فأحمد الله أن هداني إلى الموقف الوسط الذي لا يطغى في الميزان، ولا يخسر الميزان".

"ولا ينكر أحد أثر التصوف والمتصوفة في الحياة الإسلامية، فكم أسلم على أيديهم من كافر، وكم تاب على أيديهم من عاص، وكم رققوا من القلوب، وزكوا من النفوس، وهذبوا من الأخلاق، فلنذكر هذا لهم بجوار ما نذكر من سقطات وشطحات، والمتقدمون فيهم - بصفة عامة - أفضل من المتأخرين...."

وقال: ويجب أن نعيد "لفقه القلوب" مكانه ومكانته، وأن نوجه عناية الخاصة والعامة إلى "فقه السلوك"، سلوك طريق الله، وطريق الآخرة، فلا نجاة إلا به... ولا وصول إلى الله بسواه.. إنها التجارة الرابحة التي غفل عنها أكثر الخلق: التعامل فيها مع رب العالمين، ورأس المال لها هو العمر، والبضاعة هي الطاعة، والربح هو المغفرة والجنة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

(فاطر: 29-30)، وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل: 97).... فمن ضيع هذه التجارة، فقد ضيع نفسه، وخسر كل رأس ماله، وفاته خير الآخرة والأولى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الزمر: 15).

وخسارة رأس المال هنا لا عوض لها، إذ لا عمر بعد العمر، ولا تأخير إذا جاء الأجل: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (المنافقون: 11).. انتهى

وبمناسبة ذكر فقه القلوب وأهميته، فإن للإمام أبو حامد الغزالي كلمة جميلة في هذا المعنى وردت في مقدمة كتابه البديع "إحياء علوم الدين": "إن العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من الطب، الذي لا يفيد إلا صحة الجسد، فثمرة هذا العلم: طب القلوب والأرواح، المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب (مع أهميته) الذي يعالج منه الأجساد، وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد؟"

وأخيرا... فإن أصبت فيما أردته فبتوفيق من الله، ومما علمني إياه، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان... ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ (هود: 88)، وعلى الله الكريم اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وحسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول

في الفقر إلى الله

"مِنْ عَلاماتِ النَجْاحِ في النِّهاياتِ، الرُّجوعُ إلى اللهِ في البِداياتِ"

إذا توجهت همتك أيها العابد إلى طلب شئ.. أي شئ كان، وأردت أن ينجح أمره، وتبلغ مرادك فيه، وتكون نهايته حسنة وعاقبته محمودة، فارجع إلى الله في بداية طلبه، وانسلخ من حولك وقوتك، وقل كما قال ﷺ: "إن يكن هذا من عند الله يمضه" (صحيح الجامع الصغير)، فلا تحرص عليه ولا تهتم بشأنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ ربنا لم يكن، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء لم يقدره الله لك لم يقدروا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقدره الله عليك لم يقدروا على ذلك، جفت الأقلام، وطويت الصحف.

وتأمل هذا الحديث الجامع: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا و كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله

وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان" (رواه مسلم)، ولاحظ قوله ﷺ: "استعن بالله ولا تعجز"، فقد قدم الأمر بالاستعانة بالله، على النهي عن العجز، لكي يعلم الإنسان أن سبيل تخلصه من العجز إنما هو الاستعانة بالله عز وجل.

فإذا طلبت شيئا وكنت معتمدا فيه على الله ومفوضا أمرك إليه سبحانه كان ذلك علامة نجاح نهايتك وحصول مطلبك، قضيت في الظاهر أو لم تقض، لأن مرادك مع مراد الله... لا تشتهي إلا ما قضى الله، ولا تنظر إلا ما برز من عند الله.

ومن الرجوع إلى الله في البداية أن تحكم الأصل الشرعي من نقطة الانطلاق، وبالاستشارة والاستخارة... فأي قضية مباحة تحتاج إلى استشارة واستخارة... ومن ثمرات هذه الحكمة: تجديد النية مع الحرص على المعية..

۞ ۞ ۞

" لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ هِمَّتِكَ إلى غَيْرِهِ؛ فَالْكَرِيمُ لا تَتَخَطّاهُ الآمالُ "

إذا تعلقت همتك بشيء تريد تحصيله: فردها إلى الله، ولا تتعلق بشيء سواه، لأنه سبحانه كريم على الدوام، والكريم لا تتخطاه الآمال، وهو يحب أن يسأل فيجيب السؤال، ونعمه سحاء على مر الليالي والأيام، وقد قالوا في تفسير اسمه تعالى "الكريم": هو الذي إذا سئل أعطى، ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى.

" ما تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أنْتَ طالِبُهُ بِرَبِّكَ. ولا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طالِبُهُ بِنَفْسِكَ "

إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة وأردت أن تقضي لك سريعا فاطلبها بالله ولا تطلبها بنفسك، فإنك إذا طلبتها بالله تيسر أمرها وسهل قضاؤها، وإن طلبتها بنفسك صعب قضاؤها وتعسر أمرها قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (الأعراف: 128) فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ ﴾ (الطلاق: 3) أي كافيه كل ما أهمه.

قال رسول الله ﷺ يوصي عبد الله بن عباس: "يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" (صحيح الترمذي)

وقال ﷺ لبعض أصحابه وهو عبد الرحمن بن سمرة: "يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها " (مسند الإمام أحمد)

وعلامة الطلب بالله هو الزهد في ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه، فإذا جاء وقته تكوَّن بإذن الله.

وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والتكالب عليه، فإذا تعذر عليه انقبض قلبه، فمن طلب حوائجه بالله قضيت معنى وإن لم تقض حسا.

والعمل لله من أهل قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، والعمل بالله من أهل قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: 5).

فكل شئ تطلبه بالله سهل، وكل شئ تطلبه بنفسك صعب فلا تطلب طلبا إلا بالله مهما كان صغيرا، ولقد علمنا رسول الله ﷺ أن ندعو الله عز وجل في الصغيرة والكبيرة حتى إذا انقطع شسع نعلنا: "ليسأل أحدكم ربه حاجته، حتى يسأله الملح، وحتى يسأله شسع نعله إذا انقطع" (الترمذي وابن حبان).

وعلمنا رسول الله ﷺ ألا نعتمد على أنفسنا وهو مقتضى قولنا "لا حول ولا قوة إلا بالله".

وهذه الحكمة إنما تخاطب المؤمنين، أما الكافرون فينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ﴾ (الإسراء: 20)، فالأخذ بالأسباب قد تعقبه بعض النتائج، ولكن العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ ﴾ (آل عمران: 197-196)، فلله سبحانه وتعالى سنن مع المؤمنين: من توفيق وتيسير ولطف وبركة، وسنن مع الكافرين: من امتحان وإمهال واستدراج.. ثم أخذ عزيز مقتدر.

" خَيْرُ أوْقاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَدُ فيهِ وُجودَ فاقَتِكَ. وَتُرَدُّ فيه إلى وُجودِ ذِلَّتِكَ "

إنما كان ذلك خير الأوقات لحضورك فيها مع ربك، وانقطاع نظرك عن الوسائط والأسباب الموجبة لبعدك وحجبك، فهي لا محالة خير أوقاتك...

فالله عز وجل غناه ذاتي فهو الغني حقا، والعبد فاقته ذاتية، وعالم الأسباب مذكر لك بفاقتك، فيجب الدعاء والطلب من الله في كل الأحوال تذكيرا بفقرنا إلى الله.

وشهود هذه الفاقة هو خير أوقاتك لما في ذلك من تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية، ومن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره، وانظر أشرف خلق الله وهم الأنبياء بماذا خاطبهم الله تعالى، فما خاطبهم إلا بالعبودية، قال الله تعالى: ﴿ سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا ﴾ (الإسراء: 1)

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَـٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَـٰقَ وَيَعۡقُوبَ ﴾ (ص: 45)

وقد اختارها نبينا ﷺ حين خير بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا، فاختار أن يكون نبياً عبداً، فقد جاء في الحديث: "يا عائشة، لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك، إن حجزته لتساوي الكعبة، فقال إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت نبيا عبدا، وإن شئت نبيا ملكا؟ فنظرت إلى جبريل، فأشار إلي: أن ضع نفسك. فقلت: نبيا عبدا. فكان ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئا، يقول: آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد"، فدل على أن أشرف حال الإنسان هو العبودية لله، فبقدر ما يتحقق بها في الظاهر يعظم قدره في الباطن.

وقد جعل الله النصر والفتح مقرورنين بالفاقة والذل إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران: 123)

كما أنه جعل الخذلان وعدم النصر والمعونة في عكس ذلك، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (التوبة: 25)

إذن فخير أوقاتك أيها المريد وقت تشهد فيه وجود فاقتك: أي ظهورها.. والمطلوب فيها أن تقطع النظر عن التعلق بالأسباب، وترجع فيها إلى مسبب الأسباب، وتعلق همتك برب الأرباب، وتكتفي بعلم الله الكريم الوهاب..

وخير أوقاتك أيضا وقت تشهد فيه وجود ذلتك كما تقدم، لأنه سبب عزك ونصرك، إذ الأشياء كامنة في أضدادها، العز في الذل، والغنى في الفقر، والقوة في الضعف، والعلم في الجهل: أي في إظهار الجهل، إلى غير ذلك... قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (القصص: 5)

وقال تعالى في حق الصحابة حين كانوا في حالة الاستضعاف والإذاية تسلية لهم: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (النور: 55)

ومما جرت به العادة الإلهية، أن الفرج يعقب الضيق، فبقدر الفقر يكون الغنى، وبقدر الذل يكون العز، وبقدر العسر يكون اليسر... قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ

﴿ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ ﴾(الشرح: 5-6)، ولن يغلب عسر يسرين، فقد جاء في تفسير ابن كثير في شرح هذه السورة المباركة:

"قَالَ اِبْن جَرِير حَدَّثَنَا مَعْمَر عَنْ الْحَسَن قَالَ: خَرَجَ النَّبِيّ ﷺ يَوْمًا مَسْرُورًا فَرِحًا وَهُوَ يَضْحَك وَهُوَ يَقُول " لَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ.. لَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ".. فَإِنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْرًا "، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْعُسْر مُعَرَّف فِي الْحَالَيْنِ فَهُوَ مُفْرَد وَالْيُسْر مُنَكَّر فَتَعَدَّدَ وَلِهَذَا قَالَ: " لَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ"، فَالْعُسْر الأَوَّل عَيْن الثَّانِي وَالْيُسْر تَعَدُّد.

وَقَالَ الْحَسَن بْن سُفْيَان عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول اللهَّ ﷺ قَالَ: "أُنْزِلَ الْمَعُونَة مِنْ السَّمَاء عَلَى قَدْر الْمُؤْنَة، وَنَزَلَ الصَّبْر عَلَى قَدْر الْمُصِيبَة".

وَمِمَّا يُرْوَى عَنْ الشَّافِعِيّ أَنَّهُ قَالَ: صَبْرًا جَمِيلا، مَا أَقْرَب الْفَرَجا، مَنْ رَاقَبَ اللهَّ فِي الأمُور نَجَا، مَنْ صَدَّقَ اللهَّ لَمْ يَنَلْهُ أَذَى، وَمَنْ رَجَاهُ يَكُون حَيْثُ رَجَا.

وقد روي في موطأ الإمام مالك أن أبو عبيدة بن الجراح كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: "أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وأن الله تعالى يقول في كتابه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠ ﴾ (آل عمران: 200)، وقال الله تعالى: ﴿ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ (الطلاق: 7)

وإذا كان خير أوقاتك أيها المريد هو الوقت الذي تشهد فيه وجود فاقتك، فإن الدكتور البوطي يبرهن لك على أن أسوأ أوقاتك هو الوقت الذي تغيب فيه عن فاقتك وتتوهم أنك الغني المالك لزمام الأمور، وذلك لأسباب منها:

أولا: إن هذا الوهم يشكل حجابا يحجبك عن ربك عز وجل، فإن وهم الاستغناء يثير مشاعر الطغيان، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ (العلق: 6-7)

ثانيا: إن الذي يعيش مع أوهام استغنائه تغيب روح العبودية عن مظاهر عبوديته، هو في حركاته الجسدية يصلي، ولكنه في مشاعره وخواطره الفكرية يدير شئون دنياه، ويرتب الخطط اللازمة لتحقيق مصالحه، فهو مشدود بسائق العادة والعرف إلى ممارسة تلك التقاليد التي غابت عنها معاني العبادة، فهو ينقاد إليها على أنها ضريبة لابد منها لإسلامه.

من مقامة الفرج بعد الشدة

(لعائض القرني)

﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

"إذا ضاق الأمر اتسع، وإذا اشتد الحبل انقطع، وإذا اشتد الظلام بدا الفجر وسطع، سنة ماضية، وحكمة قاضية، فلتكن نفسك راضية، بعد الظمأ ماء وظل، وبعد القحط غيث وطل، يا من بكى من ألمه، ومرضه وكدّه، يا من بالغت الشدائد في رده وصده، عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمـر من عنده:

دع المقـادير تجـري في أعنتهـا | ولا تبيـتن إلا خالـي البالـي
ما بين غمضة عـين وانتباهتهـا | يغـيّر الله مـن حـال إلى حـالي

ما عرفنا لكثرة حزنك عذرك، سهِّل أمرك، وأرح فكرك، أما قرأت ألم نشرح لك صدرك، ألا تفرح، وفي عالم الأمل تسرح، وفي دنيا اليسر تمرح، وأنت تسمع ألم نشرح، يامن شكا الخطوب، وعاش وهو منكوب، ودمعه من الحزن مسكوب، في قميص يوسف دواء عيني يعقوب، وفي المغتسل البارد شفاء لمرض أيوب.

للمرض شفاء، وللعلة دواء، وللظمأ ماء، وللشدة رخاء، وبعد الضراء سراء، وبعد الظلام ضياء، نار الخليل تصبح باليسر كالظل الظليل، والبحر أمام موسى يفتح السبيل، ويونس بن متى يخرج من الظلمات الثلاث بلطف الجليل.

المختار في الغار، أحاط به الكفار، فقال الصِدِّيق هم على مسافة أشبار، ونخشى من الدمار، فقال الواثق بالقهار، إن الله معنا، وهو يسمعنا، ويحمينا كما جمعنا.

قل لمن في حضيض اليأس سقطوا، وعلى الشؤم هبطوا،وفي مسألة القدر غلطوا، اعلموا أنه ينـزل الغيث من بعد ما قنطوا، كان بلال يسحب على الرمضاء، ثم رفع على الكعبة لرفع النداء، وإسماع الأرض صوت السماء.كان يوسف مسجوناً في الدهليز، ثم ملك مصر بعد العزيز، كان عمر يرعى الغنم في مكة، ثم نشر بالعدل مُلكه، وطبعت باسمه السَّكة، وهو الذي قطع حبل الجور وفكَّه، وسحق صرح الطغيان ودكَّه.

يا من داهمته الأحزان، وأصبح وهو حيران، وبات وهو سهران، ألم تعلم أنه في كل يوم له شأن، يا من هده الهم وأضناه، وأقلقه الكرب وأشقاه، وزلزله الخطب وأبكاه، أنسيت من يجيب المضطر إذا دعاه.

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق بها بـه الـصدر الرحيـب
وأوطنـت المكــاره واطمــأنت وأرسـت في أماكنهـا الخطــوب
ولم تـر لانكـشـاف الـضر نفعـاً وما أجــدى بحيـلتــه الأريـب
أتـاك على قنــوط منـك غـوث يمن بـــه اللطيــف المستجيـب
وكـل الحــادثات وإن تناهــت فموصـــول بهـا فـرج قريـــب

سيجعل الله بعد عسر يسراً، ولا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً.

سينكسر قيد المحبوسين، في زنزانات المتجبرين، وسيسقط سوق الجلادين، الذي قطعوا به جلود المعذبين، وسيمسح دمع اليتامى، وتهدأ أنات الأيامى، وتسكن صرخات الثكالى. هل رأيت فقيراً في الفقر أبداً، هل أبصرت محبوساً في القيد سرمداً، لن يدوم الضر لأن هناك أحداً فرداً صمداً.

من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل همٍّ فرجا،بلا حول ولا قوة إلا بالله تحمل الأثقال، وتسهل الأهوال، وتصلح الأحوال، ويشرح البال ويرضى ذو الجلال. بشر الليل بصبح صادق يطارده على رؤوس الجبال، وبشر القحط بماء زلال، يلاحقه في أعماق الرمال، وبشر الفقير بمال، يزيل عنه الإملاق والأمحال:

واعلم أن لكل شدة، مدة، وإن على قدر المؤونة، تنـزّل المعونة، وإن الله يستخرج البلاء، بصادق الدعاء، وخالص الرجاء.

واعلم أن في الشدائد إذابة الكبر، واستدرار الذكر، وجلب الشكر، وتنبيه الفكر.

واعلم أن الشدائد ليست مستديمة، ولا تبقى برحابك مقيمة، ولعل الله ينظر إليك نظرة رحيمة، والدنيا أحوال، وألوان وأشكال، ولن تدوم عليك الأهوال، فسوف تفتح الأقفال، وتوضع عنك الأغلال، واصبر وانتظر من الله الفرج، فكأنك بليل الشدة قد انبلج:

لا تعجلن فربما ... عجل الفتى فيما يضره
فالعيش أحلاه يعود ... على حلاوته بمره
ولربما كره الفتى ... أمراً عواقبه تسره

واعلم أن الشدائد تفتح الأسماع والأبصار، وتشحذ الأفكار، وتجلب الاعتبار، وتعلم التحمل والاصطبار، وهي تذيب الخطايا، وتعظم بها العطايا، وهي للأجر مطايا.

فاطلب من الله الرعاية، واسأله العناية، فلكل مصيبة غاية، ولكل بلية نهاية. كم من مرة خفنا، فدعونا ربنا وهتفنا، فأنقذنا وأسعفنا، كم مرة جعنا، ثم أطعمنا ربنا وأشبعنا، كم مرة زارنا الهم، وبرح بنا الغم، ثم عاد سرورنا وتم، كم مرة وقعنا في الشباك، وأوشكنا على الهلاك، ثم كان من الله الانطلاق والانفكاك، أنت تعامل مع لطيف بعباده، معروف بإمداده، جواد في إسعاده، غالب على مراده، فلُذ به وناده، إذا داهمتك الشدائد السود، وحلت بك القيود، وأظلم أمامك الوجود، فعليك بالسجود، وناد يا معبود، يا ذا الجود، أنت الرحيم الودود، لترى الفرج والنصر والسعود.

أيها الإنسان في آخر النفق مصباح، ولِباب الهموم مفتاح، وبعد الليل صباح، وكم هبت للقانط من الفرج رياح.

أيها الظمآن وراء هذا الجبل ماء، أيها المريض في هذه القارورة دواء، أيها المسجون انظر إلى السماء، أيها المتشائم امسك حبل الرجاء.

كن كالنملة في صعود وهبوط، وعلو وسقوط، ولا تعرف اليأس ولا القنوط، ولا تعترف بالإحباط في كل شوط.

كن كالنحلة في طلب رزقها قائمة، وفي حسن ظنها دائمة، وعلى الزهور حائمة، وفوق الروض عائمة وليست مع اليأس نائمة.

كن كالهدهد، مع كل صباح ينشد، ومع الربيع يتجدد، وعلى بلقيس تردد، وسليمان له تفقد، فأسلم لربه ووحد، وأنكر على من كفر وألحد، فنال المجد المخلد، والذكر المؤبد.

على رؤوس الجبال شمس من الفرج شارقة، وعلى مشارف التلال هالة من النور بارقة، وعلى كل باب للحزن من السرور طارقة.

افتح عينيك، ارفع يديك، لا تساعد الهم عليك، ولا تدعو اليأس إليك، فإن فرجه أسرع من البرق الخاطف، وله في كل لحظة لطائف.

اللهم احلل الحبال المعقدة، وسهل الأمور المشددة، واكشف السحب الملبّدة، وأجب سهام الليل المسددة.

اللهم أغننا عن الناس، وارزقنا مما في أيديهم اليأس، ورد عنا البأس، واجعل التقوى لنا أجمل لباس، وأقوى أساس.

لك الحمد حتى يملأ طباق الغبراء، وأجواء السماء، ولك الثناء حتى تشدو به الأطيار، وتميل به الأزهار، ويحمله الليل والنهار.

ولك المجد يا ذا الجود، ما قام الوجود، وسال الماء في العود، ونصب للحياة عمود.. هل يرجى سواك، هل يعبد إلا إيّاك، هنيئاً لمن دعاك، وطوبى لمن ناجاك، والصلاة والسلام على عبدك ومصطفاك، وحامل هداك."

۞ ۞ ۞

"مَتى أطْلَقَ لِسانَكَ بِالطَّلَبِ فَاعْلَمْ أنَّهُ يُرِيدُ أنْ يُعْطِيَكَ"

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: 60) وقال سبحانه: " ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: 186) وقال عز من قائل: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (النمل: 62)..

وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إلى السماء أن يردهما صفرا " رواه أبو داود وابن ماجة والترمذي والحاكم وصححه، وفي رواية الترمذي: "أن يردهما خائبتين".

فمتى أطلق لسانك أيها المريد بالطلب لشيء تجلى في قلبك أو احتجت إليه فغلب ظنك على أن الحق تعالى أراد أن يعطيك ما طلبت منه، فلا تحرص ولا

تستعجل، فكل شئ عنده بمقدار، فقد وعد بإجابة دعوة المضطر، والله لا يخلف الميعاد، فإن أطلق لسانك في الدعاء من غير سبب، فخير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك.

قال ﷺ: "ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا أتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم" فقال رجل من القوم: إذا نكثر، قال: "الله أكثر" (الترمذي والحاكم وصححه)، وفي رواية للترمذي: "فإما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا".

وفي حديث حذيفة: "يأتي عليكم زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق" (الحاكم)

الدعاء والقدر:

قال ﷺ: "لا يرد القدر إلا الدعاء" (الحاكم وابن حبان في صحيحهما).

وقال ﷺ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر" (الحاكم وابن حبان في صحيحهما)

وفي حديث عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله ﷺ: "لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما قد نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة" (الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد)، يعتلجان: أي: يتصارعان.

ومعنى الحديث: مما قد نزل: أي من بلاء نزل: بالرفع إن كان معلقا، وبالصبر إن كان محكما. فيسهل عليه تحمل ما نزل به فيصبره عليه أو يرضيه به حتى لا يكون في نزوله متمنيا خلاف ما كان بل لعله يتلذذ بالبلاء كما يتلذذ أهل الدنيا بالنعماء، وذلك بسبب اللطف الذي يتلبس به.

ومما لم ينزل: أي بأن يصرفه عنه ويدفعه منه، أو يمده قبل النزول بتأييد من يخفف عنه أعباء ذلك إذا نزل به.

قال الغزالي رحمه الله في كتاب "إحياء علوم الدين": "فإن قلت: فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟... فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، والدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، وكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله عز وجل أن لا يحمل السلاح. قال عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ (النساء: 71)، وأن لا تسقى الأرض بعد نبت البذر، فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر.

والذي قدر الخير قدره بسبب، وكذلك الشر قدر لرفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته، ثم في الدعاء من الفائدة أنه يستدعي حضور القلب مع الله عز وجل وذلك منتهى العبادات... فالدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والإستكانة ".

قال ﷺ: "من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة، وما سئل الله شيئا يعني أحب إليه من ان يسأل العافية" (سنن الترمذي)

وقال ﷺ: "من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء" (الحاكم في المستدرك وصححه)

وقال الكتاني رضي الله عنه: لم يفتح الله لسان المؤمن بالمعذرة إلا وقد فتح له بالمغفرة.

وقال الخفاف رحمه الله: وكيف لا يجيبه وهو يحب صوته، ولولا ذاك ما منح الدعاء..

۞ ۞ ۞

" ما طَلَبَ لكَ شَيْءٌ مِثْلُ الاضْطِرار
وَلا أَسْرَعَ بِالمَواهِبِ إلَيْكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ والافْتِقار "

أعلى حالاتك في الطلب وأرقاها أن تطلب وأنت في أشد حالات الاضطرار، فاضطرار العبد هو أخص أوصاف عبوديته، والاضطرار المطلوب منه: ألا يتوهم العبد من نفسه شيئا من الحول والقوة، ولا يرى لنفسه سببا من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه، ويكون بمنزلة الغريق في البحر، أو ضال في التيه القفر: لا يرى لغياثه إلا مولاه، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحدا سواه.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ (النمل: 62).

وقال بعض العارفين: المضطر الذي يقف بين يدي مولاه، فيرفع يديه إليه بالمسألة، فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئا، فيقول: يا مولاي، هب لي بلا شيء، "إنما الصدقات للفقراء والمساكين"

فما قربك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه، والوقوف بين يديه، متحليا بحلية العبيد، هنالك تنال كل ما تريد.

والذلة والافتقار أمران لازمان للعبد، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى من اتصف بهما: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران: 123)، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: كنت رديف النبي ﷺ فقال: "يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت بلى، فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا ". (مسند الإمام أحمد)

قال ابن عطاء الله في كتابه "لطائف المنن": والجالب للتوفيق، وعلامة صدق الرجعى إلى الله في أول كل فعل وترك، هو تحقيق الفقر والفاقة إليه، والانغماس في بحر الذلة والمسكنة بين يديه، واستصحاب ذلك إلى الفراغ من ذلك أبدا، فلا تدخل جنة عملك وعلمك وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما

قال من خذل، فأخبر الله عنه بقوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (الكهف 35)، ولكن ادخلها كما بين لك، وقل كما رضي لك: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (الكهف: 39)، وافهم هاهنا قوله ﷺ: "لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة"، وفي رواية أخرى "كنز من كنوز تحت العرش" (رواه البخاري)، فالبرى من الحول والقوة، والرجوع إلى حول الله تعالى وقوته هو الكنز، وسر الفوز... انتهى.

قال سعيد حوى: فإذا أردت من الله هبة أو موهبة، فالطريق إلى ذلك هو ذلتك وافتقارك، وبقدر ما تتذلل لله وتفتقر إليه يعطيك من كرمه ومن مواهبه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ (فاطر: 15)، أَيْ أنتمْ الْمُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيع الْحَرَكَات وَالسَّكَنَات.

وقال الدكتور البوطي (بتصرف): يظن كثير من الناس أن الإنسان يقع في حالة الاضطرار عندما يكون في شدة أو كرب، ولكن حقيقة الأمر أن الإنسان في كل أحواله مضطر ولكنه غافل عن ذلك، وإذا انتبه إلى الأخطار التي تحيط به من كل صوب طوال الوقت، لأيقن بذلك، فإذا تذكر الإنسان هذه الحقيقة، كان في كل تقلباته وأحواله لائذا بالله يسأله الحماية والتوفيق والسلامة، موقنا أن أسباب الوقاية المادية كلها لن تغني عنه شيئا إن تخلى الله عنه ووكله إليها، وموقنا بأن أسباب الهلاك كلها لن تنال منه شيئا إن جعله الله في حرزه ووقايته.

وسر استجابة دعوة المضطر هي روح الاضطرار السارية في دعائه، ولعل هذا ما أراده عمر ﵁ بقوله: "أنا لا أنعى هم الإجابة، ولكنني أنعى هم الدعاء"، فليس الدعاء المستجاب متمثلا في عبارات يؤديها الداعي ويكررها، وإنما هو متمثل في الحالة التي يتلبس بها الداعي، وهي شعوره ويقينه بأنه منقطع الآمال عن الخلائق كلهم إلى الله وحده، فهو وحده سبحانه منتهى رجاؤه وأمله".

۞ ۞ ۞

" العارفُ لا يَزولُ اضْطِرارُهُ، وَلا يكونُ مَعَ غَيْرِ اللهِ قَرارُهُ "

إن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت، زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحس عليهم، ولو شهدوا قبضة الله تعالى الشاملة المحيطة، لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم.. والعبد لا يزال مفتقرا للزيادة على الدوام، فلا يزول اضطراره إلى الله أبدا، وهو إشارة إلى عدم النهاية في ذلك وفي كل أمر، وتأمل قول الله تعالى لسيد العارفين: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه: 114)، فالاضطرار إلى زيادة العلم لا ينقطع ولو جمع الإنسان علوم أهل السموات والأرض.

وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره: فلأن قلب العارف رحل إلى الله من الكون بأسره، فلم تبق له حاجة إلى غيره، وأيضا سابق العناية لا يتركه يركن إلى غير مولاه، فمهما ركن قلبه إلى شيء، شوشته عليه العناية، واكتنفته الرعاية، فهو محفوظ من الأغيار ومحفوف من كل جهة بمدد الأنوار.

صفحة بيضاء - تترك فارغة

الفصل الثاني

علامات على الطريــق

" الغافِلُ إذا أَصْبَحَ يَنْظُرُ ماذا يَفْعَلُ، وَالعاقِلُ يَنْظُرُ ماذا يَفْعَلُ اللهُ بِه"

الغافل إذا أصبح نظر ماذا يفعل بنفسه، فيدبر شؤونه ومآربه بعقله وبحدسه، فهو ناظر لفعله، معتمد على حوله وقوته، فإذا فسخ القضاء ما أبرمه، وهدم له ما أمله، غضب وسخط وحزن وقنط، فنازع ربه وأساء أدبه، وقد يسبب له ذلك من الله البعد، ويستوجب في قلبه الوحشة والطرد، إلا إن حصل له إياب، وتذكر وأناب، وأدام الوقوف بالباب حتى يلحق بأولي الألباب، الذين فهموا أن كل ما يقضيه لهم ربهم.. إنما هو الخير لهم.

وأما العاقل وهو العارف فلا يمر بذلك، فقد تحققت في قلبه عظمة ربه وانجمع إليه بكلية قلبه، فأشرقت في قلبه شموس العرفان وطوى من نظره وجود الأكوان، فليس له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار، تصرفه بالله ومن الله وإلى الله، فقد فني عن نفسه وبقي بربه فلم ير لها تركا ولا فعلا ولا قوة

ولا حولا، فإذا أصبح نظر ماذا يفعل الله به، فتلقى كل ما يرد عليه بالفرح والسرور والبهجة والحبور لما هجم عليه من حق اليقين والغنى برب العالمين...

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "أصبحت ومالي سرور إلا مواقع القدر".

وقال أبو عثمان: "منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته".

فإذا أراد العبد أن يكون تصرفه بالله فلينعزل عن حظوظه وهواه، فإذا أراد أن يفعل أمرا فليتأن ويصبر ويستمع إلى الهاتف، فإن الله سبحانه وتعالى يسمعه ما يريد أن يتوجه إليه فعلا أو تركا، قال ابن عجيبة عن نفسه: وقد جربنا هذا في سفرنا وإقامتنا فكنا لا نتصرف إلا بإذن خاص والحمد لله.

فعليك أيها المريد بالاعتناء بهذا الأمر، وبملازمة الأدعية التي تكسب الرضا والتسليم، والمقصود منها تدبر معانيها لا مجرد ألفاظها، فالمراد المعاني لا الأواني... فقد ورد في الأثر: "اللهم إني أصبحت لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني، فوفقني اللهم لما ترضاه مني من القول والفعل، وفي عافية وستر، إنك على كل شئ قدير"، (وفي رواية: لما تحبه وترضاه من القول والعمل في طاعتك إنك ذو الفضل العظيم).

وكالدعاء المنسوب لعيسى عليه السلام، وورد في الإحياء، تعبيرا عن هذا المعنى: "اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو،

وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهنا بعملي، فلا فقير أفقر مني، اللهم لا تشمت بي عدوي، ولا تسئ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلط علي من لا يرحمني يا حي يا قيوم"..

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "يجب على المسلم أن يعلم أنه لا يستقل بأمر نفسه في أفعاله، وإنما هو مقود بقرار الله وقضائه، وبعونه وبتدبيره، والتخطيط في حياة المسلم أمر مندوب، وهو من عالم النوايا التي يجازى عليها، وهي سيرة الرسول ﷺ، إذن فلا حرج أن يخطط المسلم ليومه - بل ذلك هو الأولى - ولكن عليه أن يعلم أن التنفيذ الفعلي لذلك التخطيط يتوقف على توفيق الله وقضائه وقدره، ولعل الحيلولة بين المرء وما أراد في أمر ما هو كل الخير، لأن الإنسان علمه محدود، والمؤمن الحق لا يكون إلا واثقا بحكمة الله ورحمته، وأن ما اختاره الله له هو الخير، وإن كان ظاهره على خلاف ذلك، قال تعالى: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء: 19)، وحتى في الأمور التي لا يستبين له ولا لغيره وجه الخير فيها، فإن المسلم قد يرى فيها تربية من الله له، وإيقاظ له من الغفلة إلى مزيد من الانضباط، فهي وإن تلقاها ضربات موجعة، ولكنها كعصي المؤدب، قال الشاعر:

فقسى ليزدجروا، ومن يك راحما   فليقس أحيانا على من يرحم

.. انتهى

ورحم الله من قال: "ورب مكروه عندك نعمة، نجاك الله به من نقمة، وأحلك به صهوة القمة، فلا تكره ما قدره الله وأتمه... "

فالعاقل أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى الله فيقول: ماذا يفعل الله بي، فهو ناظر إلى الله تعالى، وإلى ما يرد عليه منه... فانظر إذا استقبلك شغل... فإن عاد قلبك في أول وهلة إلى حولك وقوتك فأنت المنقطع عنه، وإن عاد قلبك إلى الله فأنت الواصل إلى الله.. وكل العالم في قبضته سبحانه...

واعتبر بعمرة الحديبية، وذلك إن النبي ﷺ عند بروك ناقته لما أراد توجيهها إلى البيت الحرام قال: "إنما حبسها حابس الفيل، ولا تدعوني اليوم قريش إلى خطة فيها صلة رحم إلا أجبتهم إليها" (البخاري وأحمد)، وكان ما تم وأنزل الله سورة الفتح، فظهرت بعد ذلك الفوائد التي تضمنها ذلك التدبير البديع والتقدير الحسن.

❁ ❁ ❁

"إذا أَرَدْتَ أنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ، فانْظُرْ: فيما يُقيمكَ؟"

هذه الحكمة تعطي الإنسان ميزانين: أحدهما عام والآخر خاص، الميزان العام يتناول طبيعة العباد: فكل إنسان يختار لنفسه دورا ورسالة في الحياة، أدرك ذلك أم غفل عنه، أناس غلب عليهم حب الخيرات وعمل الصالحات، وآخرون اختاروا لأنفسهم الشر والفساد، فطوبى لمن خلقه الله للخير وأجري الخير على يديه، وويل لمن اختار الشر، وجري الشر على يده، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: "من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده" (صحيح الجامع الصغير)، وفي الأثر: "من أراد أن يعلم منزلته عند الله

فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه".

فانظر أيها السائر في أحوالك... فإن كنت ممن تعظم أمر الله وتحسن الظن به، تمتثل أمره وتجتنب نهيه، وتسارع في مرضاته وتتحبب إلى أوليائه، فأنت من المكرمين، خاصة إذا وجدت شيخا مربيا فهي بشارة طيبة، لأنه يقال أن الله لا يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه... وأما إن كنت تتهاون في أمره وتتساهل في نواهيه، وتتكاسل عن طاعته وتهتك حرماته وتعادي أولياءه، فأنت من المهانين، إلا إذا عدت وأنبت وتداركتك عناية من رب العالمين....

والميزان الخاص يتناول ساعات العبد وأوقاته، فعليك أن تراجع نفسك الحين بعد الحين، وتنظر إلى العمل الذي بين يديك، وتزنه بميزان هذه الحكمة، فتستبشر بالخير وتزيد إن كانت أوقاتك في الصلاح، أو تنزجر وتعود وتنيب إذا كانت في غير ذلك.

۞ ۞ ۞

" مَنْ وَجَدَ ثَمرَةَ عَمَلِه عاجِلاً فَهُوَ دَليلٌ عَلى وُجودِ القَبولِ آجِلاً "

ثمرة العمل العاجلة هي لذيذ الطاعة من حضور القلب، وحلاوة المناجاة، وأنس القلب بالمراقبة...

ودليل وجود هذه الثمرة: النشاط في النهوض إليها والاغتباط بها والمداومة عليها، وهي علامة حلول الهداية في القلب...

قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًىۗ ﴾ (مريم: 76) فمن رأيناه في زيادة الأعمال، والترقي في الأحوال، علمنا أنه وجد لعمله ثمرة، وهي بشارة له على قبولها.

ولكن يجب التنبيه هنا على أنه ليس شئ من البر إلا ودونه عقبة يحتاج إلى الصبر فيها، فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة، وإنما هي: مجاهدة النفس ثم مخالفة الهوى ثم اللذة والتنعم، قال عتبة الغلام: "كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة".

قال الحسن البصري: "تفقدوا الحلاوة في ثلاث، فإن وجدتموها فأبشروا وامضوا لقصدكم، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكر، وعند السجود".

فكأن للمؤمن جنتين: جنة معجلة: وهي حلاوة الطاعة ولذاذة المناجاة والاستئناس بفنون المكاشفات، وجنة مؤجلة، فيها ما فيها، فهي فنون المثوبات، وعلو الدرجات.

وكذلك العبد إذا وقعت منه زلة أو هفوة، وجد لا محالة لذلك مرارة وألما في قلبه، فوجدان هذه المرارة والألم في المعصية علامة على صحة القلب وما وجد من الحلاوة والنعيم في الطاعة، فهذه هي الحلاوة التي هي الميزان للأعمال

المقبولة وغير المقبولة، ولكن لا ينبغي للعابد أن يقصد بعبادته نيل هذه الحلاوة فإن ذلك مما يقدح في إخلاص عبادته، وصدق إرادته وليكن اعتناؤه بحصولها لتكون ميزانا لأعماله ومحكا لأحواله فقط.

وهناك الحلاوة التي يقذفها الله في قلب عبده المؤمن، جزاء عاجلا لبعض الطاعات والأعمال القلبية، كما ورد في جزاء حفظ البصر، وكما ورد في غير ذلك من الأحاديث، ومنها التالي:

- "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" (صحيح الجامع الصغير).
- "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا" (صحيح مسلم).
- ومن ثمرة العمل العاجلة أيضا: انتفاء الحزن، لأن حلاوة العمل تقهر الحزن والغم.
- ومن ثمرته كذلك.. الحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: 97): قيل في الحياة الطيبة معاني بديعة كثيرة، منها أنها القناعة، والرضا والتسليم، والطمأنينة وراحة القلب، وغير ذلك من المعاني الطيبة الجامعة.
- ومن الثمار العاجلة أيضا محبة الخلق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ (مريم: 96).

فالله عز وجل إذا أحب عبدا أعلم جبريل فينادي في السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه ثم يوضع له القبول في الأرض، كما ورد في الحديث:

" إِنَّ اللهَّ إِذَا أَحبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل فَقَالَ يَا جِبْرِيل إِنِّي أُحِبّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ فَيُحِبّهُ جِبْرِيل، قَالَ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْل السَّمَاء إِنَّ اللهَّ يُحِبّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ قَالَ فَيُحِبّهُ أَهْل السَّمَاء ثُمَّ يُوضَع لَهُ الْقَبُول فِي الأرض، وَإِنَّ اللهَّ إِذَا أَبْغَض عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل فَقَالَ يَا جِبْرِيل إِنِّي أُبْغِض فُلانًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ فَيُبْغِضهُ جِبْرِيل ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْل السَّمَاء إِنَّ اللهَّ يُبْغِض فلانًا فَأَبْغِضُوهُ قَالَ فَيُبْغِضهُ أَهْل السَّمَاء، ثُمَّ يُوضَع لَهُ الْبَغْضَاء فِي الأَرْض" (صحيح مسلم)؛ فهذا من أسباب وجود المودة للصالحين...

- كذلك قد يكون ظهور الثمرات المفيدة شرعا في الدنيا علامة على القبول في الآخرة، كهداية المدعوين، والفتح، والنصر، واستجابة الدعاء... الخ.

ويقول الدكتور البوطي (بتصرف): إن العمل الصالح الذي يتقرب به العبد إلى الله عز وجل قد يكون مقبولا عنده تعالى، وقد لا يكون مقبولا عنده، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: 27)، وقال عز وجل عن أقوام عملوا الصالحات بحسب الظاهر: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣ ﴾ (الفرقان: 23).

فابن عطاء الله يلفت النظر إلى قرينة إن وجدت، ربما دلت على قبول الله للعمل، وهي أن يجد العبد ثمرة طاعته عاجلا، أي في الحياة الدنيا، بل ربما أثناء تلبسه بتلك الطاعة.

فمثلا، ربما كان من علائم قبول الله للصلاة أن يشعر المصلي فيها بلذة

الإقبال عليه سبحانه، وأن ينصرف بكليته إليه أثناء خطابه ومناجاته له، وأن يشعر بعظمة من يقف خاشعا بين يديه.. ومن علائم قبول الله لها أن تصده عن الوقوع في المحرمات، وأن تبعث في نفسه الرغبة في الرجوع إليها، أي إلى الصلاة مرة أخرى.

ومن علائم قبول الله لذكر الذاكرين، أن تنبعث اليقظة إلى مراقبة الله تعالى في قلوبهم، وأن يبعث الخشية من الله في نفوسهم.. وأن يورثهم الطمأنينة على شئون دنياهم وأسباب معيشتهم.. وهكذا ".. انتهى

" مَتى جَعَلَكَ في الظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِه، وَرَزَقَكَ في الباطِنِ الاسْتِسْلامَ لِقَهْرِه، فَقَدْ أَعْظَمَ المِنَّةَ عَلَيْكَ "

إنه استسلام العبد لكل ما قضى الله به في حقه، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (لقمان: 22)

فمتى جعلك أيها الإنسان في الظاهر ممتثلا لأمره ومجتنبا لنهيه، وفي الباطن مستسلما لقهره (الشدائد والصعاب على اختلافها)، فقد أعظم المنة عليك، حيث أراح ظاهرك من عنت المخالفة، وأراح باطنك من تعب المنازعة "والله ذو الفضل العظيم".

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "المراد بالاستسلام هنا الصبر مع الرضا على ما قضى به الله عز وجل، وهذا الرضا من أحوال الباطن، أما الاستسلام القسري الذي يشترك فيه الناس جميعا، فهو مظهر لضعف الإنسان وعجزه عن رد ما قد قضى الله عليه به، وهو ليس أمرا باطنيا، بل هو من أحوال الظاهر... والتكاليف التي خاطبنا الله بها هي الأخرى صنف من أصناف تلك الشدائد، ولولا ذلك لما سميت بالتكاليف.

والرضا بالشيء لا يتنافى مع ما قد يجده الراضي من الآلام بسببه، ألا ترى المريض كيف يرضى بإجراء العمل الجراحي الذي لابد له منه مع ما يعلم ما تسببه من آلام ومزعجات شتى؟ وفي هذه الحالة لابد أن يجتمع الرضا مع الصبر: ينبثق الرضا من قرار العقل وحكمته، وينبثق الصبر من واقع الألم وضروراته ".

۞ ۞ ۞

" لا يُخافُ عَلَيْكَ أنْ تَلْتَبِسَ الطّرقُ عَلَيْك، وَإنَّما يُخافُ عَلَيْك مِنْ غَلَبَةِ الهَوى عَلَيْكَ "

الطرق: هي السبل الموصلة إلى مرضاة الله عز وجل، وهي في أصلها سبيل واحد، لا ثاني له، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾ (الأنعام: 153)، ولعله لذلك السبب تأتي كلمة الظلام في كتاب الله دائما بلغة الجمع (ظلمات)، ولا يأتي النور إلا مفردا.

الهوى: هو الشيء الذي تميل إليه النفس، ويقابل الدين والعقل عادة..

لاشك أن الله سبحانه بين لنا طريق الوصول، عبر آيات الكتاب الحكيم، وعلى لسان رسولنا الكريم ﷺ، فما ترك عليه الصلاة والسلام شيئا يقربنا إلى الله إلا ودلنا عليه، ولا شيئا يبعدنا عنه إلا حذرنا منه، فما رحل إلى الله تعالى حتى ترك الناس على الدين القويم والمنهاج المستقيم، على طريق بيضاء لا يضل عنها إلا من كان أعمي، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة: 3).

وقال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: 256)

قال أحدهم: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.

فلا يخاف عليك التباس الهدى، إنما يخاف عليك إتباع الهوى.. فلا يخاف عليك التباس الحق، وإنما يخاف عليك جهلة الخلق، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ (الأنعام: 116)..

فإذا التبس الأمر، فلينظر المسلم إلى الأقرب إلى الهوى فيخالفه، وعلى الإنسان أن يكون دائم الحذر يحاسب نفسه دائما، هل هو سائر في طريق ما كأثر من آثار الهوى، أو كأثر من آثار حظوظ النفس، وليحاول أن يرجع إلى الحق الصريح الواضح وليستعن بالله.

۞ ۞ ۞

"إذا التبَسَ علَيْكَ أمْرانِ فانْظُرْ أثْقَلَهُما علَى النَّفْسِ فاتَّبِعْهُ،
فَإنَّهُ لا يَثْقُلُ علَيْها إلّا ما كانَ حَقّاً"

قيل: هذا ميزان صحيح في حق السائرين المشتغلين بالجهاد الأكبر:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ (العنكبوت: 69)

فكل ما يثقل على نفس المريد وتنفر منه فهو حق، فالواجب على المريد اتباعه، وكل ما يخف عليها فهو باطل وفيه حظها، فالواجب عليه اجتنابه... وانظر التكاليف الشرعية تجدها مخالفة لهوى النفس، وما كفر من كفر إلا بتتبع الأهواء، والله أعلم.

وإنما يكون ذلك حيث لا تتضح أمام العارف الأحكام، أما إذا اتضحت فإياها فالزم ولو وافق الهوى، إذ الأصل أن العارف هو الذي وصل إلى أن يطابق هواه الحق والعدل والصواب، وفي الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به" (الأربعون النووية)، وفي هذه الأحوال فلينظر العبد إلى ما هو أكثر فائدة وأعظم مزية فليقدمه على غيره..

قال بن عجيبة: وثمة ميزان آخر تعرف به العمل الذي فيه حظ النفس وهواها، وما لاحظ لها فيه، وهو أن تعرض عليها الموت وأنت في ذلك العمل فإن رضيت الموت وأنت في ذلك العمل فالعمل صحيح، وإن لم ترض بالموت وهي في ذلك العمل فالعمل باطل، فكل عمل لا يهزمه الموت فهو صحيح، وكل عمل يهزمه الموت فهو باطل.. يعني فيه الهوى والحظ.

"أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ؛ الرِّضا عَنِ النَّفْس،
وَأَصْلُ كُلِّ طاعةٍ ويَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ؛ عَدَمُ الرِّضا مِنْكَ عَنْها"

إذ كل من رضي عن نفسه استحسن أحوالها وغطى مساوئها، ومن اتهم نفسه وأساء ظنه بها بحث عن عيوبها واستخرج مساوئها، قال رسول الله ﷺ: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني" (سنن الترمذي)، وقال ﷺ: "ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه" (البزار والطبراني)، وهو معنى بينه رسول الله ﷺ في حديث آخر: "إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك" (أبو داود وابن ماجة).

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: 49)، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (النجم: 32).

وكلمة النفس هنا، يراد بها الجوانب السلبية من النفس: مثل الشهوات والغرائز والأخلاق الرديئة والطباع السيئة والأهواء المضادة للشرع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ ﴾ (يوسف: 53).

فابحث أيها المريد عن مساوئك واتهم نفسك، ولا تستحسن شيئا من أحوالها، فإنك إذا رضيت عنها واستحسنت أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر، وحجبتك عن الحضرة وأنت تنظر.

وكذلك يوصي الشيوخ بعدم المراقبة للناس وعدم المبالاة بهم، إذ لا يتخلص من دقائق الرياء إلا بإسقاطهم من عينه وسقوطه هو من عينهم، ومن أراد أن يتخلص فليصحب من تخلص.

وهناك فرق بين قبول الذات - بمعنى حمد الله على ما وهب به الإنسان من مواهب فضلها به على كثير من الناس - وعدم الرضا عن سلوكيات النفس للترقي بأحوالها ومجاهدة أهوائها.

يقول سعيد حوى: إنك تلاحظ أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا كثيري الخوف، يقول أحدهم: لقيت ثلاثين بدريا وما من واحد منهم إلا وهو يخشى على نفسه النفاق، ونجد الكافر يقول: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (الكهف: 36) فهو مغرور مطمئن، بينما نجد أهل الإيمان: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون: 60).

العقلية الكافرة تعمل كل الموبقات معجبة بنفسها وراضية عن أحوالها، أما العقلية المؤمنة فهي تفعل كل شئ من الخيرات وهي خائفة من الله عز وجل، خائفة من العجب، خائفة من محبطات الأعمال، وهكذا... وعندما يكون الإنسان راضيا عن نفسه لا يقبل نصيحة لأنه يرى في نفسه الكمال، ولكنك عندما تكون غير راض عن نفسك تبحث عن الأفضل وتطلب دائما الانتقال من حال إلى حال ومن حسن إلى أحسن ومن طور إلى طور ومن مقام إلى مقام وهكذا... انتهى

قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

" لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُهُ ، وَلا يَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقالُهُ "

الذي ينهضك حاله هو الذي إذا رأيته ذكرت الله، فإذا كنت غافلا تذكرت، أو إذا كنت حريصا على الدنيا زهدت... فعليك بصحبة ذوي العلم الصحيح والحال الطيب.

يدلك على الله مقاله: أي عنده علم يدلك على الله عز وجل، وبالذات العلم الذي له علاقة بقضايا القلوب والأرواح.

إن هناك أناسا يحس الإنسان أن حاله تتغير إلى الأحسن عند الاجتماع بهم، فمن فتور عن العبادة إلى إقبال على الله بها، ومن انقباض إلى انشراح، إلى أنس بالله عز وجل.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن من وراء المادة المرئية أسراراً تدق عن الرؤية والرصد... إن لله تجليات على عباده.. له تجليات رحمة يقبل بها على المتحققين بمعاني العبودية له عز وجل، التزاما وذكرا وتعظيما ومهابة وحبا، واستغفارا وتوبة عند كل إساءة وتقصير.. وله تجليات مقت يقبل بها على السادرين في غيهم، العاكفين على فسقهم، المستخفين بشرائع ربهم...

أفتظن أن الرحمة التي يتجلى الله بها على الصنف الأول من عباده، تبقى خفية داخل سرائرهم وفي عمق كيانهم؟.. إن آثار هذا التجلي لابد أن تطفح على ظواهرهم وأشكالهم، ولا بد أن تسري منه أشعة تمتد من نفوسهم إلى أبصارهم، فتخترقها لتسري إلى طوايا الأقربين منهم والجالسين إليهم، دون أن

تدركها الأبصار، وسرعان ما يظهر أثر ذلك على أولئك الذين يجالسونهم ويقبلون إليهم، رقة في القلب، وانشراحا في الصدر، وحنينا إلى الحق جل جلاله.

كذلكم الحال عندما يكون الأمر على النقيض من ذلك: فإذا تجلى الله تجلي مقته على الفريق الثاني من عباده، فلابد أن تطفح آثار ذلك المقت والغضب الإلهي على ظواهرهم، تمتد من ذلك قترة على وجوههم وقسماتهم، وتخترق من ذلك المقت أشعة غير مرئية، نفوسهم فأبصارهم، لتسري إلى نفوس الأقربين منهم والجالسين إليهم، قسوة في القلب، وضيقا في الصدر، وضعفا ولينا أمام الشهوات والأهواء.

إن لتجليات الله قصة وأي قصة، يضيق عن ذكرها البيان، تبرز الصورة الباهرة الأخاذة منها في تجلي الله عز وجل لجبل الطور إذ كان يناجي كليمه موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فانعكس من أثار ذلك التجلي على موسى الذي لم يكن يرى إلا الجبل، ما جعله يقع أرضا، ويخر صعقا.

وتبرز الصورة الملطفة والمصغرة عنها في تجليات الله على قلوب عباده، فما كان منها تجلِّي تحبب وألطاف، فإنها تنسي صاحب ذلك القلب ذاته والدنيا التي من حوله، وتقذف به في بحر من النشوة والنعيم، وتملأ كيانه رضا، أيا كان الحالة التي فيها.. وما كان منها تجلي مقت وغضب، يغلف قلب صاحبه بغلاف من القسوة، ويحجبه عن بوارق الحقيقة اللامعة، وعن آيات الله الباهرة.

والمهم أن تعلم أن لكل من هذين التجليين آثارا تمتد إلى الآخرين من المجالسين والأقربين، فتجليات الحب والرحمة تسري أنوارها إلى نفوسهم

بسائق الرشاش والعدوى، وتجليات المقت والقهر، يمتد دخانها وفيح ظلماتها إليهم أيضا بالسبب ذاته.

وصدق رسول الله ﷺ القائل: "مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو أن تجد ريحا خبيثة " (رواه الشيخان). انتهى

والجدير بالذكر أن ذلك قد يشمل أيضا المواد المكتوبة، لذا إحرص يا أخي ألا تقرأ إلا لكاتب طيب، كما لاتجالس إلا من كان طيبا..

ومن جميل ما قاله سعيد حوى رحمه الله بالنسبة لتأثير السالك فيمن حوله: "إن السالك إلى الله بالنسبة للخلق هواء يتنفسون به، وماء يرتوون منه، وظل يأوون إليه، وشجر يأكلون من ثمره، ولطف يألفونه، وتواضع عزيز في الله عز وجل".

۞ ۞ ۞

"رُبَّما كُنْتَ مُسيئاً فَأَرَاكَ الإحْسانَ مِنْكَ (بسبب) صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسوأ حالاً مِنكَ"

لأنك إن صحبت من هو أسوأ منك، ترى نفسك بالنسبة إليه محسنا، ومن ثم لا تفكر عندها بأن تترقى إلى الأفضل، قال الشاذلي: لا تنقل قدميك إلا حيث تريد ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا، وقليل ما هم.

وقال آخر: اعلم أنه لا يقرب إلى الله شئ مثل الجلوس مع عارف بالله إن وجد، وإن لم تجد فعليك بذكر الله ليلا ونهارا قائما وقاعدا، مع العزلة عن أبناء الدنيا - إن لم يكن بجسمك فبقلبك - لأنهم سم خارق، ولا يبعد عن الله شيء مثل الجلوس مع غافل، وكذلك أحذر علماء السوء:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ (الروم: 7).

وكان يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه يقول لعلماء وقته (علماء الفتنة): يا معشر العلماء: دياركم هامانية، ومراكبكم قارونية، وأطعمتكم فرعونية، وولائمكم جالوتية، ومواسمكم جاهلية، وقد صيرتم مذاهبكم شيطانية، فأين الملة المحمدية؟

الفصل الثالث

في المدح والثناء

" الناس يمدحونك لما يظنونه فيك

فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها "

إذا مدحك الناس بشيء ليس هو موجودا فيك، فاعلم أن ذلك هواتف من الحق يهتفون بك ويحوشونك إلى الزيادة، ولا يغرنك ثناء القوم فإنهم لا يعلمون منك إلا الظاهر، وأنت تعلم من نفسك اللب الباطن، وكان بعضهم يقول:

"اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، واجعلني خيرا مما يظنون، ولا تؤاخذني بما يقولون".

فأهل الفهم عن الله يستمعون إلى الخطاب، فإذا سمعوا مدحهم بشيء نظروا، فإذا كان فيهم علموا أنه تنبيه لهم على مقام الشكر وإن لم يجدوه فيهم علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المقام، ولهذا لما سمع أبو حنيفة قوم يمدحونه بقيام الليل كله، وكان لا يقوم إلا نصفه جعل يقوم الليل كله.

" أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس "

اليقين الذي عنده: هو علمه بمساويه وخفايا عيوبه.

وظن ما عند الناس: هو ما يرون على ظاهره من الكمالات وأنوار الطاعات – التي قد تصحبها العلل الباطنية والحظوظ النفسانية – فيتوجهون إليه بالمدح والثناء، فإذا قنع بذلك وفرح بما هنالك فهو أجهل الناس وأحمقهم...

وقال العربي: ينبغي للفقير أن يكون جلالي الظاهر جمالي الباطن...

" الزُّهّادُ إذا مُدِحوا انقَبَضوا لِشُهودِهِمُ الثَّناءَ مِنَ الخَلْقِ
وَالعارِفونَ إذا مُدِحوا انْبَسَطوا لِشُهودِهِمْ ذلِكَ مِنَ المَلِكِ الحَقِّ "

لما كان الزهاد ينظرون الى ظواهر الأمور بينما العارفون ينظرون الى بواطنها، فإن العارفين إذا أثنى عليهم رأوا ألسنة الخلق: أقلام الحق، ففرحوا بمدح مولاهم.

قال ابن عجيبة: فإن قلت: ورد في الحديث " أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب " (صحيح مسلم)، قلت: هو المحمول على المدح بالكذب على وجه الطمع، كما يقع للملوك وأرباب الأموال طمعا فيما عندهم، وإلا فمدح الشيوخ من أعظم القربات، وأكبر منه مدح رسول الله ﷺ وهو باب عظيم في الوصول إلى حضرة الكريم... وأكبر من كل ذلك مدح من له كل الحمد والثناء، وليس أحد أحب إليه المدح من الله كما في الحديث:

"ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل". (صحيح مسلم)

۞ ۞ ۞

" من أكرمك إنما أكرم فيك جميل ستره

فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك "

إذ لولا ستره عن المعاصي ما كنت مطيعا، قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ (النساء: 83).

ولولا ستره فيها لكنت مهانا عند الخلق، ومخصوصا بالمقت بينهم، فالحمد في الحقيقة إنما هو لمن سترك، لا لمن أكرمك، إذ لو أظهر للناس ذرة من مساوئك لمقتوك وأبغضوك، فاشكر الله على ما أسدى إليك من الكرم، وغطى ما عليك من المساوئ التي توجب أنواع البغض والنقم.

فالخلق كلهم إنما يتعاملون بينهم بستر مولاهم، ولو خلا عبد من ستره لأبغضه أحب الناس إليه، ولآذاه أشفق الخلق عليه، ولأهلكه أرأف الخلق به، ولله در القائل:

يظنون بي خيرا وما بي مـن خـير | ولكنـي عبـد ظلـوم كـما تـدري
سترت عيوبي كلها عن عيـونهم | وألبستني ثوبـا جمـيلا مـن الـستر
فصاروا يحبوني ومـا أنـا بالـذي | يحــب، ولكــن شــبهوني بــالغير
فلا تفـضحني في القيامـة بيـنهم | وكن لي يا مولاي في موقف الحشر

وقال الإمام الشافعي (تواضعا رحمه الله):

أحب الـصالحين ولـست مـنهم | لعــلي أن أنــال بهــم شــفاعة
وأكــره مــن تجارتــه المعــاصي | ولــو كنــا ســواء في البــضاعة

فرد عليه الإمام أحمد بن حنبل يرحمه الله :

تحـب الـصالحين وأنـت مـنهم | ومـنكم سـوف يلقـون الـشفاعة
وتكــره مــن تجارتــه المعــاصي | وقــاك الله مــن شر البــضاعة

قال الدكتور البوطي (بتصرف): "روي في ترجمة أبي يزيد البسطا مي رحمه الله، أنه كان إذا رأى الناس ازدحموا عليه في مجلسه وقد شدهم إليه الحب والثقة بصلاحه، أقبل إلى الله يقول:

[اللهم إنك تعلم أنهم يقصدونك أنت، ولكنهم وجدوني عندك..]

فهذه حال من تاه عن نفسه وبقي مع ربه، كل ما يعلمه من حال نفسه أنه عند الله، وأن كل ما فيه فهو بالله، فإذا مدحه المادحون فالممدوح في الحقيقة هو الله، وإذا أقبل إليه الزائرون، فإن المزور في الحقيقة هو الله.

وأصحاب هذه الدرجة العالية من التوحيد، يعاملون الناس في الظاهر، ولكنهم إنما يتعاملون دائما مع الله في حقيقة الأمر، قال الإمام الرازي: كن ظاهرا مع الخلق، وباطنا مع الحق.

فهم الذين وعوا معنى الحديث القدسي التالي وارتقوا إلى درجة العمل بما فيه، فكانوا بذلك في نجوة من العتاب الذي يوجهه الله إلى طائفة من عباده يوم القيامة.. يقول الله لأفراد هذه الطائفة: "يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال: يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني. قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي" (صحيح الجامع الصغير).. انتهى

صفحة بيضاء - تترك فارغة

الفصل الرابع

عز لا يفنى

"إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يكونَ لكَ عزٌ لا يَفْنى، فَلا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنى"

العز الذي لا يفنى: هو العز بالله والغنى بطاعة الله، ويكون بتعظيمه وإجلاله وحسن الأدب معه في كل شئ وعلى كل حال، ويكون بالرضا بأحكامه وبالحياء والخوف منه، وبالذل والانكسار والفقر التام إليه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ ﴾ (فاطر: 10)

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون: 8)

وقال علي كرم الله وجهه: "من أراد الغنى بغير مال، والكثرة بغير عشيرة فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة"، فمن تحقق عزه بالله لم يقدر أحد أن يذله.

والعز بطاعة الله هو بالمبادرة بامتثال أمره واجتناب نهيه، والإكثار من ذكره، وبذل المجهود في تحصيل بره.

وأما التعزز بالعز الذي يفنى فهو التعزز بالمخلوق، كتعزز الملوك بكثرة الأتباع والجند والأموال والجاه، وغير ذلك مما ينقطع ويبيد، قال تعالى:

﴿ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ (النساء: 139)

وقال أحدهم: "والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق"، وقال آخر: "من استغنيت عنه كنت له ندا".

وقال ابن عجيبة: أن سبب العز الذي يعطيه الله لأوليائه هو حبه لهم، فالعز نتيجة الحب، وسبب حب الله للعبد هو زهده في الدنيا، وفي الحديث: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس". (صحيح الجامع الصغير)

قال أبو عبد الله: العز الذي يفنى هو الغنى بالأسباب مع الغيبة عن مسببها، ومن اختار العز بالأسباب خذلته وأسلمته أحوج ما يكون إليها، وكان في غاية الذل والهوان، أما التعلق بالله فإنه العز الذي لا يفنى... وليس لك إلا أحدهما لأنهما ضدان لا يجتمعان، فإن اخترت العز الباقي بالله تعالى لم يقدر أحد أن يذلك.

وقال الدكتور البوطي (بتصرف): "العزة هي الترفع عن المهانة وعن الذل للآخرين، وبذلك هي تختلف عن التكبر الذي هو التعالي على الآخرين،

والعزة من الخصال المحمودة، في حين أن التكبر من الخصال المذمومة، وفي دنيا الناس توجد أسباب كثيرة وكأنها أماكن وقاية تحمي الإنسان من الذل وتوفر له العزة والكرامة، كالمال والجاه والرئاسة والاحتماء بأصحاب المكانة والنفوذ، ولكن هل هذه الأسباب تحمي الإنسان فعلا من التعرض للذل، وتحافظ على عزته وكرامته؟ إن عالم الأسباب والمسببات كأغصان الشجرة، كلما تجاوزت رؤوسها هابطا إلى الأدنى فالأدنى منها، تصل إلى الجذع الواحد الذي تفرعت عنه الأسباب كلها، إلى مسبب تلك الأسباب ألا وهو الله عز وجل.. إن كل الأغيار من دون الله عز وجل، لا شأن لهم ولا قيمة، بل ليس لهم وجود ذاتي قط، كل هذه الأعراض التي تبدو وسائل وأسبابا، جنود بيد الله يصرفها كما يشاء ويسخرها لما يريد، إن هي إلا أشباح لا حول لها ولا قوة.

إذن فالملاذ والملجأ هو الله وحده، ويتمثل هذا المعنى كله مجتمعا في حقيقة ولاية الله وحده للإنسان، وبطلان كل ما عداه مما يرى فيه الناس عونا أو مستندا أو فاعلا، أنظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ (الزمر: 36)... "أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ" تعبير جامع دقيق عن ولاية الله وحمايته ورعايته للإنسان الذي هو عبد له دون سواه... "وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ" تعبير جامع ودقيق عن بطلان سائر الأوهام الأخرى التي قد يتراءى للناس فيها معنى الحماية أو القوة أو التأثير.. عبر عنها البيان الإلهي بكلمة "مِن دُونِهِۦ" الشاملة لكل ما عدا الله، والمنبه عن معنى الصغار والدون فيه.

وصاحب هذه الحال عزيز بالله دائما، أيا كانت الحال التي هو فيها.. له في قلوب الناس رهبة، وله في أعينهم مهابة، إذ إن عزته ليست آتية من الأعراض الدنيوية، وإنما هي منحة من التجليات الإلهية، الصادرة ممن قلوب العباد بين إصبعين من أصابعه، يقلبها كيف يشاء.

وصدق عمر رضي الله عنه حين قال: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به، أذلنا الله".. فلله العزة جميعا، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (آل عمران: 26).

❁ ❁ ❁

" مَنْ أثْبتَ لِنفْسِه تَواضُعاً فهُوَ المُتكبِّرُ حقّاً. إذْ ليْسَ التَّواضُعُ إلّا عنْ رِفْعةٍ. فمَتى أثْبَتَّ لِنفسكَ تَواضُعاً فأنْتَ المُتكَبِّرُ حَقّاً "

قال سعيد حوى: أمر الله عز وجل سيد الخلق أن يخفض جناحه للمؤمنين: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الحجر: 88)، كما أمر الله عز وجل الولد أن يخفض جناحه لأبويه: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ (الإسراء: 24)، ومن مظاهر خفض الجناح قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ (آل عمران: 159)، فاللين والعفو والاستغفار والمشورة من مظاهر خفض الجناح.

ومن هنا كان التواضع للمؤمنين أدبا رئيسيا من آداب المرشدين، قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: 54)، وهذا التواضع يجب أن يكون حقيقيا، أما إذا اصطنعه الإنسان فهو دليل على تكبره، إذ ليس التواضع وإثباته للنفس إلا عن رفعة لها أولا.

قال الجنيد: من رأى نفسه قد تواضعت فهو يحتاج إلى تواضع، ولو تبرأ منها وتواضعها لكان متواضعا. وفي الأثر: " إنما الكرم التقوى، وإنما الشرف التواضع، وإنما الغنى اليقين، والمتواضعون في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة، ولا يزيد تواضع العبد إلا رفعة، فتواضعوا ليرفعكم الله، وإذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين من أمتي فتكبروا عليهم، فإن ذلك مذلة لهم وصغار بهم".

وورد أيضا في الأثر أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: "إنما أقبل عمل من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع النهار بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي "، وقيل إن من علامات التحقق بهذا الخلق ألا يغضب إذا عيب أو انتقص.

۞ ۞ ۞

" ما بَسَقَتْ أَغْصانُ ذُلٍّ إلا على بِذْرِ طَمَعٍ "

البسوق: هو الطول - قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ﴾ (ق: 10) أي طويلات، فما بسقت أغصان شجرة الذل إلا على ذريعة الطمع... لأن صاحب

الطمع ترك ربا عزيزا وتعلق بعبد حقير، فاحتقر مثله... ترك ربا كريما وتعلق بعبد فقير، فافتقر مثله..

إن الله يرزق العبد على قدر همته... وعندما ترفع همتك عن شئ تكون حرا منه، وإذا رضيت بما قسم الله لك كنت من أغنى الناس، قال رسول الله ﷺ: "اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، و أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، و لا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب" (صحيح الجامع الصغير).

وقال ﷺ: "إن روح القدس نفث في روعي، أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته" (صحيح الجامع الصغير).

قال أبو العباس المرسي: صاحب الطمع لا يشبع أبدا، ألا ترى أن الطمع حروفه كلها مجوفة؟ الطاء والميم والعين.

والطمع المؤدي إلى الذل مضاد لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العزة، والعزة التي اتصف بها المؤمنون إنما تكون برفع همتهم إلى مولاهم، وطمأنينة قلوبهم إليه، وثقتهم به دون من سواه، فهذه هي العزة التي منحها الله عبده المؤمن، قال الله تعالى:: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون: 8).

وقال أحدهم: أيها الرجل، ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فلابد أن يمضغاه، فكله – ويحك - بعز ولا تأكله بذل، فإن الرازق هو الله.

قال الدكتور البوطي (بتصرف): إن عقيدة التوحيد مبنية على اليقين التام بأن الله سبحانه هو وحده النافع، وهو وحده الضار، وهو وحده المعطي، وهو وحده المانع، وهو وحده المحيي، وهو وحده المميت، وهو وحده القوي، وكل ما سواه ضعيف، وهو وحده الغني، وكل ما سواه فقير... ولا ريب أن ذل الإنسان للإنسان مهانة تناقض الكرامة التي ميز الله الإنسان بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ (الإسراء: 70). والتذلل بين يدي الله سبحانه هو السبب في الحقيقة للعزة أمام عباد الله، وبقدر ما يكون الذل لله، تكون الثمرة الطيبة: عزة وكرامة مستمدة ممن بيده مقاليد كل شيء.

۞ ۞ ۞

"ما قادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الوَهْمِ،
أَنْتَ حُرٌ مِمّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ. وَعَبْدٌ لِما أَنْتَ لَهُ طامِعٌ"

يعني إنك لما توهمت أن بيد الخلق نفعا أو ضرا أو عطاء أو منعا طمعت فيهم وتذللت لهم، واعتمدت عليهم وخفت منهم، فوقعت في المهانة والذل، ولو حصل لك اليقين أن أمرهم بيد الله، وأنفسهم في قبضة الله، عاجزين عن نفع أنفسهم فكيف يقدرون على نفع غيرهم، لقطعت بأسك منهم ولرفعت همتك عنهم ولتعلقت همتك برب الأرباب، فنلت ما تريد.

التعلق بالله واليأس من الخلق:

إنما منع العباد من السبق إلى الله جواذب التعلق بغير الله... فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله جذبها ذلك التعلق إلى ما به تعلقت، فكرّت راجعة إليها، وإنما كان الإنسان حرا مما آيس منه، لأنه من ذلك الشيء رفع همته عنه وعلقها بالملك الحق، فلما فعل ذلك، سخر الحق تعالى له سائر الخلق، فكانت الأشياء كلها مسخرة له، فمن كان عبدا لله كان حرا مما سواه، وما أقبح الإنسان الذي يريد سيده منه أن يكون ملكا وهو يريد أن يكون مملوكا، يريد سيده أن يجعله حرا، وهو يريد أن يكون عبدا، خلق الله الكون بأسره خادما له عند نهيه وأمره، فجعل هو يخدم الكون بنفسه ويتعبده لأقل شئ وأخسه، قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56)

فيأيها الإنسان لقد كرمك الله على كثير ممن خلق، فلا تضع قدرك بعد أن رفعك الله، ولا تذل نفسك للخلق بعد أن أعزك الله، خلقك الله لحضرته، فإن توددت إليه بإعراضك عما سواه أجابك وقربك... تعلق بمولاك:

- "تعلق من لا يملك شيئا بمن يملك كل شيء...
- ومن لا يقدر على شيء بمن هو على كل شيء قدير...
- ومن لا يعلم متى يموت، ولا أين يموت، ولا كيف يموت، بمن لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء...

وهذا التعلق بالله تعالى، والالتجاء إليه، والاعتماد عليه سبحانه هو: التوكل...

وكان مما علمه النبي ﷺ لأمته في علاج الكرب والضيق قوله: "دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، واصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت" (صحيح الجامع الصغير).

وقال ﷺ لابنته وأحب الناس إليه: فاطمة الزهراء رضي الله عنها : "ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به: أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث.. أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين" (صحيح الجامع الصغير).

إذن هو الافتقار الكامل إلى المولى سبحانه وحده... والتعلق به في كل الأحوال والأوقات.

يقول الدكتور البوطي عند شرح هذه الحكمة (بتصرف): "إن الله لن يتخلى عمن اتجه صادقا مخلصا لخدمة دينه ولدعوة الناس إليه وتعريفهم به... وجهني والدي منذ نعومة أظفاري إلى دراسة الدين والشريعة والتفرغ لذلك، وقال لي وهو يمضي بي إلى أول مدرسة شرعية في دمشق: اعلم يا بني أني لو عرفت أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطريق، لجعلت منك زبالا، ولكني نظرت فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه، لذا فقد قررت أن أسلك بك هذا الطريق، ثم إنه أخذ علي العهد: أن لا أجعل قصدي من دراسة هذا العلم أي شهادة أو وظيفة، وأن أقنع بأي رزق

يسوقه الله إلي، وبأي عمل كريم يقيمني الله فيه... وكان لي رفقة في مثل سني اتجهوا جميعا إلى المدارس الحكومية حيث السبيل إلى الشهادات والوظائف، فكان البعض منهم يحذرني من أن سلوكي هذا لن ينتهي بي إلا إلى فقر يجعلني عالة على الناس... ولكني أعلن هنا، وبعد مرور السنين والأعوام، أن الله لم يضيعني ولم يخذلني، بل أغدق علي من النعم ما لا يحصيه العد، وما لم يكن لي فيه مطمع ولا أمل، ولم يتحقق شيء من ذلك بتدبير مني أو من أبي، ولم يكن شيء من ذلك كله متوقعا ولا داخلا في الحسبان، ولكنه المصداق الدقيق لقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ (الطلاق: 2-3). انتهى.

والحكمة السابقة منهج عملي في تزكية النفس، وذلك عن طريق تيأيس النفس مما حرمه الله.. واسأل نفسك أيها المريد: لم لا تطلب منك نفسك أن تشرب الخمر أو أن تأكل من لحم الخنزير، في حين تطلب منك أشياء أخرى؟ الجواب هو أنك آيستها من بعض المعاصي وجعلتها مناطق حمراء، ولكنك لم تجزم أمرك مع نفسك في غيرها، فعلمت النفس منك هذا الضعف فطمعت فيه.. فتأمل !

الفصل الخامس

في الرضا والتسليم بالقضاء والقدر

"لا يَكُنْ تأَخُّرُ أَمَدِ العطاءِ مَعَ الإلْحاحِ في الدُّعاءِ مُوْجِباً لِيأْسِكَ. فَهُوَ ضَمِنَ لكَ الإجابَةَ فيما يَخْتارُهُ لَكَ لا فيما تَخْتارُهُ لِنَفْسِكَ... وَفي الوَقْتِ الَّذي يُريدُ لا فِي الوَقْتِ الَّذي تُرِيْدُ"

إذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة، فاطلبها من الله، ولا تحرص، ففي الحرص تعب ومذلة. قال أحدهم: الناس تقضي حوائجهم بالحرص فيها والجري عليها، ونحن نقضي حوائجنا بالزهد فيها والاشتغال بالله عنها.

وإذا طلبت فاطلب من الله.. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: 60).

فإذا تأخرت الإجابة لا تيأس من نواله ورفده، فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة، وقد يمنعك لطفا بك لكون ذلك المطلب لا يليق بك... وقد يكون أجابك وعين لذلك وقتا هو أصلح لك

وأنفع، فيعطيك ذلك في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد، وقد يؤخر ذلك لدار الكرامة والبقاء وهو خير لك وأبقى، وفي الحديث:

قال ﷺ: "ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا أتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم "، فقال رجل من القوم: إذا نكثر، قال: "الله أكثر" (الترمذي والحاكم وصححه)، وفي رواية الترمذي: "فإما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا".

فإن كان مع اختيار الحق تعالى لا مع اختيار نفسه كان مجابا وإن لم يعط، والأعمال بخواتمها.

فحكم العبد أن لا يختار شيئا على مولاه، ولا يجزم بصلاحية حال من الأحوال له، لأنه جاهل من كل وجه.. قد يكره الشيء وهو خير له، ويحب الشيء وهو شر له، قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾ (البقرة: 216)..

فعلى العبد أن يسلم نفسه إلى مولاه، ويعتقد أن الخيرة له في جميع ما به يتولاه، وإن خالف ذلك مراده وهواه...

قال أبو الحسن الشاذلي (في أمور القدر): لا تختر من أمرك شيئا، واختر أن لا تختار، وفر من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شئ إلى الله عز وجل.

فإذا دعا وطلب من مولاه شيئا يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالإجابة لا محالة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: 186).

وقد ورد عن رسول الله ﷺ النهي عن الاستعجال في إجابة الدعاء في قوله: "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي " (رواه الشيخان).

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن استجابة الله تعالى لك تعني أن يحقق لك هدفك، ولكن الله سبحانه الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم ما قد تأتي به التقلبات والأحداث، قد يعلم أن هذا الشيء الذي طلبته وتعلقت النفس به، لا ينطوي في الواقع على الخير الذي ظننته، بل وربما كان سببا لنقيضه، فيصرف الله عنك حرفية ما طلبت، لطفا منه ورحمة بك، ويحقق لك الهدف البعيد الذي أبتغيته بوسيلة أخرى لم تكن تخطر لك ببال.. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق: 3-2)، وإنه للطف كبير وعجيب من الله بالعبد، أن يراه لجهالته يتعلق ببوارق ظاهرها الخير وباطنها البلاء الكبير، فيقصيه الله بلطفه ورحمته عن تلك البوارق، ويكرمه بما يأمله ويبتغيه من حيث لا يحتسب ".

❁ ❁ ❁

"إنْ لَمْ تُحْسِنْ ظَنَّكَ بِهِ لأَجْلِ حُسْنِ وَصْفِهِ ، فَحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِوُجودِ مُعامَلَتِهِ مَعَك. فَهَلْ عَوَّدَكَ إلا حَسَناً! وَهَلْ أَسْدى إلَيْكَ إلا مِنناً؟!"

حسن الظن بالله ناشئ عن شهود إحسانه وحسن معاملته وامتنانه، فإذا نزلت بك قهرية أو شدة، انظر إلى سالف إحسانه، وسابق ما أسدى إليك من حسن لطفه وامتنانه، وعظيم رحمته وحنانه، وقس ما يأتي على ما مضى، تجد أنك تلقى ما يرد عليك بالقبول والرضا... فإن لم تقدر أيها المريد أن تحسن ظنك بالله لشهود وصفه بالرأفة والرحمة التي لا تتخلف، فحسن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه، فهل عودك الحق تعالى إلا برا حسنا ولطفا جميلا؟ وهل أسدى إليك - أي أوصل إليك - إلا مننا كبيرة ونعما غزيرة، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ (إبراهيم: 34)، وشاهد معنى قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ (البقرة: 216)،... وقس النادر على الغالب.

كان ابن مسعود يحلف بالله: ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى إلا أعطاه الله عز وجل ذلك، لأن الخير كله بيده..

وتذكر دائما قوله تعالى فيما روي عنه في الحديث القدسي: " قال الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء ".. (أحمد وسنن الدارمي)

وأحذر الشيطان... فإنه قد يذكرك سيئاتك وينسيك حسناتك ليعدل بك عن حسن الظن بالله، فاحذر من ذلك !.

ومن مواطن الظن بالله تعالى التي لا ينبغي للعبد أن يفارقه فيها: أوقات الشدائد والمحن، وسيأتي هذا المعنى في كلام المؤلف في قوله: من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره...

فيجب على العبد أن يدرك جازما أن الله لا يعامله إلا بما هو خير له، فيجب عليه أن يحسن الظن به في كل أحواله، سواء علم وجه المصلحة والخير في ذلك أو لم يعلم، لأن الله عز وجل لم يعوده إلا الإحسان، ولم يجده دائما إلا الكريم المنان، فكيف يسيء الظن به بعد ذلك؟!!

❁ ❁ ❁

" لا يُشَكّكَنَّك في الوَعْدِ عَدَمُ وُقوعِ المَوْعودِ، وإنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ؛ لِئَلا يَكونَ ذلِكَ قَدْحاً في بَصيرَتِكَ وإخْماداً لِنُورِ سَريرَتِكَ "

إذا وعد الحق بشيء فسيتحقق... طال الزمن أو قصر، وقد يكون مترتبا على أسباب وشروط غيبية أخفاها الله تعالى لتظهر قهرية عزته وحكمته، وتأمل قصة سيدنا يونس عليه السلام حيث أخبر قومه بالعذاب لما أخبر به، وفر عنهم بدون إذن، وكان ذلك متوقفا على عدم إسلامهم، فلما أسلموا تأخر عنهم العذاب ... ولهذا السر الخفي كان الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأكابر الصديقين لا يقفون مع ظاهر الوعد، فلا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، بل ينظرون إلى سعة علمه تعالى ونفوذ قهره، وتأمل قول سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام:

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (الأنعام: 80)

وتأمل قصة نبينا ﷺ يوم بدر، حيث دعا حتى سقط رداؤه وهو يقول: " اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه من منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك " (صحيح مسلم)، فخرج وهو يقول: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ (القمر: 45-46).

وفي وقعة الحديبية – عندما أراد المسلمون العمرة – لم يتعين لرؤيا الرسول ﷺ– التي بشرت بها – زمن، لحكمة خفيت على المسلمين، لقوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ ﴾ (الفتح: 27).

جاء في تفسير ابن كثير: " كَانَ رَسُول اللهّ ﷺ قَدْ رَأَى فِي الْمَنَام أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّة وَطَافَ بِالْبَيْتِ فَأَخْبَرَ أَصْحَابه بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا سَارُوا عَام الْحُدَيْبِيَة لَمْ يَشُكَّ جَمَاعَة مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَتَفَسَّرُ هَذَا الْعَام، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَضِيَّة الصُّلْح وَرَجَعُوا عَامهمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِل وَقَعَ فِي نَفْس بَعْض الصَّحَابَة رضي الله عنهم مِنْ ذَلِكَ شَيْء، حَتَّى سَأَلَ عُمَر بْن الْخَطَّاب رضي الله عنه فِي ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: أَفَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْت وَنَطُوف بِهِ ؟ قَالَ: " بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُك أَنَّك تَأْتِيه عَامَك هَذَا ؟ " قَالَ لا، قَالَ النَّبِيّ ﷺ: " فَإِنَّك آتِيه وَمُطَوِّف بِهِ ".

ونزل قوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الفتح: 27)، وقد تحقق ذلك في العام التالي.. وصدق الله ورسوله..

وقد يطلع أولياؤه على نزول القضاء ولا يطلعهم على نزول اللطف، فينزل ذلك القضاء مصحوبا باللطف، فينزل ضعيفا سهلا حتى يظن أنه لم ينزل.

۞ ۞ ۞

"ما مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ إلا وَلَهُ قَدَرٌ فيكَ يُمْضيهِ"

إذا علمت أنه لا يصدر منك ولا من غيرك إلا ما سبق به علمه وجرى به قلمه لزمك أن ترضى بكل ما يجري به القضاء ...

مـشينا خطـا كتبـت علينـا ... ومن كتبت عليه خطا مـشاها
ومـن قـسمت منيتـه بـأرض ... فليس يموت في أرض سـواها

۞ ۞ ۞

"رُبَّما أَعْطاكَ فَمَنَعَكَ ورُبَّما مَنَعَكَ فأَعْطاكَ"

قال ابن عجيبة: الغالب على النفس أن تنبسط بالعطاء وتنقبض بالمنع، وذلك لجهلها بربها وعدم فهمها، فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع قد يكون عين العطاء، والعطاء عين المنع، كما يأتي، فافهم أيها المريد عن مولاك ولا تتهمه فيما به أولاك:

- فربما أعطاك ما تشتهيه النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس، وربما منعك ما تشتهيه نفسك، فيتم بذلك حضورك وأنسك (بالله).
- وربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها، فمنعك جمال الحضرة وبهجتها، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها، فأعطاك شهود الحضرة ونضرتها.
- ربما أعطاك قوت الأشباح (الأجسام)، فمنعك قوت الأرواح، وربما منعك من قوت الأشباح فمتعك بقوت الأرواح.
- ربما أعطاك إقبال الخلق فمنعك من إقبال الحق، وربما منعك من إقبال الخلق فأعطاك الأنس بالملك الحق.
- ربما أعطاك العلوم فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ومعرفة الحي القيوم، وربما منعك من كثرة العلوم، وأعطاك الأنس بالحي القيوم، فأحطت بكل مجهول ومعلوم.
- ربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة، وربما منعك من عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة... إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا علام الغيوب.

وشاهده قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ (البقرة: 216).

ويقولون: "المحنة في المنحة، والمنحة في المحنة "، فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك، فلن يعدم منه خيرا.

۞ ۞ ۞

" مَتى فَتَحَ لكَ بابَ الفَهْمِ في المَنْعِ عادَ المَنْعُ عَيْنَ العَطاءِ "

إذا فهمت أيها العبد عن الله، علمت أنك إذا سألته شيئا أو هممت بشيء أو احتجت إلى شئ فمنعك منه، فإنما منعك ذلك رحمة بك وإحسانا إليك، إذ لم يمنعك من بخل ولا عجز ولا جهل ولا غفلة، وإنما ذلك حسن نظر إليك، وإتمام لنعمته عليك، لكونه أتم نظرا وأحمد عاقبة.

قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾ (البقرة: 216)، فربما دبرنا أمرا ظننا أنه لنا، فكان علينا، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد، والشدائد من وجوه الفوائد... وربما كانت المنن في المحن، والمحن في المنن، وربما انتفعنا على أيدي الأعداء، وأوذينا على أيدي الأحباء.

وربما تأتي المسار من حيث المضار، وقد تأتي المضار من حيث المسار... ومثال ذلك كصبي رأى طعاما حسنا أو حلوا أو عسلا وفيه سم، وأبوه عالم بها

فيه، فكلما هم الصبي لذلك الطعام رده أبوه، فالصبي يبكي عليه لعدم علمه، وأبوه يرده بالقهر لوجود علمه، فلو عقل الصبي ما فيه ما هم إليه، ولعلم نصح أبيه وشدة رأفته به... كذلك العبد يطمح للدنيا أو الرياسة أو غير ذلك مما فيه ضرره فيمنعه الحق تعالى من ذلك الشيء رحمة به وشفقة عليه واعتناء به، فإذا فهم عن الله، سلم الأمر إلى مولاه، ولم يتهمه فيما أبرمه وقضاه، وإذا لم يفهم عن الله تحسر وربما سخط، فإذا انكشف له سر ذلك بعد علم ما كان في ذلك من الخير، لأحس بالنعمة ولأقر بالمنة، لكن فاتته درجة الصبر، لقوله ﷺ: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" (سنن أبي داود)

والقصص في ذلك كثيرة: منها قصة رجل البادية الذي مات حماره وكلبه وديكه في يوم واحد، فأنقذه الله بذلك وأهله من اللصوص الذين كانوا يعرفون مكان ضحاياهم بصوت نباح الكلب أو نهيق الحمار أو صياح الديك، وكان يقول عندما يسمع كل خبر من ذلك: "خيرا" مما أغضب أهله، فلما أغار اللصوص على القرية تلك الليلة، نجا وأهله بسبب ذلك، وأقر أهله بالمنة عليهم لما عرفوها في الصباح التالي... فانظر كيف فهم الرجل العارف ما في ذلك من السر في أول أمره؟ فهذا هو الفهم عن الله، رزقنا الله من ذلك الحظ الأوفر... وكذلك انظر إلى رعاية الله بأوليائه وحسن تدبيره لهم.

ومن القصص المعاصرة قصة بواب عمارة مصر الجديدة الشهيرة، وهي عمارة كبيرة كان يقيم فيها البواب مع أسرته في شقة أرضية صغيرة كما هي العادة، ثم إن أخته وأولادها السبعة ومعهم أمه أصبحوا فجأة بلا مأوى بسبب

ظروف عائلية فاستضافهم جميعا عنده، وقد أثار ذلك حفيظة بعض ساكني العمارة الذين أبلغوا الجهات المختصة بعدم رضاهم عن ذلك مما أدى إلى وفود قوة من الشرطة أجلت البواب وأسرته وضيوفه ومتاعهم القليل جميعه إلى خارج العمارة، وبعد ذلك بنصف ساعة انهارت العمارة جميعها على كل من كان فيها، وكان حادثاً مروعاً، فبفضل بر ذلك الرجل بأهله أنقذه الله وأهله جميعهم ومتاعهم كله، بل إذا تأملت تجد أنه أحضر لهم من ساعدهم في إخراج كامل أمتعتهم في أقصر وقت. وتأمل أيضا كما لو أن هذه العمارة كانت قائمة على علتها لوجود هذا الرجل وأهله بها، فلما خرج منها انهارت وفي الحديث "ابغوني الضعفاء... فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم" (صحيح الجامع الصغير)

وتأمل أيضا قصص من فاتتهم طائرات حدثت لها حوادث بعد ذلك. والعبر في ذلك كثيرة، ولكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد... وسبب عدم الفهم عن الله هو الوقوف مع ظواهر الأشياء دون النظر إلى بواطنها.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن المنع أو الحرمان الذي قد يبتلى به العبد، ربما لا تظهر نتائج العطاء فيه فيما بعد، ولكن ثقة العبد بحكمة ربه ورحمته، تريح نفسه وتطمئن قلبه، فلا يقع من جراء ذلك الحرمان في هم ولا غم، لأنه يعلم أن هذا الذي منحه الله إياه هو عين العطاء، فهو لا يشعر بأن فيما يأتيه من عند الله شيء اسمه المنع، بالمعنى السلبي الذي يراد منه الحرمان، لأنه

في كل الأحوال والتقلبات إنما يتلقى الألطاف والمنح المناسبة في أوقاتها من الله، إذ إن العبرة ببواطن الأمور ونتائجها لا بمظاهرها وأشكالها، وهو يرى أن الله هو الذي يعامله ويقبل إليه من خلال تلك المعاملات، إما بصفات جماله ورحمته، أو بصفات جلاله وقهره، واللطف من وراء ذلك كله.. إن هذا الإقبال من الله عليه، ينسيه فرق ما بين الحالتين.

ولا يقدح في صاحب هذه الرتبة أن لا تتخلى عنه طبيعته البشرية، من لذة من جراء النعمة التي تأتيه، أو من ألم من جراء المصيبة التي تلم به، ولقد علمت أن الرسول ﷺ بكى وحزن لوفاة ابنه إبراهيم، جاء في سنن ابن ماجه: "لما توفي ابن رسول الله ﷺ إبراهيم بكى رسول الله ﷺ فقال له المعزي، إما أبو بكر وإما عمر، أنت أحق من عظم الله حقه، قال رسول الله ﷺ تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، لولا أنه وعد صادق، وموعود جامع، وأن الآخر تابع للأول لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل مما وجدنا، وإنا بك لمحزونون".

غير أن طبيعته البشرية ومشاعره الإنسانية، ﷺ، لم تعكر عليه انصرافه بالكلية إلى التسليم لحكم الله وقضائه، وإلى الثقة التامة بحكمته ورحمته، وإلى اليقين بأن الخير كل الخير فيما قضى الله به، ولذا قال ﷺ، بعد أن أعلن عن مشاعره الإنسانية: "ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: إِنَّا للهِّ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ".

ويحكي الدكتور البوطي عن تجربة مر بها فيقول: ولقد داهمتني يوما مصيبة، وقعت منها فيما يشبه هذا الحال: ولكن اليقين بحكمة الله، مع ما

أنجدني به الله تعالى آنذاك من الرحمة واللطف، أورثني يقينا بأنني من ذلك الحدث أمام مصيبة في الظاهر، ورحمة - بل فضل إلهي في الحقيقة والباطن، وما هي إلا علاجا لسوء حالي، وإصلاحا لفساد نفسي، وتكفيرا لكثير من زلاتي، وكثيرا ما يبعث الله مع المصائب التي قد يبتلي بها عباده، من اللطف بهم ما يجعلهم ينصرفون إليه بتجديد العبودية، وتأكيد البيعة له "لا إله إلا الله حقا حقا، لا إله إلا الله تعبداً ورقاً"، وصدق الربانيون إذ قالوا: في كل جلال جمال، وهي تجليات ونفحات ربانية لا يكاد يحرم منها إنسان مسلم، لا سيما في ضرام المصائب والشدائد... اللهم يا أنيسي في الوحشة، ويا عوضي عن كل مصيبة، ومنتهى أملي في كل شيء، لقد وضعت جراح قلبي بين يديك، واتكلت في كل أمري عليك، واستعنت بك في متابعة طريقي إليك، فلا تبعدني عن جنى رحمتك، وأذقني برد إحسانك ولطفك... اللهم إنا نسألك بالضعف الذي وصفتنا به، أن تجعل عطاءك لنا صافيا عن شوائب المنع، وأن تعرفنا نعمك بدوامها، وأن لا تحوجنا في معرفتنا لها إلى فقدها، فإنك القادر على كل شيء، ولك الخلق والأمر.." انتهى.

۞ ۞ ۞

"مَتى أعْطاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ، وَمَتى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ.
فَهُوَ في كُلِّ ذلِكَ مُتَعَرِّفٌ إلَيْكَ وَمُقْبِلٌ بِوُجودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ"

من أسمائه تعالى: اللطيف والرحيم، فهو تعالى لطيف بعباده رحيم بخلقه في كل وقت وعلى كل حال، سواء أعطاهم أو منعهم، فإن أعطاهم أشهدهم بره وإحسانه، فيكثر شكرهم ويزداد نعيمهم، وإن منعهم أشهدهم قهره فخافوا من سطوته، فدامت عبادتهم، وقلت ذنوبهم، ومحيت مساوئهم، فوردوا يوم القيامة خفافا مطهرين، فرحين مبتهجين، إذ لا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين، فمن أخافه في الدنيا أمنه يوم القيامة، ومن أمنه في الدنيا فاغتر أخافه يوم القيامة كما في الحديث:

"قال الله تعالى: وعزتي و جلالي لا أجمع لعبدي أمنين و لا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، و إن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي" (صحيح الجامع الصغير).

وكل اسم من الأسماء الحسنى يقتضي ظهوره في الوجود، فإذا تحققت في حالة الإعطاء والمنع علمت أنه سبحانه متعرف إليك في كل شئ، ومقبل عليك في كل وجه، فاطلب أنت أيضا معرفته في كل حال، واعرف مننه عليك في الجمال والجلال، وأقبل عليه بكليتك، واستسلم لقهره بروحك وبشريتك، تكن عبده حقا وصدقا، والله ينزل عبده على قدر منزلته منه، جاء في الحديث القدسي: "عن النبي ﷺ، يرويه عن ربه، قال: (إذا تقرب العبد إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتاني مشيا أتيته هرولة) - صحيح البخاري.

فلا تتهم ربك أيها العبد في المنع ولا في العطاء، فإنه متى أعطاك أو منعك أشهدك بره وكرمه ورحمته... وتخلق أنت أيضا بهذه الصفات فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه، وفي الأثر: "تخلقوا بأخلاق الرحمن"، فكن رحيما بالمؤمنين، قهارا لنفسك وشيطانك وأعداء الله

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "العطاء هو توارد النعم الظاهرة من الله تعالى إلى العبد، أما المنع فهو المصائب والابتلاءات التي يتعرض لها... والإنسان عبد لله بواقعه الاضطراري مؤمنا كان أو جاحدا أو ملحدا، إذن فمن الخير له أن يمارس عبوديته لله بسلوكه الاختياري، وتتلخص ممارسة العبودية السلوكية لله عز وجل في أن يكون شاكرا لله في حالة الرخاء، صابرا ابتغاء وجهه في حالة الضراء، قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: 35)... وما من مصيبة أو شدة يبتلي الله أيا من عباده المؤمنين بها، إلا وتكون إما كفارة له عن معصية ارتكبها، أو تنبيها له من غفلة استرسل فيها، أو إلجاء له إلى طرق باب الرحمة الإلهية والإقبال إلى الله بالتضرع والدعاء، بعد طول نسيان له وإعراض عنه، فهي وإن كانت مصائب أو شدائد في ظاهرها، إلا أنها نعم وألطاف إلهية في حقيقة الأمر وباطنه، ولو عدت فتأملت في حالك أو في حال كثير من الناس، لرأيت أن إقبال أحدنا إلى الله بعد طول إعراض، يأتي عادة ثمرة شدة انتابته أو مصيبة طافت به، أو كآبة هيمنت على نفسه.. فهي ألطاف ربانية خفية، جاءت مخبوءة في تلافيف ما قد يبدو أنه منع أو مصيبة.. وإذا هيمن حب الرب عز وجل على قلب العبد، حل الرضا فيه بكل ما يأتيه من قبل الله عز وجل، محل الصبر على الضيق والضجر من المصائب والنوائب التي تنتابه، فيغيب الصبر على البلاء، ويحل محله الرضا بالقضاء ".

" إنَّما يُؤلِمُكَ المَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللهِ فيهِ "

نظرة أهل الله للأشياء تختلف عن نظرة العامة، ومعرفة الله تكون في السراء والضراء... في الجلال والجمال، أما إن كان العبد لا يعرف ربه إلا في الجمال، فهذه معرفة العوام الذين هم عبيد أنفسهم، فإن أعطوا رضوا، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون.

ومن ثمرات المعرفة بالله التسليم والرضا لما يجري به القضاء... وقد قال أحدهم أنه لابد للمؤمن من خصلتين: إحداهما الثقة بالله... والأخرى: الشكر لله فيما زوي عنه مما ابتلي به غيره من الدنيا.

وقيل لبعضهم: ما الزهد عندكم؟ قال: إذا وجدنا شكرنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ (بلدته)، فقال: وما الزهد عندكم أنتم؟ قال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا.. فهذا هو الفهم عن الله حيث شكر حين فقد، فقد عدَ الفقد نعمة، والفاقة غني، لما يجد فيها من المواهب والأسرار، ولما يترقب بعدها من ورود الواردات والأنوار، ولو لم يكن إلا بالتفرغ من الشواغل والأغيار، وبهذا تزكو الأحوال، وتعظم الأعمال، ويتأهل صاحبها للقبول والإقبال.

قال الدكتور البوطي (بتصرف): " للمنع، والابتلاء بالضراء الفوائد التالية:

أولا: أنه طريق للشكر، فإن النعم التي يكرم الله بها عباده، من عافية ورزق وأمن وسكن ورغد عيش، لا تتجلى قيمتها لكثير من الناس إلا بظهور

نقائضها، ويتم ذلك عندما تسلب عنهم هذه النعم بين الحين والآخر، فيلتفتون إليها ويتلهفون للبحث عنها، ويعظم شكرهم وامتنناهم لربهم حين يستعيدونها.

ثانيا: لقد قضى الله سبحانه وتعالى بأن تكون حياتنا الدنيا ممرا إلى مقر، وأن لا يستقر للإنسان عيش فيها، وأن تكون الآخرة هي دار القرار، فوجود المنغصات فيها يدفع العبد إلى عدم الركون إليها، إنها استراحة على طريق رحلتك إلى الدار الآخرة، فلا تتوقع منها أكثر مما ينبغي أن يتوفر في أي استراحة على أي طريق إلى غاية.

ثالثا: الابتلاء سبيل إلى الدعاء، وهو من أعظم العبادات.. دعاء لرفع البلاء، ودعاء لشكر النعمة حينما تحل العافية، ودعاء لطلب دوام العافية وعدم زوالها ".

۞ ۞ ۞

" لِيُخَفِّفْ أَلَمَ البَلاءِ عَلَيْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحانَهُ هُوَ المُبْلِي لَكَ. فَالَّذي واجَهَتْكَ مِنْهُ الأَقْدارُ هُوَ الَّذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاخْتِيارِ "

إذا أصابتك أيها الإنسان مصيبة أو نزلت بك بلية في بدن أو أهل أو مال، فاذكر من أنزل ذلك عليك، وما هو متصف به من الرحمة والرأفة بك، والمحبة والعطف عليك، لعلك تفهم ما في طي ذلك من النعم، وما يعقبه من سوابغ الفضل والكرم، ولو لم يكن إلا تطهيرك من الذنوب، وتمحيصك من العيوب،

وتقريبك من حضرة علام الغيوب لكفى، فهل تعودت منه إلا الإحسان؟ وهل رأيت منه إلا غاية المبرة والامتنان، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار، والذي واجهتك منه أحكام قهره هو الذي عودك تمام إحسانه وبره، والذي واجهتك منه ظواهر المحن هو الذي أسبغ عليك بواطن المنن، والذي واجهتك من حضرة قهاريته الرزايا، هو الذي أتحفك بأنواع الكرامات والهدايا..

وقد يكون للإنسان فيما يكره مصالح خفية لا يعلمها إلا الله كما قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ (البقرة: 216)

وفي معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ ﴾ (لقمان: 20)، قيل: النعم الظَّاهِرَة الصِّحَّة وَكَمَال الْخلق، وَالْبَاطِنَة الْمعرفَة وَالْعقل. وَقَالَ الْمُحَاسِبِيّ: الظَّاهِرَة نعَم الدُّنْيَا، وَالْبَاطِنَة نِعَم الْعُقْبَى. وَقِيلَ: الظَّاهِرَة مَا يُرَى بِالأبصَارِ مِنْ الْمَال وَالْجَاه وَالْجَمَال فِي النَّاس وَتَوْفِيق الطَّاعَات ، وَالْبَاطِنَة مَا يَجِدهُ الْمَرْء فِي نَفْسه مِنْ الْعِلْم بِاَللَّهِ وَحُسْن الْيَقِين، وَمَا يَدْفَع اللهُ تَعَالَى عَنْ الْعَبْد مِنْ الآفَات، وقيل: النعم الظاهرة: العوافي، والباطنة: البلايا (لما قد يعقبها ويبطنها من الخير الخفي) – وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء: 19)، فإذن كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة كائنا ما كان، فلله الحمد والمنة.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "ليس فيما يعزي به المسلم نفسه، تجاه المصائب التي قد يبتلى بها، عزاء أفضل وأقوى من الثقة بحكمة الله ورحمته..

ورب قضاء واجهتك منه مصيبة فيما ما بدا لك في أول الأمر، ثم إن العاقبة أطلعتك منه على نعمة اغتبطت بها وحمدت الله عليها.. وتأمل قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ (الطور: 48)، كأنه يقول له: ربما جاءتك النعمة مقنعة بشيء من الشدة والابتلاء، فلا تضيقن ذرعا بها (كما ضاق لوط عليه السلام بضيوفه)، بل اصبر، فإنها خير لك، لأنك بأعيننا، أي مكلوء بحمايتنا، وكل ما يواجهك من قضاء الله فهو لك نعمة، لأن الله لا يريد بك إلا خيرا... قال الشيخ زروق في شرح هذه الحكمة: "كما عودك الله على ما تحب، فاصبر له على ما يحب".. فلن يكون إلا خيرا لك.

"مَنْ ظَنَّ انْفِكاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذلِكَ لِقُصورِ نَظَرِه"

من أعظم إحسان الله وبره، كون لطفه لا ينفك عن قدره، فما نزل القدر إلا سبقه اللطف وصحبه، وبهذا حكم العقل والنقل...

أما العقل: فما من مصيبة تنزل بالعبد إلا وفي قدرة الله ما هو أعظم منها، وأما النقل، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ (الشورى: 19)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ (يوسف: 100) قيل في معنى اللطيف: "اللَّطِيف هُوَ الْبَرّ بِعِبَادِهِ الَّذِي يَلْطُف بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، وَيُسَبِّب لَهُمْ مَصَالِحهمْ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُونَ " (ابن كثير)، وقيل أيضا: اللَّطِيف الَّذِي يَنْشُر مِنْ عِبَاده الْمَنَاقِب وَيَسْتُر عَلَيْهِمْ الْمَثَالِب (العيوب والنقائص)، وَعَلَى هَذَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ:

(يا مَنْ أَظْهَرَ الجَمِيل وَسَتَرَ الْقَبِيح). وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يَقْبَل الْقَلِيل وَيَبْذُل الجَزِيل. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يَجْبُرُ الْكَسِير وَيُيَسِّر الْعَسِير. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي لا يُخَاف إِلا عَدْله وَلا يُرْجَى إِلا فَضْله. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يَبْذُل لِعَبْدِهِ النِّعْمَة فَوْق الْهِمَّة وَيُكَلِّفهُ الطَّاعَة فَوْق الطَّاقَة ; قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (النَّحْل: 18) ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لُقْمَان: 20)، وَقَالَ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الْحَجّ: 78)، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ " (النِّسَاء: 28). وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يُعِين عَلَى الْخِدْمَة وَيُكْثِر الْمِدْحَة. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي لا يُعَاجِل مَنْ عَصَاهُ وَلا يُخَيِّب مَنْ رَجَاهُ. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي لا يَرُدّ سَائِله وَلا يُوئِس آمِله. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يَعْفُو عَمَّنْ يَهْفُو. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يَرْحَم مَنْ لا يَرْحَم نَفْسه. وَقِيلَ. هُوَ الَّذِي أَوْقَدَ فِي أَسْرَار الْعَارِفِينَ مِنْ الْمُشَاهَدَة سِرَاجًا، وَجَعَلَ الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم لَهُمْ مِنْهَاجًا، وَأَجْزَلَ لَهُمْ مِنْ سَحَائِب بِرّه مَاء ثَجَّاجًا " (تفسير القرطبي)

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن المظهر قد يحمل إلى صاحبه معنى من معاني الشدة، لعدم اطلاعه على الغيب، ولتخيله الأمر على خلاف حقيقته، ولكن هذا المظهر خادع لا عبرة به، وإنما العبرة بالنتائج والثمرات، والنتائج تحمل لصاحبها ما كان يتأمله، أو فوق الذي كان يتأمله، وهذا هو اللطف من الله بعينه ".

وقد ورد في ثواب الأوجاع والشدائد أحاديث كثيرة، كما وردت آيات كثيرة في مدح الصابرين، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (الزمر: 10)، وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: 155)، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: 153)، والآيات في ذلك كثيرة... وكذلك قوله ﷺ: "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه" (صحيح البخاري).

وورد في الحمى أحاديث كثيرة، وأن حمى ساعة تكفر سنة، إلى غير ذلك... فبما يصبر الصابرون على حكمه تعالى، علمهم بوجود علمه ولطفه.

روي أن عمران بن الحصين رضي الله عنه قد استسقى ببطنه فلبث ملقى على ظهره سطيحاً ثلاثين سنة، فدخل عليه مرة أخوه فجعل يبكي لما رأى من حاله، فقال له لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة، قال: " لا تبك فإنني أحب ما أحبه الله تعالى إلي، ثم قال: أحدثك بشيء لعل الله تعالى ينفعك به وأكتم علي حتى أموت:

إن الملائكة تزورني فآنس بهم، وتسلم علي فأسمع تسليمها ".

وفي الأثر عن الله تعالى: " الفقر سجني، والمرض قيدي، أحبس بذلك من أحببت من عبادي ".

وفي البلايا تحصيل طاعات القلوب وهي أهم من طاعات الجوارح كما تقدم، مثل الصبر، والرضا والزهد والتوكل وحب لقاء الله تعالى وفي الخبر: إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه.

ففي الصبر كفارة الذنوب والخطايا، ورفع الدرجات، فالعبد قد يعجز عن القيام بوظائف الطاعات، ويتكاسل عن المواظبة على نوافل الخيرات، وإن قدر عليها لم يأمن تخليصها من الشوائب وتسليمها من الآفات والمعايب...

وقال ﷺ: " ما من مسلم يصيبه أذى، مرض فما سواه إلا حط الله سيئاته كما تحط الشجرة ورقها " (صحيح البخاري) ، وروي أيضا: " لا تتهم الله في شئ قضاه عليك ".

والأحاديث في ذلك كثيرة، منها أيضا: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، و ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر و كان خيرا له، و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له " (صحيح الجامع الصغير).

وقال ﷺ: "إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا" (صحيح البخاري)... وذلك أبلغ له في الوصول إلى غرضه لأنه من اختيار الله وجزائه له، وهو خير من أعماله، وفي الحديث القدسي: " يقول الله تعالى لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله في صحته، فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي". (الحاكم – صحيح على شرط الشيخين)

وقد روي أن أحد العابدين مر على قوم ظلمة، وقد صلبوا أحد الصالحين، يعذبونه حتى الموت، فحزن لذلك، وتوجه إلى الله داعيا متضرعا وكان مما قاله: رحمتك يا ربي، فإن حلمك على الظالمين قد أضر بالصالحين، فلما نام من ليلته، رأى في منامه هذا الرجل الصالح الذي قتل، في الجنة.. يلبس من

حلل الجنة.. ويأكل من ثمار الجنة، ويتنعم فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسمع نداء علويا يقول: حلمي على الظالمين، أنزل الصالحين، أعلى عليين..

قال رسول الله ﷺ: " يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة فيغمس فيها، ثم يقال له أي فلان هل أصابك نعيم قط فيقول لا، ما أصابني نعيم قط، ويؤتى بأشد المؤمنين ضرا وبلاء فيقال اغمسوه غمسة في الجنة، فيغمس فيها غمسة، فيقال له أي فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء؟ فيقول ما أصابني قط ضر ولا بلاء " (صحيح مسلم).

" لا تَطْلُبْ مِنْهُ أَن يُخْرِجَكَ مِنْ حالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فيما سِواها. فَلَوْ أَرادَ لاسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْراجٍ"

من آداب العارف الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه، فإذا أقامه الله تعالى في حالة من الأحوال فلا يستحقرها ويطلب الخروج منها إلى حالة أخرى، فلو أراد الحق تعالى أن يخرجه من تلك الحالة ويستعمله فيما سواها لاستعمله من غير أن يطلب منه أو يخرجه... بل يمكث على ما أقامه فيه الحق تعالى حتى يكون هو الذي يتولى إخراجه كما تولى إدخاله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء: 80) فالمدخل الصدق هو أن تدخل فيه بالله، والمخرج الصدق أن تخرج منه بالله.

وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ ﴾ (القصص:68)، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (الإنسان: 30).

يقول الدكتور البوطي: "وابن عطاء الله إنما يتحدث عن الأعمال المباحة، بل الأعمال الصالحة التي أقام الله عباده فيها، أما العمل الذي لا مبرر له في ميزان الشرع، مما قد يجد المسلم أنه متورط فيه، فإن الخروج من هذا العمل واجب، بل الدخول فيه والركون إليه محرم ".

روي في الأثر أنه أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال: "يا داود تريد وأريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لي ما أريد أتيتك بما تريد، وإن لم تسلم لي ما أريد أتعبتك فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد ".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال " يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف " (سنن الترمذي).

وإذن فهناك حالات يقيم الله عز وجل فيها عبدا من عباده في مقام، ويتطلع إلى مقام آخر للنفس فيه حظ، أدبنا في هذا المقام التفويض والتسليم فإذا كنت في موقع تقيم فيه تكليفا ربانيا فلا تطلب موقعا للنفس فيه حظ، لأنه يخشى أن يكون في الطلب نزول عن المقام الأرقى، فإذا أقامك الله في موقع

تحقق فيه فريضة عينية أو فرض كفاية فقد يكون ما تتطلع إليه تعطيلا لهذه الفريضة نتيجة لشهوتك النفسية، فإذا تطلعت نفسك إلى شئ من مثل هذه المعاني فداوم على ما أنت فيه واترك الأمر لله عز وجل فإذا أراد أن يستعملك في حالة أخرى فالأمر له..

فإذا تجلى في العارف الانتقال من حال إلى حال فليتأن وليصبر حتى يفهم أنه من الله، بإشارة ظاهرة أو باطنة أو هاتف حسي أو معنوي ولينصت إلى الهواتف فإن الله تعالى يخاطبه بما يفعل.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ لم يهاجر إلا بإذن خاص من الله... وأن أبا بكر لم يهاجر إلا بإذن خاص من رسول الله ﷺ، وأن يونس عليه السلام عندما فارق قومه بلا إذن خاص عوقب، ولكن بما أن الإذن الخاص بواسطة الوحي قد انتهى، فلم تبق إلا الاستخارة والرؤيا الصالحة والاستشارة لأهل الكمال، والشرع الحاكم على ذلك كله..

ومن علامة الإذن التيسير، أو الإخراج القهري من الله عز وجل، وذلك كله حيث لا حكم شرعي واضح، أما إذا كان هناك حكم شرعي بوجوب الانتقال أو بحرمة البقاء فيجب الامتثال.

لطيفة: قال الشيخ في كتابه "التنوير": وافهم - رحمك الله - أن من شأن العدو - يقصد الشيطان - أن يأتيك فيما أنت فيه مما أقامك الله فيه فيحقره عندك لتطلب غير ما أقامك الله فيه فيشوش عليك قلبك، ويكدر وقتك... وهو إنما يأتيك في صورة ناصح كما أتى أبويك فيما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا

رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الأعراف: 20-21)

وإنما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضا عن الله فيما هم فيه، وأن يخرجهم عن مختار الله لهم، إلى مختارهم لأنفسهم، وما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليك... والذي يرتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك.. حتى يكون الحق تعالى هو الذي يتولى إخراجك كما تولى إدخالك، وليس الشأن أن تترك السبب، بل الشأن أن يتركك السبب، وهكذا شأن الصديقين لا يخرجون من شئ حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم... فالصديقون أدبهم مع الله إذا أرادوا شيئا أن يرفعوا أمرهم إلى الله بلسان الحال ولسان الافتقار، ويتركوا لله عز وجل أن يخرجهم من وضع إلى وضع آخر، من وضع لا يرتاحون فيه أو إليه، إلى وضع يرتاحون فيه أو إليه، وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ (البقرة:144).

۞ ۞ ۞

" إرادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إقامَةِ الله إيّاكَ في الأسْبابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الخَفيَّةِ، وإرادَتُكَ الأَسْبابَ مع إقامَةِ الله إيّاكَ في التَّجْرِيدِ انْحِطاطٌ عَنِ الهِمَّةِ العَلِيَّةِ "

التجريد: هو ترك الأسباب الدنيوية للتفرغ للعبادة، فالمراد بالتجريد هنا هو انقطاع الإنسان عن أعماله الدنيوية، كالتفرغ لطلب العلم أوللجهاد، أو الاعتزال للعبادة... فالإنسان الذي يضع قدمه في الطريق إلى الله عز وجل قد تصبح عنده رغبة في أن يترك الأسباب، أي يترك العمل الدنيوي، ويتفرغ لعبادة الله... وقد تكون هذه الرغبة أثرا عن شهوة نفس، لذا لزم التحذير...

فإذا أقامك الله في الأسباب (حرفة وعمل وسعي في الأرض بالعمل الصالح) تبقى في الأسباب، وما تستطيع أن تفعله في العلم والدعوة والعبادة فافعله، لكن لا تحاول أن تترك الأسباب...

ومن آداب المتسبب إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب حتى يكون الحق تعالى هو الذي ينقله منها... كتعذرها من كل وجه مثلا، فحينئذ ينتقل للتجريد، وعلامة إقامته فيها: دوامها له مع حصول النتائج، وعدم وجود العوائق القاطعة له عن الدين.

فالصديقون أدبهم مع الله إذا أرادوا شيئا أن يرفعوا أمرهم إلى الله بلسان الحال ولسان الافتقار، ويتركوا لله عز وجل أن يخرجهم من وضع إلى وضع آخر، من وضع لا يرتاحون فيه أو إليه، إلى وضع يرتاحون فيه أو إليه، وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ (البقرة:144)، ولا شك أنه انحطاط عن

الرتبة العليا أن يكون الإنسان في التجريد ثم يحاول أن ينزل إلى عالم الأسباب لغرض دنيوي... فإذا عاد إلى الأسباب أصابته كدورتها، وغشيته ظلمتها... ويعود الدائم في سببه أحسن حالا منه، لأن ذلك ما سلك طريقا ثم رجع عنها، ولا قصد مقصدا ثم انعطف عنه، فافهم واعتصم بالله:
﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ (آل عمران: 101).

۞ ۞ ۞

"سَوَابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ القَدْرِ"

مهما كانت همتك عالية فهناك قدر لا تستطيع الهمة أن تخرقه، فلابد من التسليم لله عز وجل، وأن تعرف أن هناك مسرى للأقدار ومجرى لا يستطيع أحد تغييره، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ٤٩﴾ (القمر: 49)، وقال الرسول ﷺ: " كل شئ بقضاء وقدر حتى العجز والكيس " (مسلم وأحمد).

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): " شبه ابن عطاء الله القدر الذي قدره الله تعالى في غيبه على خلقه، بسور محكم عال غليظ يحيط بالبلدة، فمهما أراد الأعداء أن يخترقوه من هنا أو هناك لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، أي فأنت لاتستطيع أن تلغي أو تقفز فوق أقدار الله تعالى بهمتك ومحاولاتك مهما أوتيت من براعة الحيلة وخوارق القوة، إن الأسباب التي تتعامل معها، مهما كانت ذات مضاء وفاعلية فيما يبدو لك، تتحول إلى ظواهر ميتة إن هي عارضت قضاء الله وحكمه المبرمين في سابق غيبه سبحانه ".

" أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ. فَما قامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ اجْتِهادُكَ فيما ضُمِنَ لَكَ وَتَقْصيرُكَ فيما طُلِبَ مِنْكَ دَليلٌ عَلى انْطِماسِ الْبَصيرَةِ مِنْكَ. "

التدبير المحمود هو الذي يؤدي بك إلى القرب من الله ويوصلك إلى مرضاته سبحانه ...

والتدبير المذموم ما شغلك عن الله، وعطلك عن القيام بخدمة الله وصدك عن معاملة الله...

ورد في الأثر: " إن الله جعل الروح والراحة في الرضا واليقين ".

والانهماك في التدبير والاختيار يدل على انطماس البصيرة فهو تعب عظيم استعجله العبد لنفسه ولعل أكثر ما يقدره لا يقع، فيخيب ظنه، ويبطل سعيه، وفعلهما بالله يدل على فتح البصيرة.

والبصيرة هي ناظر القلب كما أن البصر ناظر القالب (الجسد)، البصيرة لا ترى إلا المعاني، والبصر لا يرى إلا المحسوسات، أو البصيرة لا ترى إلا اللطيف والبصر لا يرى إلا الكثيف.

ومن الخذلان ن يشغل العبد نفسه في الظاهر بخدمة الأكوان، وفي الباطن بمحبتها حتى ينطمس نور بصيرته.

والدنيا كنهر طالوت لا ينجو منها إلا من لم يشرب، أو اغترف غرفة بيده... البصيرة كالبصر أدنى شئ يقع فيه يمنع النظر وإن لم ينته إلى العمى... فالخطرة من الشيء المذموم تشوش النظر وتكدر الفكر، والإرادة له تذهب بالخير رأسا،

والعمل به يذهب عن صاحبه سهما من الإسلام ... فإذا استمر في الشر وانتهى إلى الوقيعة في الأمة وموالاة الظلمة حبا في الجاه والمنزلة وحبا للدنيا على الآخرة فقد تفلت منه الإسلام كله، إذ أن الإسلام حب الله وحب رسوله ﷺ وحب الصالحين وموالاتهم.

يقول سعيد حوى، رحمه الله (بتصرف يسير): "ولكن هناك استدراك هام، فقد قال الرسول ﷺ: " إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه " (صحيح الجامع الصغير)، فالأصل هو إتقان العمل وإحكام التدبير، فليس من الإعمار أن تترك التدبير والتنظيم ليكون ذلك للكافرين، الإسلام ما جاء لينقض السنن الكونية بل جاء من أجل أن نتعامل بإحسان مع السنن الإلهية..

إذن فالمراد من الحكمة: أن لا تجتهد في الرزق المكفول لك وتترك المطلوب منك: أي أن لا تنصب تفكيرك وحرصك على حظوظك الدنيوية والنفسية ... والقسم المطلوب: تدبير ما كلفت به من الواجبات، وما ندبت إليه من الطاعات مع تفويض المشيئة واصطحاب النية، قال ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء مانوى " (صحيح الجامع الصغير) انتهى.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "نحن مأمورون بالأخذ بالأسباب، ولكن منهون عن الاعتماد عليها والانشغال بها، وهو أصل التوكل.. ومدار الحكمة على أنه هناك شيئا طلبه الله منا، وشيئا آخر ضمنه الله لنا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات:56)، وقد ضمن الله لنا الرزق، قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا

نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (طه: 132)... بل إن الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله يعد نوعا من الجهاد: روى الطبراني في معجمه الصغير والكبير من حديث كعب بن عجرة، أن رسول الله ﷺ خرج ومعه جمع من الصحابة فرأوا رجلا قد بكر إلى العمل، ورأوا من جلده ونشاطه ما أعجبهم، فقال أحدهم: ويح هذا، لو كان في سبيل الله ! فقال ﷺ: " إن كان خرج يسعى على ولد له صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أهله فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى تفاخرا أو تكاثرا فهو في سبيل الشيطان ".

❁ ❁ ❁

" مِنْ عَلاماتِ إقامَةِ الحَقِّ لَكَ في الشَّيْءِ: إدامَتُهُ إيّاكَ فيهِ مَعَ حُصولِ النَتائِجِ "

إذا أقام الحق تعالى عبده في حالة لا يستقبحها الشرع ولا يذمها سليم الطبع، فلا ينبغي له الانتقال عنها بنفسه حتى يكون الحق تعالى الذي أدخله فيها هو الذي يتولى إخراجه منها... قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ (الإسراء: 80)

فالمدخل الصدق أن تدخل في الشيء بالله، لا بنفسك، والمخرج الصدق أن تخرج منه بالله لا بنفسك، فإذا أقامك الحق تعالى في الأسباب فلا تخرج منها

بنفسك فتتعب، فامكث حتى يخرجك الحق تعالى بإشارة صريحة أو من هاتف من عند ربك تعرفه يقينا، وقد تقدم هذا المعنى في حكمة سابقة...

ومن علامة إقامة الله تعالى لك في ذلك الشيء الذي أنت فيه: إدامة الحق تعالى إياك في ذلك الشيء، مع حصول النتائج وسلامة الدين...

فإذا أقامك الحق تعالى في نشر العلم الظاهر، فعلامة إقامة الحق فيه تعليمه لله، ونفع عباد الله، والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله، والتواضع...

وإذن علامة إقامة الله عبده في الشيء أن يديمه عليه ويحصل له ثمرته ونتيجته.. فإذا وجدت نفسك في وضع مستديم، وكانت هناك نتائج مرضية، فهذه علامة أن الله عز وجل قد أقامك هذا المقام...

۞ ۞ ۞

الفصل السادس

في التفكر والعزلة

"ادْفِنْ وُجودَكَ في أَرْضِ الخُمولِ، فَما نَبَتَ مِمّا لَمْ يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نِتاجُهُ... ما نَفَعَ القَلْبَ شَئٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِها مَيْدانَ فِكْرَةٍ"

الخمول: عكس الظهور والشهرة، والمقصود به ما هو ضد حب الظهور والجاه والرياسة، وهو أيضا عدم الاهتمام بذكر الناس.

والعزلة أخص من الخمول، فالعزلة لا يكون معك فيها أحد، أما الخمول فيصدق بالابتعاد عن أضواء الشهرة، وعدم الاهتمام بذكر الناس، حتى ولو خالطتهم.

إن الحبوب إذا ألقيت في الأرض ولم تدفن دفنا كاملا يكون نتاجها ضعيفا أو لا يتم أصلا، فقد لا ينتفع منك الخلق انتفاعا كاملا، لا من دعوتك ولا من علمك إلا إذا مرت عليك مرحلة في حياتك دفنت نفسك فيها في أرض الخمول بمعنى انقطعت عن الناس و اعتزلتهم وعكفت على بناء نفسك

وتزكية قلبك، حتى ولم يشعر الناس بوجودك، وهذه العملية ليست هدفا بحد ذاته بل هي وسيلة للوصول إلى ما عناه الشيخ من نتائج محمودة.

إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت، ولا ينفعها إلا الحمية وهي قلة موادها، وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض وربما مات ولا ينفعه إلا الحمية منها والفرار من مواطنها.

واعلم أن في الخلوة عشر فوائد:

1- السلامة من آفات اللسان: ومنها الكذب والغيبة والنميمة، والزور والبهتان، قال ﷺ: رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت عن سوء فسلم". (صحيح الجامع الصغير)

2- حفظ البصر والسلامة من آفات النظر فتمنع بذلك النفس من التطلع إلى الدنيا والاستشراف لها ومنافسة أهلها... قال محمد بن سيرين رضي الله عنه: إياك وفضول النظر فإنها تؤدي إلى فضول الشهوة:

وإنك إن أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

3- حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرها من الأمراض، مما يورث قوة اليقين التي هي أصل كل عمل صالح، فضعف اليقين إنما يكون من رؤية أهل الغفلة، ومخالطة أرباب البطالة والقسوة.

4- حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها... قال ﷺ: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس" (صحيح الجامع الصغير).

وورد في الأثر أن عيسى عليه السلام قال: "لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قالوا من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها".

5- السلامة من صحبة الأشرار، ومخالطة الأرذال، وفي مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم، كما جاء في الحديث: "ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه" (صحيح أبي داود).

6- التفرغ للعبادة والذكر، والعزم على التقوى والبر.

7- وجدان حلاوة الطاعات، وتمكن لذيذ المناجاة لفراغ سره.

8- راحة القلب والبدن.

9- صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات بسبب التنافس على الدنيا.

10- التمكن من عبادة التفكر والاعتبار، ورد في الأثر: "تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة".

وتأمل خلوة الرسول ﷺ قبل النبوة، لقد بدأت إرهاصات الدعوة عند الرسول ﷺ بأنه كان يرى في منامه الرؤيا فتتحقق مثل فلق الصبح، و حببت

إليه الخلوة، فكان يصعد إلى غار حراء خلوة بربه، ثم ترك الناس وأهله، حببت إليه الخلوة الليالي ذوات العدد حتى إن خديجة رضي الله عنها تستبطئه فترسل في طلبه للتأكد من صحته، جاء في الحديث:

"عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.. الحديث" (صحيح البخاري).

وتأمل أيضا الاعتكاف الذي هو من سننه ﷺ.

وأحوج ما يكون الإنسان للخلوة عندما يكون في بيئة سيئة، فإن القلب يكون مشوشا، أو محل وسوسة أو محل غفلة أو خضوع للشهوة.

وفي الرسالة القشيرية: طول الاستماع إلى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من القلب...

هذا بعكس الاجتماع مع الصالحين ومجالستهم والانتفاع بهم، جاء في الحديث: "مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة" (صحيح البخاري).

والقصد في القول هو أن العزلة مرحلة مؤقتة في حياة المسلم، للبناء

الداخلي، أو للبعد عن مواطن التشويش والفتنة، حيث أن الأصل أن المسلم يجب ألا يكون منقطعا تماما عن الحياة، بل عنصرا مؤثرا فيها، ولنا في سيرة الرسول ﷺ الأسوة الحسنة.

۞ ۞ ۞

"كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ؛ صُوَرُ الأَكْوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مِرْآتهِ؟"

جعل الله قلب الإنسان كالمرآة الصقيلة ينطبع فيها كل ما يقابلها، فإذا أراد الله بعبد عناية، شغل فكرته بأنوار ملكوته، وأسرار جبروته، ولم يعلق قلبه بمحبة شئ من الأكوان الظلمانية، والخيالات الوهمية، فانطبعت في مرآة قلبه أنوار الإيمان والإحسان، وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشموس العرفان...

وإذا أشغل العبد فكرته بالأكوان الظلمانية والشهوات الجسمانية، انطبعت تلك الأكوان في مرآة قلبه، فينحجب بظلماتها عن إشراق شموس العرفان وأنوار الإيمان...

والناس متفاوتون في القرب والبعد، كل على قدر يقينه، وقلة تعلقاته الدنيوية، وعوائقه الشهوانية وخيالاته الوهمية، وفي الحديث: "إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله تعالى: أن يجدد الإيمان في قلوبكم" (صحيح الجامع الصغير).

وفي الأثر: "لكل شئ مصقلة ومصقلة القلوب ذكر الله".

وقال ﷺ: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكره الله تعالى: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" (سنن الترمذي - حسن صحيح)

۞ ۞ ۞

"أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهْوَاتِهِ؟"

الرحيل مع التكبيل (التقييد) لا يجتمعان... فاقطع عنك يا أخي عروق العلائق، وفر من وطن العوائق، تشرق عليك أنوار الحقائق، ولهذا كانت السياحة والهجرة من الأمور المستحبة إذ الإقامة في الوطن الحسي لا يخلو معها من التعلقات الحسية، وقد قالوا العبد كالماء إذا طال في موطن واحد تغير، وإذا جرى عذب، وبقدر ما يسير القالب يسير القلب، والهجرة سنة نبوية، ومنذ هاجر الرسول ﷺ لم تكن له راحة إلا في السفر للجهاد حتى فتح الله عليه البلاد، وهدى به العباد.

ومن الممكن أن يكون هذا الفرار، وتكون هذه الهجرة بالنفس والقلب، إذا تعذرا بالأشباح.

لطيفة: سافر سلمان الفارسي في زيارة أبي الدرداء من العراق إلى الشام راجلا وعليه كساء غليظ غير مضموم، فقيل له: أشهرت نفسك؟ (أي لبست لباس شهرة) فقال: "الخير خير الآخرة، وإنما أنا عبد.. ألبس كما يلبس العبد، فإذا أعتقت.. لبست حلة لا تبلى حواشيها".

"أَمْ كَيْفَ يَطمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابِةِ غَفْلاتِهِ؟"

الحضرة: هي حضور القلب مع الرب، وجنابة القلب: غفلته عن ربه.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إذا تخلصت من الغفلة اتجه منك القلب إلى الإله الذي نعمك من صنعه، وسعادتك من فضله، يجب ألا تستقبل نعمة إلا وتربطها بالمنعم المتفضل وهو الله عز وجل، ولا تنقلب متنقلا من حال إلى حال، إلا وترى أن الله هو المتصرف بك والمسير لك، فالأسباب والوسائط التي نراها ما هي إلا جنود وخدم تحت سلطان الله، ومن شأن هذا الشعور إذا استمر أن يصرف القلب من محبة الأغيار والتعلق بهم إلى محبة الله والتعلق به وحده سبحانه، إذ هو مصدر كل تفضل وعطاء.. فإذا تحرر العبد من الغفلة التي كان مكبلا بها، فقد آن له أن يدخل حضرة الله تعالى، وهذا التعبير من ابن عطاء الله، إحالة إلى قول رسول الله ﷺ وهو يعرف الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، أي تنجذب بمشاعرك وحضورك عن الدنيا وأحوالها، فتغيب عنها غيبة تامة، ولا يبقى في إحساسك إلا الشعور بأنك في حضرة الله، تناجيه كأنك تراه، وذلك هو شأن القلب اليقظ بمحبة الله وتعظيمه، مهما انعكست عليه صور الآثار الكونية فإنه لا يرى فيها إلا المؤثر جل جلاله، وتلك هي الحالة التي يسمونها وحدة الشهود، وهي المرتبة العليا التي يجب على كل منا أن يجاهد نفسه في بلوغها، والاصطباغ الشعوري بها".. انتهى

۞ ۞ ۞

"أَمْ كَيْفَ يَرْجو أَنْ يَفْهَمَ دَقائِقَ الأَسْرارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَواتِهِ؟!"

الرجاء: تمني الشيء مع السعي في أسبابه، وإلا فهو أمنية.

الهفوات: جمع هفوة وهي الزلة والسقطة.

هناك علاقة واضحة بين هذه الحكمة والحكم السابقة، فالاستغراق في الغفلات هو السبب في الاستسلام لأسر الشهوات، والاستسلام لأسر الشهوات هو السبب في كثرة الهفوات، وكثرة الهفوات هي السبب في انطباع صور الأكوان في القلب وانتشار الران عليه.. فعليك أن تحرص على الابتعاد عن المعاصي جهد استطاعتك، وإذا ابتليت بشيء منها فبادر وطهر نفسك منها بالتوبة والاستغفار.

وفهم دقائق الأسرار لا يكون أبدا مع وجود الإصرار على المعصية.

التقى أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي الحواري، فقال ابن حنبل لابن أبي الحواري: يا أحمد حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان، فقال أحمد ابن أبي الحواري: سمعت شيخي أبا سليمان الداراني يقول: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام، جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالما علما، قال أحمد بن حنبل: صدقت يا أحمد وصدق شيخك، ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إلي من هذه، ثم ذكر الأثر: "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم".

وبمناسبة ذكر الخلوة وأهميتها للسائر إلى الله، وما تلقيه النفس من

شبهات، قال الغزالي في الإحياء: "إن العالم كلما أراد أن يتفرغ لنفسه ولقلبه تثور عنده هواجس ووساوس تقول له: كيف تتفرغ لنفسك والناس هلكى، وكأن هلاك هذا العالم يتوقف عليه "، لذلك قال ابن عطاء الله في حكمة أخرى:

" ما تَرَكَ مِنَ الجَهْلِ شَيْئاً مَنْ أَرادَ أَنْ يُحْدُثَ في الوَقْتِ غَيْرُ ما أَظْهَرَهُ اللهُ فيِهِ "

فالأمور كلها مقدرة والله هو مدبر الأمر كله...

صفحة بيضاء - تترك فارغة

الفصل السابع

في التوبـة والرجاء

"لا يَعْظُم الذَنْبُ عِنْدَك عَظَمَةً تَصُدُّك عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ باللهِ تَعالى، فإنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّـهُ اسْتَصْغَرَ في جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ"

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الزمر: 53).

وقال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الحجر: 49-50) والوعيد هنا إنما هو لمن لم يتب.

وقد جاء في الأحاديث أنه لو أذنب العبد حتى تبلغ خطاياه عنان السماء ثم تاب لتاب الله عليه، ولو أن العباد لم يذنبوا لذهب الله بهم ثم جاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم، وهو الغفور الرحيم:

فعن أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول "قال الله تبارك وتعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا

ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم : إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة" (الترمذي - سنن الدارمي).

وجاء في الحديث: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم " (مسلم وأحمد).

بل إن الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده، فقد ورد في الحديث: قال رسول الله ﷺ: لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح " (صحيح مسلم)

ولكن لا ينبغي أن يصغر عنده ذنبه حتى يغتر بحلم الله...

والمعصية التي تكسب انكسارا وذلا للنفس، وتعظيما وإجلالا للرب، مع استغفار وتوبة، أفضل من الطاعة التي تورث شهود النفس...

وعموما: فحسن الظن بالله أدب من آداب السالك الرئيسية، لأن الله عز وجل يقول في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء" (صحيح الجامع الصغير)، لذا كان حسن الظن بالله عز وجل هو معتصم السائرين إلى الله تعالى..

يقول الدكتور البوطي: "الشأن في المؤمن الذي عرف ربه، أن يسارع في طاعة مولاه، حبا له ويقينا منه بأنه لا يوجهه إلا إلى الخير، ولا يحذره إلا من الشر.. فإذا ساقه الضعف إلى مخالفة أمره، أو الوقوع في نهيه، فاض قلبه خجلا وتأثرا من هذا الذي بدر منه تجاه مولاه، الذي هو غريق ألطافه ومننه وإحسانه... والأليق بحال العبد أن يكون مبعث حزنه على ما فاته من الطاعات، وندمه على ما ارتكب من الموبقات، الحياء من الله عز وجل، والتأثر من سوء معاملته لله مع حسن معاملة الله له.. فذلك هو الدليل على حبه وتعظيمه له ".

❁ ❁ ❁

" لا صَغيرَةَ إذا قابَلَكَ عَدْلُه،
وَلا كَبيرَةَ إذا واجَهَكَ فَضْلُهُ "

الصغيرة: هي الجريمة التي لا وعيد فيها من القرآن ولا من الحديث، والكبيرة ما فيها وعيد أو لعن أو طرد في القرآن أو الحديث (وقيل غير ذلك) ويجب عدم التهاون بالصغيرة والكبيرة، لأنه إذا حاسبك الله بالعدل فأنت هالك، أما إذا حاسبنا بالفضل فإنه يغفر الكبائر، بل ويبدلها حسنات.

قال يحيى بن معاذ الرازي: "إذا أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة، وإذا وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة "، وعموما فإنه لا كبيرة مع توبة واستغفار، ولا صغيرة مع إصرار واستخفاف.

وما أحسن قول أبو الحسن في دعائه: واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت.

يقول الدكتور البوطي: "إن استهتار العبد بالذنب يحول الصغيرة إلى كبيرة، إذ لا كبيرة أكبر بعد الكفر والشرك بالله، من الاستخفاف بحقوق الله تعالى، وهو نفس المقياس الذي يجعل الطاعة الصغيرة، في رأي العين، كبيرة عند الله عز وجل، وذلك عندما يندفع العبد إليها بدافع حب الله وتعظيمه... روى ابن عساكر في تاريخه في ترجمة بشر بن الحارث المشهور بالحافي، أن سبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة كتب عليها اسم الله تعالى، قد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية (نوع من أنواع الطيب) فطيب بها الورقة، وجعلها في شق حائط. فرأى فيما يرى النائم أن قائلا يقول له: "يا بشر، طيبت اسمي، لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة".

فعليك أن تقبل على طاعة الله، بدافع التعظيم لذاته، والغيرة على حرماته، والشعور بعظيم حق الله عليك، وعندئذ تتساوى المعاصي كلها أمامك في السوء والخطورة.. فإنك إن سرت على هذا النهج لم يواجهك من صفات الله عز وجل إلا فضله وصفحه وغفرانه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ (الحج: 32)، قال ابن كثير: شعائر الله: أوامر الله.

❁ ❁ ❁

"رُبَّما فَتَحَ لَكَ بابَ الطّاعَةِ وَما فَتَحَ لَكَ بابَ القَبولِ"

إذ الطاعة إنما هي وسيلة لمحبة المطاع، فإذا فتح لك باب العمل غير أنك لم تجد له ثمرة، ولم تذق له حلاوة، من الأنس بالله والوحشة مما سواه، فراجع نفسك أيها المريد فربما منعت من الوصول، باعتمادك على الأعمال والركون إليها، وفي الحديث: "رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر" (صحيح الجامع الصغير).

❁ ❁ ❁

"وَرُبَّما قَضى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكانَ سَبَبَاً في الوُصولِ"

وذلك أن العبد في سيره لمولاه، قد يحصل له كلل، أو يصيبه ملل، أو يركبه كسل، فيسلط الحق عليه ذنبا، أو تغلبه نفسه فيسقط، فإذا قام من سقطته جد في سيره، ونهض من غفلته، ونشط من كسله. قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفا منه مشفقا وجلا باكيا نادما مستحيا من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة، بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

❁ ❁ ❁

" مَعْصِيَةٌ أَورَثَتْ ذُلاً وافْتِقاراً... خيرٌ مِنْ طاعَةٍ أوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْباراً "

لما كانت الطاعة للخضوع والخشوع، فالمعصية التي توجب الانكسار أفضل من الطاعة التي توجب الاستكبار، فالعبرة ليست بصورة الطاعة ولا بصورة المعصية وإنما العبرة بما ينتج عنهما، قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " (رواه مسلم)

فثمرة الطاعة هي الذل والانكسار، وثمرة المعصية هي القسوة والاستكبار، فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق، وصارت الطاعة معصية، والمعصية طاعة.

ولذلك قال المحاسبي: إنما مراد الله سبحانه من عباده: قلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد، وتواضع الجاهل والعاصي وذل هيبة لله عز وجل وخوفا منه، فهذا أطوع لله بقلبه من العالم والعابد.

يقول الدكتور البوطي: "وحصيلة القول أن الحاجز الذي يبعد العبد عن ربه هو الاستكبار، ولو كان نسيجه الطاعات والعبادات، والجسر الذي يوصل العبد إلى ربه ويقربه منه هو العبودية الضارعة له، ولو كان نسيجها الذنوب والعصيان.. وصدق من قال: إن أنين العاصي ألما من معصيته، أحب إلى الله من تسبيح المرائي العجب بتسبيحه".

لطيفة: خصلتان ليس فوقهما شئ من الخير: حسن الظن بالله، وحسن الظن بعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما شئ من الشر: سوء الظن بالله، وسوء الظن بعباد الله.

" تَمَكُّنُ حَلاوَةِ الهَوى مِنَ القَلْبِ هُوَ الدّاءُ العُضالُ...
لا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ القَلْبِ إلّا خُوْفٌ مُزْعِجٌ أوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ "

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء (بتصرف): "اللذات تنقسم إلى ظاهرة: كلذة الحواس الخمس وتشمل حلاوة المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح والمساكن، ولذات باطنة كحب الجاه والرياسة والعز والمدح والخصوصية وغيرها... والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة أطايب الطعام وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل الدرجات، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب اختار اللحم والحلاوة، وإن كان عالي الهمة كامل العقل اختار الأخرى.. وهذه اللذة هي سبب الحب.

في الحب والشوق:

اعلم أن حقيقة الحب أن يحب الشيء لذاته، لا لحظ ينال منه وراء ذاته، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة، فالخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة، وإنما لرؤية ذلك الجمال لذاته، والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر، فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع، فإن ثبت أن الله جميل، كان لا

محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله، كما قال رسول الله ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال" (رواه مسلم)، وهناك أيضا حسن وجمال في غير المحسوسات إذ يقال: هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة، وهذا الحسن والجمال لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة، فالخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته، ومن أمثلة ذلك حب الأنبياء والصالحين، فمن يحب الشافعي مثلا لم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته، وكذلك إذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأي الديار، فالمحبوب مصدر السيرة الجميلة، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة، والمحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب.. فما بالك بمن انتهى خالص إحسانه إليك، وكمال فضله ونعمه عليك؟؟

لذلك كانت لذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى بديع خلقه وتدبيره وتقديره سبحانه ألذ من سائر اللذات الأخرى، فجميع أقطار السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء.. ومن أطال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول ذلك الكشف من الفرح ما يكاد يطير به، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى، فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء وأنه لا لذة فوقها.

ويلوح أحيانا من جمال هذه المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب ينفطر لعظمته، ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم، بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينغصه، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (العنكبوت: 64)، الحيوان: الحياة الحقيقية المستمرة أبد الآباد.. انتهى

يقول ابن عجيبة: علاج هوى النفس يكون بالفرار من مواطن الفتن، والبحث عن الحلال الطيب، مع الزهد، وصحبة الأخيار، وأما علاج هوى القلب إذا تمكن فهو صعب، وهو الداء العضال الذي أعضل الأطباء: أي أعجزهم وحبسهم عن علاجه، فلا يزيده الدواء إلا تمكنا، وإنما يخرجه وارد الهي بعناية سابقة، بواسطة أو بغير واسطة، وهو الذي أشار إليه بالخوف المزعج أو الشوق المقلق... ولا يمكن خروج الشهوة القلبية في العادة إلا بوارد قهري من الله، جلالي أو جمالي، فالوارد الجلالي: هو خوف مزعج، فيزعجك عن شهوتك، ويخرجك عن وطنك وأهلك... والوارد الجمالي: هو شوق مقلق، فيقلقك عن مراداتك وحظوظك، فينسيك نفسك ويؤنسك بربك...

ثم اعلم أن الخوف على قسمين: خوف العوام وخوف الخواص... خوف العوام من العقاب والعذاب، وخوف الخواص من القطيعة والحجاب...

والشوق أيضا على قسمين: شوق العوام للحور والقصور، وشوق

الخواص للشهود والحضور. قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ (التوبة: 72).. جاء في تفسير ابن كثير في هذه الآية العظيمة:

يُخْبِر الله تَعَالَى بِمَا أَعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات مِنْ الْخَيْرَات وَالنَّعِيم الْمُقِيم فِي "جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا" أَيْ مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا "وَمَسَاكِن طَيِّبَة": أَيْ حَسَنَة الْبِنَاء طَيِّبَة الْقَرَار كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: قَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ: "جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَب آنِيَتهمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّة وَآنِيَتهمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْن الْقَوْم وَبَيْن أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبّهمْ إِلا رِدَاء الْكِبْرِيَاء عَلَى وَجْهه فِي جَنَّة عَدْن "، وقَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ: "إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّة لَخَيْمَة مِنْ لُؤْلُؤَة وَاحِدَة مُجَوَّفَة طُولهَا سِتُّونَ مِيلا فِي السَّمَاء لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوف عَلَيْهِمْ لا يَرَى بَعْضهمْ بَعْضًا " أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ: "مَنْ آمَنَ بِاللهَّ وَرَسُوله وَأَقَامَ الصَّلاة وَصَامَ رَمَضَان، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللهَّ أَنْ يُدْخِلهُ الْجَنَّة، هَاجَرَ فِي سَبِيل اللهَّ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضه الَّتِي وُلِدَ فِيهَا " قَالُوا يَا رَسُول اللهَّ أَفَلا نُخْبِر النَّاس؟ قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّة مِائَة دَرَجَة أَعَدَّهَا اللهَّ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيله بَيْن كُلّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللهَّ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْس فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّة وَأَوْسَط الْجَنَّة وَمِنْهُ تَفَجَّر أَنْهَار الْجَنَّة وَفَوْقه عَرْش الرَّحْمَن"، وَعَنْ أَبِي حَازِم عَنْ سَهْل بْن سَعْد قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ: "إِنَّ أَهْل الْجَنَّة لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرْفَة فِي الْجَنَّة كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَب فِي السَّمَاء" أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، ثُمَّ لِيُعْلَم أَنَّ أَعْلَى مَنْزِلَة فِي الْجَنَّة مَكَان يُقَال لَهُ الْوَسِيلَة لِقُرْبِه

مِنْ الْعَرْش وَهُوَ مَسْكَن رَسُول اللهَّ ﷺ مِنْ الجَنَّة كَما قَالَ الإِمَام أَحْمَد: أَنَّ رَسُول اللهَّ ﷺ قَالَ: "إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُوا اللهَّ لِي الْوَسِيلَة قِيلَ يَا رَسُول اللهَّ مَا الْوَسِيلَة؟ فَقَالَ: أَعْلَى دَرَجَة فِي الجَنَّة لا يَنَالهَا إِلا رَجُل وَاحِد وَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا هُوَ ". وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عَبْد اللهَّ بْن عَمْرو بْن الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ يَقُول: " إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّن فَقُولُوا مِثْل مَا يَقُول ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاة وَاحِدَة صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَة، فَإِنَّهَا مَنْزِلَة مِنْ الجَنَّة لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَاد اللهَّ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُون هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ اللهَّ لِي الْوَسِيلَة حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَة يَوْم الْقِيَامَة "، وَفِي مُسْنَد الإِمَام أَحْمَد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُول اللهَّ حَدِّثْنَا عَنْ الجَنَّة مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: " لَبِنَة ذَهَب وَلَبِنَة فِضَّة وَمِلاطهَا الْمِسْك وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤ وَالْيَاقُوت وَتُرَابهَا الزَّعْفَرَان، مَنْ يَدْخُلهَا يَنْعَم لا يَبْأَس، وَيخْلُد لا يَمُوت لا تَبْلَى ثِيَابه وَلا يَفْنَى شَبَابه "، وَعَنْ التِّرْمِذِيّ عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ: "إِنَّ فِي الجَنَّة لَغُرَفًا يُرَى ظَاهِرهَا مِنْ بَاطِنهَا وَبَاطِنهَا مِنْ ظَاهِرهَا "، فَقَامَ أَعْرَابِيّ فَقَالَ يَا رَسُول اللهَّ لمِنْ هِيَ؟ فَقَالَ: " لمِنْ طَيَّبَ الْكَلام، وَأَطْعَمَ الطَّعَام، وَأَدَامَ الصِّيَام، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاس نِيَام " (أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه)، وَعَنْ أُسَامَة بْن زَيْد قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ: "أَلا هَلْ مِنْ مُشَمِّر إلى الجَنَّة؟ فَإِنَّ الجَنَّة لا خطَر لهَا، هِيَ وَرَبّ الْكَعْبَة نُور يَتَلأْلأ، وَرَيحْانَة تهتَزّ، وَقَصْر مَشِيد، وَنهَر مُطَّرِد، وَثَمَرَة نَضِيجَة وَزَوْجَة حَسْنَاء جمَيلَة، وَحُلَل كَثِيرَة، وَمَقَام فِي أَبَد فِي دَار سَلِيمَة، وَفَاكِهَة وَخَضِرَة، وَحَبرَة وَنِعْمَة فِي محَلَّة عَلِيَّة بهِيَّة " قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُول اللهَّ نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لهَا قَالَ: " قُولُوا إِنْ شَاءَ اللهَّ" فَقَالَ الْقَوْم إِنْ شَاءَ اللهَّ، رَوَاهُ اِبْن مَاجَه.

وَقَوْله تَعَالَى "وَرِضْوَان مِنْ اللَّهَ أَكْبَر": أَيْ رِضَا اللَّهَ عَنْهُمْ أَكْبَر وَأَجَلّ وَأَعْظَم مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ النَّعِيم، كَمَا قَالَ الإِمَام مَالِك رَحِمَهُ اللَّهَ عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللَّهَ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُول لأَهْلِ الْجَنَّة يَا أَهْل الْجَنَّة فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْك وَالْخَيْر فِي يَدِيك، فَيَقُول هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبّ وَقَدْ أَعْطَيْتنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقك، فَيَقُول أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَل مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ يَا رَبّ وَأَيّ شَيْء أَفْضَل مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُول أُحِلّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَط عَلَيْكُمْ بَعْده أَبَدًا". أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث مَالِك، وعَنْ جَابِر بْن عَبْد اللَّهَ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهَ ﷺ: "إِذَا دَخَلَ أَهْل الْجَنَّة الْجَنَّة قَالَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدكُمْ؟ قَالُوا يَا رَبّنَا مَا خَيْر مِمَّا أَعْطَيْتنَا؟ قَالَ رِضْوَانِي أَكْبَر". رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنَده مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ وَقَالَ الْحَافِظ الضِّيَاء الْمَقْدِسِيّ فِي كِتَابه صِفَة الْجَنَّة هَذَا عِنْدِي عَلَى شَرْط الصَّحِيح وَاَللَّهَ أَعْلَم".. انتهى

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ (يونس 26): "أَنَّ رَسُول اللَّهَ ﷺ تَلا هَذِهِ الآيَة " لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة" وَقَالَ: "إِذَا دَخَلَ أَهْل الْجَنَّة الْجَنَّة وَأَهْل النَّار النَّار نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْل الْجَنَّة إِنَّ لَكُمْ عِنْد اللَّهَ مَوْعِدًا يُرِيد أَنْ يُنْجِزكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ وَمَا هُوَ ؟ أَلَمْ يُثْقِل مَوَازِيننَا؟ أَلَمْ يُبَيِّض وُجُوهنَا وَيُدْخِلنَا الْجَنَّة وَيُجِرْنَا مِنْ النَّار؟ - قَالَ - فَيَكْشِف لَهُمْ الْحِجَاب فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَاَللَّهَ مَا أَعْطَاهُمْ اللَّهَ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَر إِلَيْهِ وَلا أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ " رَوَاهُ مُسْلِم وَجَمَاعَة مِنْ الأَئِمَّة".

جعلنا الله ممن أنعم الله عليهم بذلك، وأعظمهم قدرا وأكملهم محلا وفضلا آمين بمنه وكرمه.. إنه أكرم الأكرمين.!

وفي الخوف: اكتفي فقط بإيرد نصين لمدلولهما وللاختصار:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الزمر: 47)

وجاء في الحديث أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، فقد ورد في مسند الإمام أحمد عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ رفعه إلى النبي ﷺ قال: "لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه".

قال ابن القيم رحمه الله: الصبر على الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها:

- إما أن توجب ألماً وعقوبة..
- وإما أن تقطع لذة أكمل منها..
- وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة..
- وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه..
- وإما أن تذهب مالا بقاؤه خير من ذهابه..
- وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه..

- وإما أن تسلب نعمة بقاءها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة..
- وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك..
- وإما أن تجلب هماً وغماً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة..
- وإما أن تنسي علماً ذكره ألذ من نيل الشهوة..
- وإما أن تشمت عدواً وتحزن ولياً..
- وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة..
- وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق.

لذا فإنه إذا دخل الخوف أو الشوق إلى القلب أخرج كل ما فيه من الأغيار، وملئ بالمعارف والأنوار، فحينئذ تخلص الأعمال وتزكو الأحوال، ويقبل عليه ذو العظمة والجلال...

ومن أغرب ما روي في هذا المعنى أن رجلا كان لصا فسأل عابدا: هل له من توبة؟ فاستهزأ به وأخذ عرجونا يابسا وقال له: خذ هذا العرجون، فإذا اخضر فقد صحت توبتك، فأخذه اللص التائب بنية وإخلاصه، وجعل يعبد الله وينظر إليه، فأصبح ذات يوم معسلجا أخضر !.. وتم الفضل وكملت النعمة.. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ (الإسراء: 20).

❁ ❁ ❁

" الرَّجاءُ ما قارَنَه عَمَلٌ، وإلّا فَهُوَ أُمْنِيَةٌ "

الرجاء مقام شريف يبعث على الاجتهاد في الأعمال لأن من رجا شيئا طلبه. فالرجاء: تعلق يصحبه عمل... أما الأمنية: فهي اشتهاء وتمن لا يصحبه عمل، فليس هذا برجاء عند العلماء ولكنه أمنية واغترار بالله تعالى. وقد ذم الله قوما ظنوا مثل هذا وأصروا على حب الدنيا والرضا بها فسماهم خلفا، والخلف الرديء من الناس: قال عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ ﴾ (مريم: 59)

وفي الحديث: "إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه " (صحيح الجامع الصغير)

وملاك ذلك الصدق في الطلب، قال تعالى: ﴿ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ ﴾ (الأنفال: 70)، وملازمة الأعمال: " من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم " (تقدم)

أما الرجاء الذي لا يصاحبه عمل فهو نوع من الأماني التي هي أقرب للأحلام، قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ (النساء: 123).

وقال الرسول ﷺ: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله " (الترمذي وابن ماجة).

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾

(الأعراف: 156) حيث إنه خص المتقين بهذه الرحمة الخاصة، وكذلك تخصيص المغفرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ (طه: 82)، فالعاصي لا يمكن أن يقبل على الله تعالى بالرجاء إلا إذا دخل رحابه من باب التوبة.

۞ ۞ ۞

" لا عَمَلَ أَرْجى لِلْقُبولِ مِنْ عَمَلٍ يَغيبُ عَنْكَ شُهودُهُ ويُتَحْقَرُ عِنْدَك وُجودُهُ."

يعني أنه لا عمل أرجى للقبول من عمل يكون بالله ولله وغائبا فيه عما سواه، وغير ملاحظ فيه حظوظه وهواه، متبرئا فيه من حوله وقواه، فمثل هذا العمل تحيا به القلوب..

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ (المؤمنون: 60).

فالمؤمن يعمل العمل ويخشى ألا يقبل لنقص قد يوجد فيه أو رياء أو سمعه أو غير ذلك... فهو يعمل وهو يرجو فضل الله، وغير معتمد على عمله، وقد قيل إن الطاعة كلما استصغرها العبد كبرت عند الله، وأن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله تعالى.

قال الشيخ ابن مشيش: من دلك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلك على الله فقد نصحك ".

وسبب التعب هو الاعتماد على العمل مع ذكر النفس والاعتناء بشؤونها وحظوظها، وأما من غاب عنها بذكر ربه فلا يلقى إلا الراحة... والمقصود بذلك تفضيل عمل القلب على عمل الجوارح.

وقد ختم الدكتور البوطي شرح هذه الحكمة بهذا الدعاء الطيب: " اللهم إن طاعاتي وقرباتي كلها، هدية هابطة منك إلي، ثم إنها عائدة بتفضل منك إليك، فتقبل اللهم مني ما تفضلت به علي، ولك الشكر على ما مننت به علي، قدرة وعونا وتوفيقا ".

۞ ۞ ۞

" مِنْ عَلاماتِ مَوْتِ القَلْبِ:
عَدَمُ الحُزْنِ عَلَى ما فاتَكَ مِنَ الطاعاتِ ..
وتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى ما فَعَلْتَ مِنَ المعاصي والزَّلّاتِ "

موت القلب أمره خطير، ويرجع لثلاثة أسباب: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح في معصية الله.

وسبب حياته ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله، الذين يذكرونه بالله، ويحثونه على طاعة الله...

وعلامة موته ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فاتك من الطاعات، وترك الندم على ما فعلت من الزلات، وصحبتك للغافلين الأموات.

وفي الأثر: "إذا أردت أن ينفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك، وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه".

وذلك أن صدور الطاعة من العبد عنوان السعادة، والقلب الحي يفرح بما يوجب سعادته، أما القلب الميت فهو لا يحس بشيء قد استوى عنده وجود الطاعة والمعصية، لا يفرح بطاعة ولا يحزن بمعصية، كما هو شأن الميت في الحس، فمن سرته حسناته وساء ته سيئا ته فهو مؤمن كما ورد في الحديث، فقد روى الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: "من عمل حسنة فسر بها، وعمل سيئة فساءته فهو مؤمن".

وكان الاستغفار ديدن رسول الله ﷺ فقد ورد في الحديث أنه كان ﷺ يعد له في المجلس الواحد: "رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم" مائة مرة (أبو داود والترمذي).

وبعد نزول سورة النصر: "إذا جاء نصر الله والفتح..."، كان الرسول ﷺ يكثر من التسبيح والاستغفار... قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "كان الرسول ﷺ يكثر آخر أمره من قول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك (وفي رواية: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه)" (رواه مسلم).

❁ ❁ ❁

وممّا كتب به الشيخ لبعض إخوانه:

وَبَعْدُ فَلا أرى شَيْئًا أَنْفعَ لَكَ مِنْ أُمورٍ أَرْبَعَةٍ:

- الاسْتِسْلامُ إلى الله.
- وَالتَّضَرُّعُ إلَيْهِ.
- وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ.
- وَتَجْديدُ التَّوْبَةِ إلَيْهِ وَلَوْ عُدْتَ إلى الذَّنْبِ في اليَوْمِ سَبْعينَ مَرَّةً.

فَفي الاسْتِسْلام إلَيْهِ الرّاحَةُ مِنْ التَّدْبيرِ مَعَهُ عاجِلاً. وَالظَّفَرُ بِالْمِنَّةِ العُظْمى آجِلاً. وَالسَّلامَةُ مِنَ الشِّرْكِ بِالْمُنازَعَةِ. وَمِنْ أيْنَ لَكَ أنْ تُنازِعَهُ فيما لا تَمْلِكُهُ مَعَهُ؟! وَأَلْقِ نَفْسَكَ في مَمْلَكَتِهِ فَإنَّكَ قَليلٌ في كَثيرِها. وَصَغيرٌ في كَبيرِها، يُدَبِّرُكَ كَما يُدَبِّرُها. فَلا تَخْرُجْ عَمّا هُوَ لَكَ مِنَ العُبودِيَّةِ، إلى ما لَيْسَ لَكَ مِن ادِّعاءِ وَصْفِ الرُّبوبِيَّةِ. فَإنَّ التَّدْبيرَ وَالاخْتِيارَ مِنْ كَبائِرِ القُلوبِ وَالأَسْرارِ. وَتَجِدُ ذلِكَ في كِتابِ الله تَعالى، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (القصص: 68).

وَأَمَّا التَّضَرُّعُ إلى الله تَعالى فَفيهِ نُزولُ الزَّوائِدِ، وَرَفْعُ الشَّدائِدِ، وَالانْطِواءِ في أَرْدِيَةِ المِنَنِ، وَالسَّلامَةَ مِنْ المِحَنِ. فَتُعَوَّضُ جَزاءَ ذلِكَ أَنْ يَتَوَلّى مَوْلاكَ الدَّفْعَ عَنْ نَفْسِكَ في المَضارِّ، وَالجَلْبَ لَكَ في المَسارِّ. وَهُوَ البابُ الأعْظَمُ، وَالسَّبيلُ الأَقْوَمُ. يُؤَثِّرُ مَعَ الكُفْرانِ، فَكَيْفَ لا يُؤَثِّرُ مَعَ الإيمانِ، ! أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء: 67). أَيْ: فَأَجابَكُمْ، وَهُوَ البابُ الَّذي جَعَلَهُ

اللهُ تعالى بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبادِهِ. تَرِدُ وارِداتُ الألْطافِ عَلى مَنْ تَوَجَّهَ إلَيْهِ. وَتَتَوالى المِنَنُ عَلى مَنْ وَقَفَ بِهِ عَلَيْهِ. وَيصْلُ إلى حَقيقَةِ العِنايَةِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُ إلَيْهِ. وَمَتى فَتَحَ عَلَيْكَ بِهِ فَتَحَ عَلَيْكَ مِنْ كُلِّ خَيْراتِهِ، وَأوْسَعَ هِباتِهِ. وَتَجِدُ ذلِكَ في كِتابِ اللهِ تَعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ (الأنعام: 43).

وَأمّا حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ فَبَخٍ بَخٍ بِمَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِها. فَمَنْ وَجَدَها لَمْ يَفْقِدْ مِنَ الخَيْرِ شَيْئاً، وَمَنْ فَقَدَها لَمْ يَجِدْ مِنْهُ شَيْئاً. لا تَجِدُ لَكَ عُذْراً عِنْدَ اللهِ أنْفَعَ لَكَ مِنْها، وَلا أجْدى. وَلا تَجْدُ أدَلَّ عَلى اللهِ مِنْها، وَلا أهْدى. تُعَلِّمُكَ عَنِ اللهِ بِما يُريدُ أنْ يَصْنَعَهُ مَعَكَ. وَتُبَشِّرُكَ بِبَشائِرَ لا تَقْرَأُ سُطورَها العَيْنانِ. وَلا يُتَرْجِمُ عَنْها اللِّسانُ. وَتَجْدُ ذلِكَ في سُنَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ حاكِيا عَنِ اللهِ: "أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بِي".

وَأمّا تَجْديدُ التَّوْبَةِ إلَيْهِ، فَهِيَ عَيْنُ كُلِّ رُتْبَةٍ وَمَقامٍ، أوَّلِهِ وَآخِرِهِ، باطِنِهِ وَظاهِرِهِ. لا مَزِيَّةَ لِمَنْ فَقَدَها، وَلا فَقْدَ لِمَنْ وَجَدَها. مِفْتاحُ كُلِّ خَيْرٍ، ظاهِرٍ وَباطِنٍ. رُوحُ المَقاماتِ وَسَبَبُ الوِلاياتِ. وَلَوِ اسْتَوَتْ تَوْبَةُ القُطْبِ وَالصّالِحِ لاسْتِواءِ مَقامِهِما لَمْ يَرْتَفِعْ عَنْهُ رَفيعُ المَقامِ لِرِفْعَةِ شَأنِهِ، وَلِعَظيمِ إيْقانِهِ. لَمْ يَجْعَلِ الحَقُّ سُبْحانَهُ وَتَعالى رُتْبَةً دونَها، إلّا الظُّلْمَ، فَقالَ سُبْحانَهُ وَتَعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ (الحجرات: 11).

فَهِيَ مَطْلوبَةٌ مِنْ كُلِّ رَسولٍ وَنَبِيٍّ، وَصِدّيقٍ وَوَلِيٍّ، وَبارٍّ تَقِيٍّ، وَفاجِرٍ غَوِيٍّ، وَكافِرٍ شَقِيٍّ. وَتَجْدُ ذلِكَ في كِتابِ اللهِ تَعالى، قالَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (النساء: 1). فَتَقْواهُ بِالتَّوْبَةِ إلَيْهِ، وَالنَّدَمِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَأَهْلُ الشُّرورِ تَوْبَتُهُمْ بِالخُروجِ مِنْ شُرورِهِمْ، وَأَهْلُ الخُيورِ تَوْبَتُهُمْ بِعَدَمِ الوُقوفِ مَعَ خُيورِهِمْ، وِرْداً كانَتْ أَوْ وارِداً، كِلاهُما مَعَ عَدَمِ الوُقوفِ مَعَهُما واحِدٌ. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الحج: 78). وإنَّ مِنْ مِلَةِ إِبْراهيمَ عَدَمَ الوُقوفِ مَعَ الفَانِياتِ، وَالانْقِطاعَ عَنْ نَظَرِ الكائِناتِ. قالَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى مُخْبِراً عَنْهُ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ٧٦﴾ (الأنعام:76).

وَبِالجُمْلَةِ، مَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ القَليلُ، لَمْ يَنْفَعْهُ الكَثيرُ. وَمَنْ لَمْ تَنْفَعْهُ الإِشارَةُ، لَمْ تَنْفَعْ فيهِ العِبارَةُ. وَإِذا أَفْهَمَكَ اللهُ، لَمْ يَنْقَطِعْ سَماعُكَ، وَلَمْ يَتَحَيَّنِ انْتِفاعُكَ.

فَهَّمَنا اللهُ وَإِيَّاكَ عَنْهُ، وَأَسْمَعَنا وَإِيَّاكَ مِنْهُ، وَقَطَعَنا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِواهُ، وَأَدْخَلَنا في كَنَفِهِ وَحِماهُ، وَجَعَلَنا مِمَّنْ بَصَّرَهُ وَهَداهُ، وَإِلى كَنَفِهِ آواهُ، وَلا شَتَّتَ قُلوبَنا، وَجَمَعَ عَلَيْهِ هُمومَنا، وَأَزالَ بِالوُصولِ كُروبَنا، آمينَ.

وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلى سَيِّدِ المُرْسَلينَ.

❁ ❁ ❁

صفحة بيضاء - تترك فارغة

الفصل الثامن

في الحذر من الشيطان

" إذا عَلِمْتَ أنَّ الشَّيْطانَ لا يَغْفُلُ عَنْكَ..
فَلا تَغْفُلْ أنْتَ عَمَّنْ ناصِيَتُكَ بِيَدِهِ "

قال الإمام أبو حامد الغزالي في "إحياء علوم الدين" (بتصرف):

"الخواطر التي ترد على القلب تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر، أعني إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير، أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة. فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهاما والخاطر المذموم، أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواسا، ولما كانت هذه الخواطر حادثة كان لابد لها من محدث، وهذا من سنة الله في ترتيب المسببات على الأسباب، فإذا استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة.. وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى

توفيقا، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا، والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق، والوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه الله وسخره لذلك، والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء، والتخويف عند الهم بالخير، فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: "وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ" فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الحق، الخالق للأزواج كلها... فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك، وقد قال الرسول ﷺ: "إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان، فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك؛ فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: " الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا " (رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه)، ومن تفسير ذلك الحديث:

(لمة): بفتح اللام وشدة الميم من الإلمام ومعناه النزول والقرب والإصابة، والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك. (من وجد) أي في نفسه أو أدرك وعرف، (ذلك): أي لمة الملك، (فليعلم أنه من الله): أي منة جسيمة ونعمة عظيمة واصلة إليه ونازلة عليه إذ أمر الملك بأن يلهمه، (فليحمد الله): أي على هذه النعمة الجليلة حيث أهله لهداية الملك ودلالته على ذلك الخير.

ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة.. والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويتمكن، ويكون اجتياز الثاني اختلاسا.. فالمتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى إنما يطوف عليهم الشيطان في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف: 201).

وفي معنى قوله تعالى: " من شر الوسواس الخناس "، جاء في الحديث الذي رواه أنس عن الرسول ﷺ: "إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس، وإن نسي الله تعالى التقم قلبه" (أخرجه ابن أبي الدنيا).

وعداوة الشيطان للإنسان شديدة، وهي دائمة منذ أن خلق الله أبونا آدم عليه السلام، وحتى تقوم الساعة.. روي أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له: "يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما، وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربي أن يتوب علي، فقال موسى: نعم، فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه: أد الأمانة، فقال موسى: يارب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه، فأوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى قد قضيت حاجتك، مره أن يسجد لقبر آدم حتى

يتاب عليه، فلقي موسى إبليس فقال له: قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك، فغضب واستكبر وقال: لم أسجد له حيا، أسجد له ميتا؟ ثم قال له: يا موسى إن لك علي حقا بما شفعت لي إلى ربك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن: اذكرني حين تغضب فإن روحي في قلبك وعيني في عينك وأجري منك مجرى الدم، اذكرني إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت في أنفه فما يدري ما يصنع، واذكرني حين تلقى الزحف فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولي، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك "، فقد أشار بهذا إلى الغضب والحرص والشهوة... ومن أبوابه العظيمة أيضا الطمع والعجلة والحسد وغير ذلك من آفات الطباع ".. انتهى

فإذا علمت أيها الإنسان أن الشيطان لا يغفل عنك ساعة، فإنك إن غفلت عن ذكر الله وسوس، وإذا ذكرت الله انخنس، إذا علمت ذلك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك وناصيته بيده، وهو الحق تعالى، فإذا شغلت بالله رده عنك وكفاك أمره..

قال تعالى: ﴿ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: 76)

وقد حذر الله تعالى منه في كتابه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: 6)

الشيطانُ لا يفتر في عداوتك، فلا تَغْفَلْ أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوُّك؛ فإنه أبداً متمكِّنٌ منك.

{ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ } وحِزْبه هم المُعرِضون عن الله، المشتغلون بغير الله، والغافلون عن الله. ودليلُ هذا الخطاب: إن الشيطانَ عدوُّكم فأبغضوه واتخذوه عدواً، وأنا وَلِيُّكُم. وحبيبُكم فأَحِبُّوني وارْضَوْا بي حبيباً. وقيل: الشيطان كلب، إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب، وإن رجعت إلى ربك صرفه عنك برفق..

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ﴾ (الأعراف: 27).. فإن كان هو يرانا من حيث لا نراه، فإن الله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه...

وقال الشيخ زروق: وإنما يندفع الشيطان بالتوكل والإيمان، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ ﴾ (النحل: 99)

وقال أحدهم: انشغالك بالله يكفيك همه، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ (الحجر: 42)

قال ابن عجيبة: اعلم أن الحق تعالى جعل بحكمته الشيطان والنفس والناس، قطاعا للطريق إلى الله، فلا يصل حتى يخلص منهم ويجوز عنهم، فإذا جاء من يريد الوصول تعرض له الخلق فيعيبون له الطريق (الطريق إلى الله)، فإذا غلبهم جاءه الشيطان يخوفه من الفقر ويزين له، فإذا غلبه تعرضت له النفس تقول له: كيف تترك دنياك وجاهك وعزك؟ فإذا غلبها انتصر ووصل..

لذلك قالوا: والله ما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع...

والاشتغال بالله كما يرد شياطين الجن فانه يرد أيضا شياطين الإنس، فعلى من يشكو من إيذاء الخلق أن يرجع إلى الله فيكفيه أمرهم ويردهم عنه.

والحاصل أن النفس والشيطان والدنيا والناس، قواطع لمن قطعوا به الطريق، موصلات للحضرة لمن جاهدهم وسبق له من الله التوفيق، والنفس أصعب من الشيطان لأنه عدو متصل وأنت به شفيق، فهي أقبح من سبعين شيطانا في قطع الطريق...

الفصل التاسع

في الذكر والصلاة

" لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضورِكَ مَعَ اللهِ فيهِ ، لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ. فَعَسى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلَةٍ إِلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ إِلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ إِلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَيْبَةٍ عَمّا سِوى المَذْكورِ، {وَما ذَلِكَ عَلى اللَّهِ بِعَزيزٍ} "

الذكر ركن مهم في طريق القوم وهو أفضل الأعمال، وتأمل هذه الآيات: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: 28)، ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة: 152)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأنفال: 45)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (الأحزاب: 41-42).

والذكر الكثير: أن لا ننساه أبدا... قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل عبادة فرضها الله تعالى جعل لها وقتا مخصوصا، وعذر العباد في غير أوقاتها إلا الذكر، لم يجعل الله له وقتا مخصوصا.. وفي فضله قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بخير

أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا بلى، قال ذكر الله تعالى (صحيح الترمذي)، وأفضل الذكر قراءة القرآن..

فلا مدخل على الله إلا من باب الذكر، فالواجب على العبد أن يستغرق فيه أوقاته، ويبذل فيه جهده، ولا يترك الذكر باللسان لعدم حضور قلبه فيه، بل يذكره بلسانه ولو كان غافلا بقلبه، فإن غفلتك عن ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، لأن غفلتك عن ذكره إعراض عنه بالكلية، وفي شغل اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله، وفي فقده تعرض لاشتغالها بالمعصية. فيلزم الإنسان ذكر اللسان حتى يفتح الله له في ذكر الجنان، فعسى أن ينقلك الحق تعالى من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع يقظة إلى ذكر مع حضور، حتى يطمئن القلب بذكر الله ويكون حاضرا بقلبه مع دوام ذكره، فإن دمت على الذكر مع الحضور، رفعك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور، لما يغمر قلبك من النور. قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ ﴾ (المزمل: 8)، قال ابن كثير: أي أكثر من ذكره وانقطع إليه جل وعلا، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، مع إخلاص العبادة له، وقال الرسول ﷺ: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت" (البخاري).

قال سعيد حوى في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:28)، أي أنه لا طريق لطمأنينة القلب إلا بالذكر، وطمأنينة القلب فيها النجاة عند الله: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ ﴾ (الفجر: 28-27)، فإذا قام الإنسان بالأوراد وبقي في قلبه كدورات، فعليه أن يفتش عن مصروفات تصرف بها هذه الأكدار، فقد يكون هناك وصف يجب أن يتخلص منه ككثرة مخالطة للكفار، فالمخالطة لها أثر شديد، فإن الإنسان الذي يعيش في المسجد مع أهل الذكر تمتص روحه من حالهم، ويبقى قلبه منشرحا. والشيطان متى وجد غافلا حاول التقام قلبه: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ ﴾ (الزخرف: 36) .

وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى، ومن أشرفها المعية مع الله، ولو لم يرد فيه إلا قوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة:152)، وكذلك قوله عز وجل فيما يرويه عنه رسول الله ﷺ: " أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة " (صحيح البخاري)... لكان في ذلك اكتفاء وغنية.

وهو من النوافل التي توصل إلى محبة الله تعالى: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه " (صحيح البخاري).

والذكر مفتاح للفرج، فقد ورد في الحديث: "من أكثر من الاستغفار

جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب" (سنن ابن ماجة)

ويقول ابن تيمية: "إن المسألة لتغلق علي، فأستغفر الله ألف مرة أو أكثر أو أقل، فيفتحها الله علي".

كما أنه أيضا يقي من عذاب الله: إذ "ما عمل آدمي عملا قط، أنجى له من عذاب الله من ذكر الله "، كما قال الرسول ﷺ (مسند أحمد)..

❁ ❁ ❁

"قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوارُهُمْ أَذْكارَهُمْ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكارُهُمْ أَنْوارَهُمْ، وَقَوْمٌ تَتَساوى أَذْكارُهُمْ وَأَنْوارُهُمْ، وَقَوْمٌ لا أَذْكارَ وَلا أَنْوارَ.. نَعوذُ بِاللهِ مِنْ ذلِكَ...
ذاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنيرَ قَلْبُهُ فَكانَ ذاكِراً، وَذاكِرٌ اسْتَنارَ قَلْبُهُ فَكانَ ذاكِراً، وَالَّذي اسْتَوَتْ أَذْكارُهُ وَأَنْوارُهُ فَبِذِكْرِهِ يُهْتَدى وَبِنورِهِ يُقْتَدى"

أعظم الأعمال التي توجد ثمرتها عاجلا وآجلا هو ذكر الله، وثمرته هو النور الذي يشرق في القلب فيضمحل به كل باطل، وليس كالذكر في كثرة البركات والآثار والأنوار...

والناس بالنسبة للذكر على أنواع: فمنهم من يراقبون الله قبل بدء الذكر ثم يذكرون فهؤلاء تسبق أنوارهم أذكارهم، ومنهم من يبدءون الذكر ثم يستشعرون صفات الله فهؤلاء تسبق أذكارهم أنوارهم، وهم معظم السالكين: ﴿ وَٱلَّذِينَ

جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: 69)

وناس لا أذكار ولا أنوار لهم وهذا حال أهل الغفلة نعوذ بالله من ذلك، والنوع الرابع هم من يذكرون ليحافظوا على أنوار قلوبهم وهم أهل القدوة والإرشاد.

❁ ❁ ❁

"أكْرَمَكَ اللهُ بِكرامات ثلاث: جَعَلَكَ ذاكراً لَهُ، وَلَوْلا فضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أهْلاً لِجَرَيانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكوراً بِهِ، إذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكوراً عِنْدَهُ فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ"

مما تقدم يتبين أن الذكر من أكبر نعم الله على الإنسان: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (النحل: 18)، بل من أجل الكرامات وأعظمها... وفي الأثر: "ما من يوم إلا ولله فيه نعم ينعم بها على عباده، وما أنعم الله على عبد أفضل من أن يلهمه ذكره".

ومرجع هذه الكرامات إلى ثلاثة أمور:

- الكرامة الأولى: جعلك ذاكرا له، ولولا فضله عليك لم تكن أهلا لجريان ذكره على لسانك.
- الكرامة الثانية: أنك بالذكر تنسب للمذكور، فيقال: ذاكر لله، ولا شئ أعظم من هذه النسبة.

- الكرامة الثالثة: جعلك مذكورا عنده، قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ (البقرة:152)، فأي كرامة أعظم من هذه ؟!..

وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ (العنكبوت: 45)، أي ولذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لله. وفي الحديث القدسي الذي تقدم: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" (صحيح البخاري).

وفي حديث آخر: "ما جلس قوم يذكرون الله، إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده" (مسند الإمام أحمد)، وكان يحيى بن معاذ يقول: " يا غفول يا جهول، لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لمت طربا ".

❁ ❁ ❁

" لِيَكونَ هَمُّكَ إقامَةَ الصَّلاةِ، لا وُجودَ الصَّلاةِ، فَما كُلُّ مُصَلٍّ مُقيمٌ"

الإقامة في اللغة: الإكمال والإتقان، والسر في تحجير الصلاة في بعض الأوقات (حصرها في أوقات معينة)، هو أن تشتاق النفس إليها وترتاح بها، فيحصل فيها الخشوع والحضور وقرة العين، بخلاف ما إذا كانت دائمة، فلا

تتعشق إليها، بل ربما تمل فتوقعها على غير تمام. وإقامة الصلاة هو إتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة لأن المقصود منك حركة قلبك لا حركة جسمك، ورد في الحديث: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم " (مسلم)، فليس الشأن حركة الأشباح، إنما الشأن خضوع الأرواح، وورد في الأثر: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بعدا".

وليس للعبد في صلاته إلا ما حضر فيها قلبه، فقد يكون له ربع صلاته أو نصفها.. بقدر ما حضر فيها...

ويعين على الخشوع في الصلاة الزهد في الدنيا، وهذا هو الدواء الناجح، فلا يتأتى الخلوص من الخواطر ما دامت الدنيا في القلب.

ومما يعين على الخشوع أيضا الإكثار من ذكر الله بالقلب والقالب...

ومن حفظ الصلاة وحافظ عليها فهو لما سواها أحفظ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ثم ذكر الشيخ نتائج الصلاة وثمراتها، ومرجعها إلى ست، كل واحدة توصل إلى ما بعدها، فأشار إلى الأولى بقوله:

الصَّلاة طهْرَة لِلقلوبِ مِنْ أدناسِ الذُنوبِ

إن الإنسان من خلال تقلبه في الدنيا قد يتعرض لكثير من المعاصي التي يحتاج إلى أن يتطهر منها أولا بأول، فجاءت الصلوات الخمس تنقي من الذنوب،

وتجدد الإيمان في القلوب، ففي الحديث "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شئ؟ قالوا لا يبقى من درنه شئ، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا" (البخاري ومسلم).

وفي رواية: "إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب يمر بباب أحدكم، يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك، أيبقى من درنه شيئا؟".

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): إن الصلاة في حقيقتها ليست أكثر من استضافة الله للعبد إلى رحابه، فإذا أقبل العبد مستجيبا لضيافة الله، ودخل إلى رحابه ووقف في حضرته، يحمده ويثني عليه بما هو أهله سبحانه، ويدعوه رغبا ورهبا، لباه الله عز وجل، وحباه بما يكرم به الكريم أضيافه، وهل في المكرمات الإلهية لعباده أفضل من أن يكرم وفودهم إليه بالعفو والغفران، والود والرضوان، والحفظ والإحسان؟"!!

قال ابن عجيبة: وإنما كانت الصلاة طهرة للقلوب من المساوئ والعيوب لما فيها من الخضوع والانكسار والذل والافتقار والتذلل والاضطرار، وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها ازدحاما، فأتيت باب الذل والانكسار فوجدته خاليا، فدخلت منه وقلت هلموا إلى ربكم.

والنتيجة الثانية:

واستفتاح لباب الغيوب

إذا أقبل العبد على الله في صلاته، فقد يكرمه ربه بتجليات ربانية تكشف له عن غيوب لم يكن يعلمها، ويبصره بإلهامات لم يكن له من سبيل إليها، لأن

القلوب إذا طهرت وتزكت رفع عنها الحجب والأستار، فرأت ما غاب عنها من الأسرار...

الصلاة محل المناجاة

وهي النتيجة الثالثة. المناجاة هي المساررة والمكالمة مع الأحباب، فمناجاة العبد ربه: بالتلاوة والأذكار، ومناجاة الرب لعبده: بالتفهيم، والفتح، وشروق الأنوار.

وفي الحديث: "إن المصلي يناجي ربه، فلينظر بم يناجيه" (صحيح الجامع الصغير)، وفي الحديث الآخر: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل... " الحديث (رواه مسلم).

فلا يزال المصلي يناجي ربه ويطلب قربه حتى تتمكن المحبة من القلب والإقبال من الرب، وتأمل قيام الليل ونعيمه.

ومعدن المصافاة

وهي النتيجة الرابعة، والمصافاة: خلوص المناجاة من تشويش الحس وكدر الهواجس، فهي أرق وأصفى من المناجاة.. التي هي مصافاة العبد لربه... ومصافاة الرب لعبده بالإقبال عليه حتى لا يدعه لغيره...

يقول الدكتور البوطي: "إن كلمة مصافاة مأخوذة من "تصفية"، وتستعمل عادة في التعبير عن تصفية حساب بين اثنين، فكأن العبد في صلاته يطلب من الله أن يتجاوز عن سيئاته، معلنا توبته عنها، فيستجيب الله طلبه، ويصفح عنه،

ويمحو ما قد ثبتته الملائكة على صحائفه من سيئات".

وفي الخبر "إن العبد إذا قام للصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وإن المصلي لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه منادي "لو يعلم المناجي من يناجي ما انفتل (أي ما خرج من صلاته) وإن أبواب السماء تفتح للمصلي، وإن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين".

تتسع فيها ميادين الأسرار

وهي النتيجة الخامسة.. فإذا تمت التصفية وعظمت المحبة، استحقت الروح رفع الحجاب وفتح الباب، فتدخل إلى حضرة الأحباب، وتخرج من ضيق الأشباح، إلى فضاء عالم الأرواح.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "في الصلاة يتجلى الله على عبده، أي على قلبه ومشاعره الروحية، باللطف والرحمة والقبول، فينجذب القلب بذلك إلى الله، وعندئذ تتنزل من الأسرار العلوية ما لايعلمه إلا الله على قلب المصلي، وتفيض مشاعره بأنوار التجليات الإلهية، المتمثلة في الخشوع والمهابة والتعظيم والحب... وسر خصوصية الصلاة، أنها في جملتها ليست إلا دخولا في حضرة الله عز وجل، واستضافة من الله لعبده.. فإذا سلم من صلاته فقد خرج من حضرة الله، وانتهت استضافة الله له.. ويبقى بعد ذلك ذكر العبد لله، وحضور قلبه معه، والذي يجب أن يحرص عليه في كل أحواله وتقلباته المعاشية "

وتشرق فيها شوارق الأنوار

وهي النتيجة السادسة.. فيكون في قلبك نور على نور..

ولما كانت هذه الأحوال التي ذكرها المؤلف رحمه الله من فوائد الصلاة، وأن المقصود منها إنما هو تحصيلها، كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به إنما هو إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فإن الصلاة المعتبرة إنما هي صلاة الخاشعين لا صلاة الغافلين، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (طه: 14)، فأخبر سبحانه أن المراد من الصلاة الذكر...

وقد ورد في الأثر: "إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله ".

وقد روي أنه جاء في التوراة: "يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا.. فأنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري ".

وكانوا يرون أن تلك الرقة والبكاء، وذلك الفتوح الذي يجده المصلي في قلبه، إنما هو من دنو الرب من القلب.

قال أبو طالب المكي: " حدثت أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين في أقطار الأرض خوفا منه، لأنه تأهب للدخول على الملك، فإذا كبر حجب عنه إبليس، وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه الكريم... فإذا قال الله أكبر، اطلع الملك على قلبه، فإذا كان ليس في قلبه أكبر من الله، فيقول الملك: صدقت: الله أكبر في قلبك كما تقول، قال: فيتشعشع

من قلبه نور يلحق بملكوت العرش، فينكشف له بذلك النور ملكوت السماوات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات، قال: وإن الغافل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين (حوطوه واجتمعوا عليه) كما يحتوش الذباب نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الملك على قلبه، فإذا كل شئ في قلبه أكبر من الله عنده، فيقول الملك كذبت، ليس الله أكبر في قلبك كما تقول، فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت، فيرد ذلك الحجاب صلاته، وتلتقم الشياطين قلبه فلا تزال تنفخ فيه وتنفث وتوسوس إليه، وتزين له، حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه ".

❁ ❁ ❁

" عَلِمَ وُجودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أعْدادَها "

فهي خمس بعد أن كانت خمسين:

صلاة في أول نهاره: شكرا لما أظهره لك من باهر أنواره، وللنهوض إليه في أول قيامك، وجعل صلاة في وسط نهاره: إخمادا عنك لما أظهره في ذلك الوقت من وقود ناره.، وجعل عليك صلاة قرب انصراف النهار ليكون شاهدا لك بوجود طاعتك عند الملك الغفار، ولتشهد عليك ملائكة الرحمن بالصلاة عند الملك الديان... (ملائكة النهار والليل يجتمعون في صلاة العصر والفجر)، وأوجب عليك صلاة في أول زمان الليل استفتاحا لذلك الزمان بوجود طاعتك كما استفتحت أول نهارك، واستحفاظا لما يتوقع من عجائب

الليل، ثم إذا أردت أن تنام.. أمرك أن تودعه بحضورك معه، وأن يكون آخر عهدك به وجود طاعتك.

۞ ۞ ۞

"وَعلِمَ احْتِياجَكَ إلى فَضْلِه فكَثَّرَ أمدادَها"

المراد بالأمداد: الجزاء الذي رتب عليها، فجعل كل صلاة بعشر، فهي خمس ولكنها خمسون في المثوبة والأجر، وفي الجماعة كل واحدة بخمس وعشرين، أو سبع وعشرين درجة، وكل درجة بعشر: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (البقرة: 105)"، ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ (السجدة: 17).

وتتفاوت أيضا بقدر البقاع: كبيت الله الحرام (قدر مائة ألف صلاة)، والمسجد النبوي (بألف صلاة)، وبيت المقدس (قدر خمسمائة صلاة).

وبقدر رتبة الإمام، فقد ورد في الأثر: " من صلى خلف مغفور، غفر الله له "، والله تعالى أعلم.

وقد كانت الصلاة آخر ما ودع به الرسول ﷺ أصحابه، ففي صلاة فجر يوم الإثنين الذي قبض فيه، " رفع النبي ﷺ الستر المضروب على منزل عائشة، وبرز للناس، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم ابتهاجا برؤيته، وتفرجوا يفسحون له مكانا فأشار بيده: أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسم فرحا من هيئتهم

في صلاتهم، قال أنس بن مالك: ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة" (صحيح البخاري).. فكانت الصلاة هي آخر عهده ﷺ بأمته وحتى يستقبلهم على حوضه المورود يوم القيامة.

۞ ۞ ۞

رسالة من الشيخ في الصلاة:

لَمّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِه صَلَواتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْه: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ) هَلْ ذلكَ خَاصٌ بِالنَّبيِّ ﷺ أَمْ لِغَيْرِه مِنْه مَشْرَبٌ وَنَصيبٌ؟.
أَجاب: إنّ قُرَّةَ العَينِ بالشُّهودِ على قَدْرِ المَعْرِفَةِ بِالمَشْهود

قرة العين كناية عن شدة الفرح، لأن بكاء الفرح دمعه بارد، والقر: بالضم هو البرد، ويقال في الدعاء: أقر الله عينك: أي أفرحك حتى تبرد عينك بدموع الفرح!

قال أبو عبد الله النفري: الصلاة هي أجل ما يتحف الله تعالى به عباده، ويهديه إليهم، ففيها يحصل لهم الخلوة معه، والانفراد والمجالسة له، والانقطاع إليه، وفيها يرتفع عن قلوبهم الحجب والأستار، ويتجلى فيها حقائق الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار، وفيها تكون المناجاة والمصافاة، وهي صلة بين العبد وربه عز وجل...

وقال محمد بن علي الترمذي: "الصلاة عماد الدين، وأول شئ فرضه الله على المسلمين، وفي الصلاة إقبال الله على العبد ليقبلوا عليه في صورة العبيد

تذللا وتسليما، وتبتلا وتخضعا وترغيبا وتملقا، فالوقوف تذلل، والتكبير تسليم، والثناء والتلاوة تبتل، والركوع تخضع، والسجود تخشع، والجلوس ترغب، والتشهد تملق، فأقبل العبيد إلى الله بهذه الصورة ليقبل الله عليهم بالترحم والتعطف والتقبل والتكرم والتقرب، فليس شئ من أمر الدنيا أعظم من هذه، وجاء في الحديث: " الصلاة نور "، وأصل الحديث: "إسباغ الوضوء شطر الإيمان و الحمد لله تملأ الميزان و التسبيح و التكبير يملأ السموات و الأرض، و الصلاة نور و الزكاة برهان و الصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" (صحيح الجامع).

وقد ورد أن الله لا يزال مقبلا بوجهه على العبد مادام في صلاته، جاء في الحديث: "وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت" (رواه أحمد والترمذي - قال ابن القيم: الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان: أحدهما: التفات القلب عن الله عز وجل إلى غير الله تعالى، والثاني: التفات البصر، وكلاهما منهي عنه)، ولأجل هذه الفوائد كانت الصلاة مفزع ذوي الفاقات والضرورات من أرباب القلوب، فيغنيهم وجودها عن كل مرغوب، ويتسلون بها عن كل محبوب، قال تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ ﴾ (طه: 132)، فواجب إذن أن تكون قرة أعين عباد الله فيها وبها...

وخلاصة كلام الشيخ في رده على السؤال أن قرة العين في الصلاة متفاوتة

على قدر التفاوت في المعرفة والشهود، والمعرفة على قدر التخلية (من الصفات الذميمة)، والتحلية (بالصفات الحميدة)، فمعرفته عليه الصلاة والسلام لا يوازيها معرفة، وشهوده عليه الصلاة والسلام لا يقرب منه شهود، ولا شك أن لورثته عليه الصلاة والسلام قسطا ونصيبا من قرة العين، على قدر صفاء مشربهم وتفرغ قلوبهم وأسرارهم، فالعلماء ورثة الأنبياء، فمن جملة ما ورثوه قسط من قرة العين في الصلاة، ولذلك كانوا يغيبون فيها، ويجدون من النعيم واللذة فيها ما تعجز عنه العبارة، وقد كان منهم من يقطع الليل كله في ركعة، ويختم القرآن في ثلاث ليالي، فلولا ما كانوا يجدون من حلاوة المناجاة مادامت لهم تلك الحالة، ويفهم هذا من قول الشيخ في الجواب " إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود"... فأتى بعبارة عامة تصدق بكل من له نصيب من الشهود، لكن قرة عين الرسول ﷺ لا يوازيها قرة عين أحد، وكذلك الأنبياء عليهم السلام بعد النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

" فَالرَّسولُ ﷺ لَيْسَ مَعْرِفَةُ غَيْرِهِ كَمَعْرِفَتِهِ ، فَلَيْسَ قُرَّةُ عَيْنٍ كَقُرَّةِ عَيْنِهِ "

قال الشيخ الحضرمي بعد كلام ذكره عن الرسول عليه الصلاة والسلام: كان كل حرف من كلماته يوازي الجم الغفير، وكل قطرة من فيض بحره توازي البحر الزاخر الكبير، وأعظم من ذلك بألف ألف نقير وقطمير... فتحصل أن مقامه عليه الصلاة والسلام في العرفان لا يوازيه مقام، وكذلك

قرة عينه عليه الصلاة والسلام لا ينالها غيره من الأنبياء والأولياء، و إنما يكون لهم من ذلك شرب ونصيب على قدر شهودهم ومعرفتهم...

قال ﷺ: " اعبد الله كأنك تراه "، وَمُحالٌ أَنْ تراهُ وتَشْهَدَ مَعَهُ سِواهُ..

أي مقام الإحسان، إذ به تحصل قرة العين، وورد في حديث معاذ بن جبل: "قلت يا رسول الله أوصني، قال: اعبد الله كأنك تراه، وأعدد نفسك في الموتى، واذكر الله عند كل حجر، وعند كل شجر، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها، السر بالسر، والعلانية بالعلانية " رواه الطبراني.

ومن كان يعبد الله كأنه يراه، فلا يمكن أن يلتفت إلى رؤية ما سواه، فلا وجود إلا لواجب الوجود، وما سواه إلا ظلال أو خيال... عند التحقيق مفقود...

فلا شك أن معنى قرة العين يتحقق فيمن هذا وصفه: فان عن نفسه، باق بربه... وعند فقدان العبد لحديث نفسه ووسوسة عدوه في صلاته، يحصل له غاية النعيم واللذة، بخلاف من لم ينقطع عن حديث النفس ولا وسوسة الشيطان، فإنه يحتاج إلى مجاهدة ومدافعة فيتشوش نعيمه، وتتكدر لذته، فيضعف معنى قرة العين في حقه...

قال الشيخ المهدوي: وقرة العين لا تكون لمجاهد، ولا لمن يدفع الشيطان عنه، بل هي لمن استراح من المجاهدة والدفع، والله أعلم.

في ذكر الحديث الذي أشار إليه الشيخ وما يتعلق به (الثلاثيات المباركة):

روي: "أن جابر بن عبد الله صنع طعاما لرسول الله ﷺ، فاجتمع هو ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فتذاكروا في الطاعة لله ورسوله، إلى أن قال أبو بكر: إنما حبب إلي من الدنيا يا رسول الله ثلاث: إنفاق مالي عليك، والجلوس بين يديك، وكثرة الصلاة عليك، وقال عمر: وأنا حبب إلي من الدنيا ثلاث: إكرام الضيف، والصيام في الصيف، والضرب بين يدي رسول الله ﷺ بالسيف، وقال عثمان: حبب إلى من الدنيا ثلاث: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام، وقال علي مثل ذلك، فقال لهم رسول الله ﷺ: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة (إسناده حسن: أحمد، من حديث أنس، دون بقية الحديث)، فنزل جبريل فقال: وأنا حبب إلى من الدنيا ثلاث: تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وعيادة المرضى، ثم غاب وظهر وقال: يا رسول الله، ورب العزة يقول: وأنا حبب إلي من الدنيا ثلاث: لسان ذاكر، وقلب شاكر، وجسم على البلاء صابر." ذكره الشطيبي، والله أعلم بصحته، غير أنه كلام صحيح في نفسه، والحكمة في النساء الترغيب في كثرة التناكح، ليكثر النسل بمن يعمر هذا العالم.

❁ ❁ ❁

فائدة في خواطر الصلاة:

ذكر أبو طالب المكي في قوت القلوب:

"وما ذكر به العبد في الصلاة من الخير فليسارع إلى فعله فذلك من أحبّ الأشياء إلى الله تعالى لأنه أذكره إياها في أحبّ المواطن إليه، وما ذكر به من المكروه والممقوت إليه من المعتاد والمستأنف فليجتنبه؛ فإنه هو الذي يبعده من قرب الله سبحانه وتعالى، وتذكيره إياه في محل القرب، توبيخاً له وتقريراً، وقد يكون عتباً وتنبيهاً، فترك ذلك مما يقرب إلى الله تعالى، ويدل على حسن الاستجابة له؛ وهو مسلك طريقه إلى الله تعالى وما خطر به من خاطر تمنٍّ أو هوى أو ذكر بهمة ما يأتي أو ما قد مضى، فإنّ ذلك وسوسة إليه من عدوه حسداً له ليقطعه بذلك عن وقوف قلبه عند كل ركن من أركان الصلاة ويشغل قلبه عن الوقوف في المناجاة، بما يضرّه عما ينفعه ليحرمه بذلك أن يشهد عند كل ذكر من أذكار الصلاة ما يوجبه الذكر من تدبير أو تعظيم أو حمد أو دعاء أو استغفار، وإن خطر بقلبه أمر معاشه وتصريف أحواله وتدبير شأنه من المناجاة، فذلك من قبل النفس وفكرها بما توسوس به من أمور الدنيا، فأما إن خطرت همة محظورة أو فكرة في معصية مأزورة؛ فهذا هو الهلاك والبعد، يكون عن وصف النفس الأمارة باستحواذ العدوّ المغوي؛ فهو علامة الإبعاد..، وما خطر على قلبه من الخيرات المتأخر فعلها فليعقد النية بذلك، فإنه قد ذكر به وأريد منه، ثم ليمض في صلاته ولا يشتغل بتدبيره؛ كيف يكون؟ ومتى يكون؟ أو كيف أكون فيه ؟

ولعلم يقيناً أنّ ما هو فيه من الذكر والصلاة أنفع له وأحمد عاقبة مما تفكر فيه من عاجل دنياه، فيشتغل حينئذ بما هو فيه له من الذكر عمّا هو عليه من سوء الفكر، وليس بعد هذين المقامين حال ينعت ولا يمدح بشيء، وما قدح في قلبه من فهم الخطاب وتدبر معاني الكلام والإيقان على المقصد والمراد فهو تعليم من اللهّ تعالى وتوقيف وتنبيه منه وتعريف؛ وهذا مزيد التلاوة وعلامة الإخلاص في المعاملة وبركة التدبر.. دليل القبول والشكر لحسن الخدمة، فليأخذ من ذلك ما عفا ويغترف منه ما صفا، ولا ينتظره ولا يطلبه"

الفصل العاشر

في الأنوار والواردات

" إنَّما أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوارِدَ لِتَكونَ بِهِ عَلَيْهِ وارِداً "

الوارد: هو ما ورد على قلبك من المعارف الربانية واللطائف الرحمانية، وهو نور إلهي يقذفه الله في قلب من أحب من عباده، وهو على أقسام منها:

وارد الانتباه: وهو نور يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، فإذا استيقظت من نومك وانتبهت من غفلتك، استويت على قدمك طالبا لربك، فتقبل عليه بقلبك وقالبك، وتنجمع عليه بكليتك...

ومنها **وارد الإقبال**: وهو نور يقذفه الله في قلب عبده فيحركه لذكر مولاه ويغيبه عما سواه، فلا يزال مشتغلا بذكره، غائبا عن غيره، حتى يمتلئ القلب بالنور، ويغيب عما سوى المذكور، فلا يرى إلا النور، فيخرج من سجن الأغيار، ويتحرر من رق الآثار.

ومعنى الحكمة أنه إنما أشرق عليك نور اليقظة والانتباه وهو الوارد

لتكون بسببه واردا عليه وسائرا إليه.. سبحانه وتعالى.. تجلت عظمته، وعظمت رحمته.

وبمناسبة ذكر الواردات، وجب التنويه على أن الخواطر التي ترد على الإنسان على أنواع و يجب التعرف عليها:

في تمييز الخواطر:

قال الشيخ زروق: "تمييز الخواطر من مهمات أهل المراقبة، لنفي الصوارف عن القلوب فلزم الاهتمام بها...

والخواطر أربعة: رباني، ونفساني، وملكي، وشيطاني. وكل إنما يجري بقدرة الله تعالى، وإرادته، وعلمه.

فما كان في التوحيد الخالص: فرباني، وفي مجاري الشهوات: فنفساني. وما وافق أصلا شرعيا لا يدخله رخصة ولا هوى: فرباني، وغيره نفساني.

ويعقب الرباني برودة وانشراح، والنفساني يبس وانقباض.

والرباني كالفجر الساطع، لا يزداد إلا وضوحا، والنفساني، كعمود قائم، إن ينقص بقي على حاله (يعني له ثبات ما).

فأما الملكي والشيطاني فمترددان، ولا يأتي الملكي إلا بخير، والشيطاني قد يأتي به، فيشكل... (كأن يشغل الإنسان عن أمر هام بأمر أقل أهمية).

ويفرق بأن الملكي تعضده الأدلة، ويصحبه الانشراح، ويقوى بالذكر، فأثره كغبش الصبح، وله نفاذ ما...

بخلاف الشيطاني فإنه يضعف بالذكر ويعمى عن الدليل، وتعقبه حرارة، ويصحبه اشتعال وغبار وضيق، وربما تبعه كسل ".

وقيل في الرسالة القشيرية: فرق الجنيد بين هواجس النفس ووساوس الشيطان: بأن النفس إذا طالبتك بشيء لحت فلا تزال تعاودك ولو بعد حين، حتى تصل إلى مرادها، اللهم إلا أن يدوم صدق المجاهدة، ثم إنها تعاودك وتعاودك، وأما الشيطان إذا دعاك إلى زلة فخالفته بترك ذلك يوسوس بزلة أخرى، لأن جميع المخالفات له سواء، إنما يريد أن يكون داعيا أبدا إلى زلة ما، ولا غرض له في تخصيص واحدة دون الأخرى.

وقيل كل خاطر يكون من الملك فربما يوافقه صاحبه، وربما يخالفه، فإما خاطر يكون من الحق سبحانه فلا يحصل خلاف من العبد له.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "قد يتساءل القارئ: ما الفرق بين هذا الذي يسمونه واردا، وبين ما يرد إلى العقل عن طريق التعليم والإصغاء إلى مرشد أو القراءة من كتاب، إذ من المعلوم أن كل ذلك وارد يرد على العقل أو الفكر، فيكسبه معرفة أو معلومة جديدة؟

الفرق بينهما أن ما يرد أو يفد إلى الذهن عن طريق التعلم والتلقي، قد يكون خيرا وقد يكون شرا، وقد يكون أوهاما باطلة وقد تكون حقائق صحيحة، أما هذا الوارد الذي يتحدث عنه علماء هذا الشأن: فنفحة ربانية تسطع على القلب وتستقر فيه دون أي وساطة من تعليم أو تلقين أو قراءة من كتاب، فتحدث فيه وجدان مؤثر وقوة دافعة، قلب يقظ ونفس خاشعة، فالوارد إذن لا يكون إلا خيرا، إذ هو لا يأتي إلا هبة من الله تعالى.

مثال ذلك، الرجل يكون منصرفا إلى دنياه وانشغالاته الحياتية، وفجأة يقتحم عقله إدراك جديد لحقيقة هذه الدنيا وتفاهة ما فيها وسرعة زوالها، وما يلبث هذا الإدراك العقلي أن يتحول لشعور قلبي يهيمن على مجامع القلب، فيتراجع الحب الكامن فيه للدنيا وأهوائها، ويتجه إلى الإقبال على الله والعمل للآخرة، فهذا يسمى واردا إلهيا اتجه إلى القلب من خلال العقل.. كذلك قد تكون إلتفاتة مفاجئة إلى آية قرآنية - مسموعة أو مقروءة - أو تأمل في عبرة ربانية ينتج عنها رجوع إلى الله، كل ذلك قد يكون مرتبطا بهذه الواردات".

(وتأمل قصص التائبين والفنانات المعتزلات، فكثيرا ما ترى أثر مثل هذه الواردات في لحظات التحول في حياتهم).

وقال سعيد حوى رحمه الله، في التقديم لواردات القلب وأسبابها: السير القلبي منوط بورود الواردات النورانية إلى القلب، وهذه الواردات تأتي من مجالسة الصالحين، أو هي أثر عن عمل صالح، وخاصة الذكر، أو هي هبة ربانية، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ ﴾ (محمد: 17).

وقال ﷺ: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة... الحديث" (صحيح مسلم).

وروي أنه ﷺ قال: "اطلبوا الخير دهركم كله و تعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده " (ابن عبد البر في "الاستذكار" من حديث أنس رضي الله عنه).

وفي الحديث الذي رواه الطبراني عن رسول الله ﷺ: "إن لربكم في أيام دهركم لنفحات، فتعرضوا لها، لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحة لايشقى بعدها أبدا " (الطبراني في الكبير وفي الأوسط).

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾ (الزمر: 22).

والوارد أثر الورد، فما دام لك ورد من أفعال الخير فهناك وارد، والورد هو كل عمل من أعمال الخير، فقراءة القرآن لها وارد، والخدمة العامة لها وارد، والجهاد له وارد وهكذا كل نوع من الأعمال الصالحة، ولكن أكثر الأشياء التي لها وارداتها الحسنة هي الأذكار والجلوس مع أهل الله، فالحديث يقول أنه ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده.. ونص هذا الحديث البديع حسب رواية صحيح مسلم: "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه".

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ (الفتح: 4).

ولكن يحول أحيانا بين هذه الواردات ووصولها أو الإحساس بها الحجب الموجودة على القلب، فلكي تصل وتترك آثارها ينبغي أن تزول المعاني التي تحول دون وصولها أو تضعفها... وتأمل قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات: 14)، إذن فهناك شئ ما يدخل هذا القلب، وهو الإيمان، كأثر من آثار القيام بأعمال الإسلام.

ومعنى الحكمة السابقة أن الله أورد عليك الوارد وصب في قلبك الأنوار من أجل أن ترد على الله عز وجل: أي تتوجه إليه جل جلاله وتريد وجهه، فبقدر ما يكون عندنا قوة توجه قلبي نحو الله فمعنى ذلك أن هناك واردات تقع في قلوبنا تدفعنا إلى الله...

❁ ❁ ❁

"أَوْرَدَ عَلَيْكَ الوارِدَ لِيَتَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ الأَغْيارِ. وَلِيُحَرِّرَكَ مِنْ رِقِّ الآثارِ"

الأغيار: كل ما عدا الله، الآثار: الآثار الكونية، ويقصد بها الدنيا وزخرفها، أي: إنما أورد عليك وارد الإقبال ليؤنسك بذكر الكبير المتعال، فإذا انشغلت بذكره وغبت عن غيره تسلمك: أي أنقذك من يد لصوص الأغيار

بعد أن شدوا أوثاقك بحبل هواك وسجنوك في سجن ظنونك ومناك، وليحررك ويعتقك أيضا من رق الآثار، بعد أن ملكتك بما أظهرته لك من زخرف الاغترار، فإذا سلمت من يد الأغيار أفضيت إلى شهود الأسرار، والتعلق بمسبب الأسباب، شديد المحال، ذي الجلال والإكرام.

وبمناسبة ذكر الواردات ذكر الإمام البنا في الأصل الثالث من الأصول العشرين: "وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة، نور وحلاوة، يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه".

وقال ابن عباد: الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه.

ويدخل الدكتور البوطي كل الفلسفات المادية التي تحجب العبد عن خالقه في مفهوم "سجن الوجود"، والذي إذا تحرر الإنسان منه، فإنه: " سيجد نفسه أمام فضاء غير متناه من شهود الله عز وجل.. ومهما وقعت عيناه على مشاهد للمكونات تتحرك أمامه، فلن ترى بصيرته من خلالها إلا المكون.. ومهما نظر فرأى من حوله عالم الأسباب تؤدي وظائفها وتنتج مسبباتها، فلن تريه عيناه منها إلا المسبب الفعال جل جلاله".

" قَلَّما تَأتي الوارِداتُ الإلهيَّةُ إلّا بَغْتَةً، صِيانَةً لَها أنْ يَدَّعِيَها العِبادُ بِوُجودِ الاسْتِعْدادِ "

الوارد عادة ما يطلق على ما يرد على القلوب من الأحوال المحمودة - وهي أعم من الخواطر التي ترد على الإنسان كما تقدم -... وهي نفحات إلهية يهب نسيمها على القلوب والأرواح، فتغيب القلوب في حضرة علام الغيوب، فتطير فرحا وسرورا، وقلما تكون هذه الواردات الإلهية إلا بغتة، لأنها لا تنال باكتساب وإنما هي فتح من الكريم الوهاب... فهي مواهب وليست مكاسب: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ (آل عمران: 74).

وكما سبق فما من عمل من أعمال الخير إلا وله أثره المباشر في قلب الإنسان وهذا يسمى أيضا واردا... والواردات لها صور شتى، ومن جملة صورها أن تلقى إليك معان إلهامية فيفتح الله عليك علوما إلهامية كثيرة... فترى المعاني أحيانا تنصب على القلب انصبابا ويسمى أحيانا فتح، وإذا التزم المريد استدامة الذكر وآثر الخلوة، فإنه قد يجد حالا في قلبه، إما في النوم وإما في اليقظة، أو بين النوم واليقظة، من خطاب يسمع، أو معنى يشاهد، مما يكون نقضا للعادة، فينبغي أن لا يشتغل بذلك كثيرا، وليعرض الأمر على ميزان الشرع: لأنه قد تختلط هواجس النفس بوساوس الشيطان... وعليه بدوام الذكر وكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ، وهي سلم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى، خاصة إذا لم يلق الطالب شيخا مربيا.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إشراقة القلب ثمرة للاستقامة على

الطاعات والقربات وذكر الله عز وجل، أما الواردات فمنحة من الله يرسلها إلى قلب من يشاء من عباده، فيصحو بعد غفلة، ويرق بعد قسوة، ويقبل على الله بعد إدبار، ولكي يتبين صاحب هذا القلب أنها عطية من الله جاءته دون تسبب منه، يكرمه بها فجأة.. وفي تاريخنا الغابر نماذج كثيرة لمن جذبتهم الواردات الربانية فجأة، من أقصى أودية الفسوق والعصيان إلى صعيد الهداية والعرفان.. منهم الفضيل بن عياض الذي تنزل على قلبه الوارد الرباني، وقد تسور جدار دار في جنح ليل مظلم، على موعد مع معصية، ومنهم عبد الله بن المبارك الذي فاجأه الوارد الرباني من خلال هاتف صك سمعه ثم سرى إلى قلبه، ومنهم بشر بن حارث الحافي الذي انتشله الوارد الإلهي من بين أمواج لهوه وصخبه، على حين غرة، وأخرجه حافيا من قصره يعانق حياة جديدة من العبادة وصدق التبتل إلى الله، وكذلك مالك بن دينار الذي جاءه الوارد في رؤيا منامية غيرت حياته... بل انظر إلى هؤلاء الذين تسمع أنباء تحولهم من الكفر إلى الإسلام قي سائر أنحاء الأرض، إن بعضهم لم يضع نصب عينيه مشروعا مدروسا للإيمان، ولا برنامجا للهداية، ولكن إشراقة الإيمان هجمت على أفئدتهم على حين غرة.. وما كان ذلك إلا لأن واردا من نفحات الغيب الإلهي أوفده الله إلى قلوبهم، فشعرت بما لم تكن تشعر به من قبل، وعرفت ما لم تكن تعرفه من قبل.. إن كثيرا من المثقفين يدركون مصداقية الإسلام، ولكن هناك عائقا أقوى من سلطان العلم والعقل حال دون قبولهم له، ألا وهو عائق العصبية والاستكبار، والخضوع لسلطان الذرائعية التي ترعى مصالح الذات وتضحي في سبيلها بكل القيم والمبادئ، ولا يحررهم من ذلك كله إلا الوارد

الإلهي الذي نتحدث عنه.. إن المعاصي على اختلافها لا تشكل وحدها حاجزا يحول دون تعرض الإنسان للواردات العلوية التي تنسكب في الفؤاد فتنقل صاحبها بغتة من حال إلى حال... ولكن الذي يحجب الإنسان عنها ويحرمه من فرصة التعرض لها، استكباره على الله واستخفافه بها قد تلقاه من أوامره وأحكامه وشرائعه، وتأمل قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (الأعراف: 146)... انتهى

❁ ❁ ❁

" الحَقائِقُ تَرِدُ في حالِ التَّجَلّي مُجْمَلَةٌ ، وَبَعْدَ الوَعيِ يَكونُ البَيانُ "

الحقائق هي ما يرد على قلب العابد من تجليات العلوم والحكم والمعارف، أو تقول أن الحقائق هي ما يجري على لسان الزهاد والربانيين من الفوائد الجامعة، والنكات الحكيمة بغير توقف على أسباب.

وحكمة ذلك أن الروح إذا تخلصت وتصفت من غبش الحس كان غالب ما يتجلى فيها حقا، ثم إن هذه الحقائق قد ترد في حال التجلي مجملة فيقيدها الإنسان كما تجلت، ثم يتفكر فيها فيتبين معناها، فبعد الوعي وهو الحفظ يكون البيان.. فوحي الأنبياء مصون فلا ينسى بخلاف وحي الإلهام، فلذلك ينبغي للولي أن يقيد تلك الواردات قريبا، فإن الحكمة في حال التجلي تكون كالجبل،

فإذا غفل عنها ترجع كالجمل، فإذا غفل عنها بعد.. رجعت كالثور، ثم كالكبش ثم كالبيضة ثم تغيب، ولذلك كان كثير من العلماء والشيوخ لا تفارقه الدواة والقلم والقرطاس ليقيد المواهب، وكانوا يأمرون بذلك، وتأمل كتاب " صيد الخاطر" الذي جله خواطر مختلفة تألقت في ذهن كاتبها ابن الجوزي فأخرج منها كتابا نافعا بديعا، وكذلك كتاب الفوائد لإبن قيم الجوزية، ولعل حكم ابن عطاء الله العذبة التي بين يديك أيضا من مثل ذلك.

قال ابن عجيبة: وجل الشرح الذي نقيده إنما هو مواهب، لأني عندما أشرع في شرح الحكمة لا أدري ما أكتب، فأقف مفتقرا إلى ما عند الله، فإذا ورد شئ من عند الله كتبته أولا ثم أنظر في كتب القوم، وكثيرا ما نكتب الكلام ثم نطالعه ونستغرب أني كتبته وصدر مني... وكان بعض العارفين يقول لأصحابه: إذا كنت أتكلم عليكم، أكون أستفيد من نفسي ما يجريه الله على لساني كما تستفيدون أنتم مني...

وكان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام إذا سمع كلام أبي الحسن الشاذلي يقول: هذا كلام قريب عهد بالله...

قلت: وهو أصل هام.. كان أبو الحسن الشاذلي يقول: إذا عارض كشفك صحيح الكتاب والسنة، فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقال الجنيد: إن النكتة لتقع في قلبي من جهة الكشف فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل: الكتاب والسنة.

" مَتى وَرَدَتِ الوارِداتُ الإلهيَّةُ إلَيْكَ هَدَمَتِ العَوائِدَ عَلَيْكَ "

الواردات الإلهية هي ما يتجلى للقلوب من المعارف التي تبرز عنها الحقائق كما تقدم، فإذا وردت هذه الواردات على القلب لم يبق فيه متسع لغيرها فتأخذ بمجامعه.

والعوائد: هي ما يعتاده الناس ويركنون إليه ويألفونه من نظام حياتهم.

والوارد الإلهي قد ينشأ عن قوة شوق أو محبة يخلقها الله في قلب العبد، أو قد تنشأ عن قوة خوف أو هيبة أو جلال... فتزعجه تلك القوة إلى النهوض إلى مولاه، فيخرج عن عوائده وشهواته وهواه، ويرحل إلى معرفة ربه ورضاه، وجمع الواردات هنا لأنها لا تهدم عوائدها إلا أذا كثرت وتزايدت...

وتسمى هذه الواردات أيضا نفحات... روي أنه ﷺ قال: "اطلبوا الخير دهركم كله و تعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده و سلوا الله تعالى أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم " (تقدم). وفي الأثر: "إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها".

فمن لم ترد عليه هذه الواردات اختيارا، فليتعرض لها بصحبة العارفين، فإن صحبهم ولم ترد عليه، فليخرق عوائد نفسه من الظاهر فإنها تدخل إليه من الباطن، فمتى وردت عليك حينئذ تلك الواردات الإلهية، هدمت العوائد عليك وأفسدتها لديك، فتحول عزك ذلا (إلى الله) وغناك فقرا، ورياستك تواضعا وحنوا، وكلامك صمتا، ولذيذ طعامك خشينا، وقرارك في وطنك سياحة وسفرا، هكذا شأن الوارد الإلهي يخرب العوائد ويهدمها.

"كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ العَوائِدُ، وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ العَوائِدَ"

العوائد: كل ما تعودته النفس وألفته واستمرت معه حتى صعب خروجها عنه سواء كان ظلمانيا أو نورانيا.

وهي على قسمين: عوائد حسية: مثل كثرة الأكل والشرب واللباس والخلطة، وعوائد معنوية: مثل حب الجاه والرياسة، وحب الدنيا والمدح والحسد وخوف الفقر وغير ذلك.

فمن كان مؤمنا، وخرق من نفسه عوائدها الحسية بالرياضات القهرية (مثل الصيام، وقيام الليل والخروج في سبيل الله، وغير ذلك من هجر المألوف)، قد تخرق له العوائد الحسية، كالكرامات والمعونات التي تتضمن أمورا حسية (ويدخل في ذلك مثلا ما حدث للفاتحين المسلمين من تسخير الله لهم عبور بعض الممرات المائية الصعبة بخيولهم، والتغلب على موانع طبيعية أخرى كانت تعترضهم أثناء هذه الغزوات المباركة)، ومن خرق من نفسه عوائدها المعنوية خرقت له العوائد الباطنية كرفع حجب الغفلة، والإتحاف بالأحوال والمواجد والأذواق الإيمانية البديعة، وتطهير القلوب، والترقي إلى مقام الإحسان وهذا هو المعتبر عند الأكياس وأهل العلم...

قال سعيد حوى: "الكرامة نوعان: الأول كرامة بالمصطلح، وهو خرق العادة على غير مقتضى الأسباب، الثاني: المعونة: وهو تيسير لأمر ما على مقتضى الأسباب لكن يظهر فيه التوفيق الإلهي ".

وأوصى أحدهم بعض إخوانه: إن أردتم أن تكون أعمالكم زكية وأحوالكم مرضية، فقللوا من العوائد فإنها تمنع الفوائد.

ويجب التنبيه على أن خرق العوائد الحسية قد يكون مكتسبا لمن ليست لهم خصوصية كالسحرة وأرباب الشعوذة، وما يفعله فقراء الهنود من الامتناع عن الأكل والشرب لفترات، والتحكم في وظائف الجسم الداخلية كالتنفس وغير ذلك، فمثل أولئك لا يعتد بما يحدث لهم من خوارق نتيجة لذلك، إذ أن التدريب على قهر النفس قد يترتب عليه ظواهر نفسية وروحية لدى بعض الناس - ليس الموضع هنا موضع تفصيل لها - ولا يدل على أية خصوصية، وذلك مثله مثل التربية الرياضية البدنية وما تحدثه من مقدرة جسدية.

والتطبيق العملي لهذه الحكمة هو هجر حياة البلادة والدعة، وعدم الركون إلى الدنيا، والسير بمقتضى الشرع فيما أمرنا به من حركة في الحياة، سواء كانت هذه الحركة حركة قلبية تشمل سكونا حسيا: كالعزلة والاعتكاف المندوب، وكذلك الذكر والتفكر، أو كانت سياحة وضربا في الأرض وجهادا في سبيل الله، أو أي سباقا للمسارعة في الخيرات... وكثيرا ما نسمع ممن يقومون بتلك الأعمال، الكثير مما يتحفون به من كرامات ومعونات تثبيتا لهم.

ومما يدخل في هذا الباب ما رواه الشيخ محمد رشيد رضا عن تأثير مطالعته للجزء الرابع من إحياء علوم الدين يقول: "كنت في أثناء شهر رمضان أتحنث وأطالع الربع الرابع من إحياء علوم الدين، فلما كان آخر يوم منه بلغت كتاب التوحيد والتوكل، وقد أحييت معظم ليلة العيد بالتكبير مع جماعات من أهل بلدنا، حتى إذا كان السحر صليت صلاة الليل والوتر إحدى عشرة ركعة

وفاقا للسنة الصحيحة كالعادة، وعدت بعد صلاة الفجر إلى التكبير مع الناس في المسجد إلى وقت صلاة العيد، وبعد أدائها صعدت إلى غرفة خلوتي وأتممت قراءة ما بلغته من الإحياء، فما أتممته إلا وشعرت بأنني في عالم آخر من اللذة الروحية، وأنه لم يبق لي وزن، فكأني روح بغير جسم، ونزلت من الغرفة وكأني ريشة طائر، وشعرت لو أنني ألقيت بنفسي من النافذة إلى الأرض لا أكون إلا كما تقع الريشة، وأنه يمكنني المشي على الماء، واعتقدت، بل أعتقد حتى اليوم، أنني لو تركت الطعام زمنا طويلا مع ملازمة تلك الحال من الذكر والعلم الإلهي الأعلى لقويت معي تلك الروحانية " (مجلة المنار 33:360).

ومما ذكره أيضا "أنه كان يشم وقت الذكر رائحة زكية، تأتي نفحة بعد نفحة ثم تذهب". (المنار 7:415).

وروى الشيخ محمود عيد أبوالعينين، رحمه الله - وهو كان من كبار الدعاة الربانيين في مدينة الإسكندرية ثم في دبي - تجربة حصلت له في السيتينات، وكان قد سجن ظلما وقتها، أنه كان في إحدى الليالي في حبس انفرادي، وقد انتابته حالة ضيق شديدة، فلما لجأ إلى الله لرفعها، حدث له فجأة شيء غريب، إذ انتابته حالة روحية شعر معها أنه أصبح خفيفا جدا وكأنه تحول إلى كائن روحي يطفو إلى أعلى، وانتابته حالة من السكينة العجيبة، وفي قمة هذه الحالة سمع هاتفاً واضحاً يقول له: "يعيش في خير ضابطاً نفسه"، وقد ظل يعلق هذه العبارة مكتوبة عنده في منزله في الإسكندرية ثم في دبي، وعندما سئل عن معناها: قال أن الخير والسعادة في أن يضبط الإنسان حياته وأحواله على الشرع.

۞ ۞ ۞

" لا تَطْلُبَنَّ بَقاءَ الواردات بَعْدَ أنْ بَسطَتْ أنْوارَها وَأُوْدَعَتْ أسْرارَها ، فَلَكَ في الله غِنـىً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ يُغْنيكَ عَنْهُ شَيْءٌ "

إن وردت عليك الأحوال، وهي الواردات الإلهية، ثم انقشعت وانصرفت، فلا تطلب بقاءها بعد أن بسطت في قلبك أنوارها، فأخرجت منه ظلمة الأغيار وصور الآثار، وأودعت أسرارها، من مزيد الإيقان وشهود العيان.

قال ابن عطاء الله في "التنوير": اعلم أن الباري سبحانه يدخلك في الحال لتأخذ منها، لا لتأخذ منك، وإنما جاءت تحمل هدية التعريف من الله إليك فيها، فتوجه إليها باسمه "المبدئ" فأبداها وأبقاها، حتى أوصلت إليك ما كان لك فيها، فلما أدت الأمانة توجه إليها باسمه "المعيد" فأرجعها وتوفاها... فلا تطالبن بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته، ولا أمين بعد أن بلغ أمانته... فكن عبدا لله لا عبدا للعلل، وكما كان الله لك ربا ولا علة، فكن عبدا له ولا علة، لتكون له كما كان لك... فإذا حصل لك الغني بالله، استغنيت به عن كل ما سواه.

وأيضا المراد من الواردات ثمراتها ونتائجها، وهو ما يعقبها من اليقين والطمأنينة والرضا والتسليم، وغير ذلك من المحاسن، فإذا أعطتك نتائجها وجنيت ثمراتها، فلك في الله غنى عنها.

" النَّعيمُ وإنْ تَنَوَّعَتْ مَظاهِرُهُ إنَّما هُوَ بِشُهودِهِ وَاقْتِرابِهِ، وَالعَذابُ وَإنْ تَنَوَّعَتْ مَظاهِرُهُ إنَّما هُوَ لِوجودِ حِجابِهِ، فَسَبَبُ العَذابِ وُجودُ الحِجْابِ، وإتْمامُ النَّعيمِ بِالنَّظَرِ إلى وَجْهِ اللهِ الكَريمِ."

نعيم الروح وعذابها، إنما هو بشهود ربها أو باحتجابها عنه، نعيمها هو روح الوصال، وريحان الجمال، وعذابها احتجابها عن شهود ذلك الجمال، وبعدها عن الكبير المتعال.

وأهل الجنان أحسوا بالرضا والرضوان لقرب الحق منهم ورضاه عنهم، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القيامة: 22-23).

وفي صحيح البخاري: " كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا".

وأما أهل النار فأحسوا بالبعد من الواحد القهار، فتضاعف عذابهم في دار البوار، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (المطففين: 15).

ولو أنه سبحانه احتجب عن أهل الجنة لضاق عليهم فسيح الجنان، ولانقلب نعيمهم نقمة وعذابا...

أما من كان في دار الدنيا عابدا محسنا، فلا يحتجب الحق تعالى عنه... فكما شهده هنا بوسائط أنواره، يشهده ثَمَ (هناك) بلطائف أسراره... وفي دار البقاء

يرق الحجاب لرقة الأبدان ولطافتها، فلذلك صار نعيمهم لا يكتمل إلا بشهود ذلك القرب الحبيب.

وفي الدارين لو تجلى الحق تعالى لعبده في حال عذابه بصفة جماله لنسي ذلك العذاب...

قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ (فاطر: 2)

قال صاحب الظلال - رحمه الله - في تفسير هذه الآيات: "إن رحمات الله عز وجل يجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، وفي كل مكان، ولو فقد كل شيء مما يعده الناس حرمانا.. ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وما من نعمة يمسك معها رحمته، حتى تنقلب هي بذاتها نقمة... وما من نقمة تحفها رحمة الله حتى تكون هي بذاتها نعمة... ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله فإذا هو مهاد... وينام على الحرير وقد أمسكت عنه فإذا هو شوك... ولا ضيق مع رحمة الله أبدا، ولا سعة مع إمساكها... فمن داخل النفس - برحمة الله - تنفجر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة... ومن داخل النفس - مع إمساكها - تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة.."

وعندما كانت زوجة بلال تصيح عند موته واكرباه... كان هو يقول: واطرباه، غدا ألقى الأحبة، محمدا وحزبه...

ولما ضرب عامر بن فهيرة بالرمح ونفذ من ظهره إلى صدره، قال: فزت ورب الكعبة...

وفي التاريخ الحديث: كان مما خفف الله به عن الدكتور علي جريشة أثناء تعذيبه الوحشي في السجن الحربي، رؤيا صالحة رآها: فقد رأى أنه في الجنة وبرفقة إحدى الحور العين تأخذه في جولة في الجنة، وكان يصف جمالها بأنه كان عجيباً بديعاً، يأخذ ولا يثير، وكان يرى مخ ساقيها من خلال ثوبها، وأرته مقعد بعض إخوانه في الجنة، ثم أرته مقعده هو في قصر شاهق مازال يبنى ويرتفع (وتفصيل هذه الرؤيا البديعة مفصل في كتابه المؤثر: "في الزنزانة" - فصل: رأيت الله).

وقد روي في بعض الكتب أن أحد الصالحين كان مجذوما، وهو يدعو للمرضى فيبرءون من حينهم، فقيل له: لو دعوت الله أن يخفف عنك، فقال: رأيت رب العزة في النوم وهو يقول لي: أتريد أن أبتليك ببلية أرفع لك بها أعلى الدرجات؟ قلت: نعم، فأصبح مجذوما.

فانظر هؤلاء السادات، لما عرجوا من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح لم يبق لهم نعيم ولا عذاب إلا نعيم الأرواح أو عذابها، وأما عذاب الأشباح فقد غابوا عنه، فكان نعيم هؤلاء وقوت أرواحهم هو ذكر ربهم، وشهود أنواره، أو اقترابه، حتى صار لهم غذاء لا بقاء لهم إلا به، ولا غنى لهم عنه.

قال ابن عطاء الله في المناجاة: " إلهي ماذا وجد من فقدك وماذا فقد من وجدك؟ "

" لا يَنْبَغي لِلسّالِكِ أنْ يُعَبِّرَ عَنْ وارِداتِهِ ؛ فإنَّ ذلِكَ يُقِلُّ عَمَلَهـا في قَلْبِـهِ وَيَمْنَعُـهُ وُجـودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ "

المريد في حال سيره مأمور بالكتمان لعمله وحاله ووارداته، فإفشاؤه لعمله من قلة إخلاصه، وإفشاؤه لأحواله من قلة صدقه مع ربه...

والواردات الإلهية تفجأ القلوب لتحركها إلى النهوض إلى مولاها، فإذا أفشاها وذكرها للناس قد يقل عملها في قلبه.

❁ ❁ ❁

" رُبَّما رُزِقَ الكَرامَةَ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الاسْتِقامَةُ "

الكرامة الحسية هي خرق الحس العادي، كالمشي على الماء وطي الأرض ونبع الماء وجلب الطعام، والاطلاع على المغيبات، وغير ذلك من خوارق العادات. والكرامة المعنوية: هي استقامة العبد مع ربه في الظاهر والباطن، وكشف الحجاب عن قلبه حتى يعرف مولاه، والظفر بنفسه ومخالفة هواه، وقوة يقينه وسكونه وطمأنينته بالله، وهي المعتبرة..

وخرق العادة الحسية قد يظهر على يد من لم تكمل استقامته، بل قد تظهر على يد من لا استقامة له أصلا كالسحرة والكهان، وقد تظهر على أيدي الرهبان وليست بكرامة إنما هي استدراج...

قال الشيخ أبو الحسن: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان

بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة، ومجانبة الدعاوي والمخالفة، وكل كرامة لا يصحبها الاتباع الصحيح للشريعة، والرضا عن الله ومن الله، فصاحبها مستدرج مغرور، أو ناقص أو هالك أو مثبور.

قال ابن عجيبة: والكرامة الحقيقية هي الاستقامة على الدين وحصول كمال اليقين، وأما خوارق العادات الحسية، فإن صحبتها الاستقامة ظاهرا وباطنا فهي علامة طيبة لصاحبها لأنها شاهدة له بالكمال مما هو فيه، وإن لم تصحبها استقامة فلا عبرة بها.

والغالب أن أهل الباطن كرامتهم باطنية ككشف الحجب ومزيد الإيمان، وكذلك عقوبة من آذاهم جلها باطنية لا يتفطن المعتدون لها: كقساوة القلب، والإنهماك في الذنوب، والغفلة عن الله والبعد عن حضرته وهي أعظم من العقوبة في الحس، وأعظم الكرامة: الفهم عن الله، والرضا بقضاء الله، وترك التدبير والاختيار مع الله، وإقامة العبد حيث أقامه الله...

❁ ❁ ❁

" لا يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ إلا جهولٌ. الوِردُ يُوْجَدُ (ثوابه) في الدّار الآخرَةِ، وَالوارِدُ يَنطَوي بانْطِواءِ هذه الدّار. وأَوْلى ما يُعْتَنى به: ما لا يُخْلَفُ وُجودُه. الوِرْدُ هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ، وَالوارِدُ أنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ. وَأيْنَ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ ممّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ؟!"

الورد هو الحصة التي يلزم العبد بها نفسه من الأذكار والعبادات، وسائر الطاعات النافلة.

والوارد منه: هو الطارق والقادم، وفي الاصطلاح: ما يتحف به الحق تعالى قلوب أوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محركة، وكما تقدم: ربما يدهشه، ولا يكون إلا بغتة، ولا يدوم على صاحبه... فهو الذي يرد على باطن العبد من لطائف وأنوار، فينشرح بها صدره، ويستنير بها قلبه وسره.

قال سعيد حوى رحمه الله: إن العواصف ورياح الفتن التي تصب على القلوب كبيرة وخطيرة بما فيها إلقاءات الشيطان في هذا القلب، والأوراد اليومية تعمل عمل الغسيل اليومي لقلب الإنسان، ومن أمثلة هذه الأوراد: الصلاة وقراءة القرآن وكثرة الذكر، ودليل فضل المداومة أنه كان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺما داوم عليه صاحبه، وقد كان لكل واحد من الصحابة ورد يداوم عليه " وكان آل محمد إذا عملوا عملا أثبتوه " (أخرجه مسلم)، والرسول ﷺ كان له أوراده اليومية...

والصلوات الخمس فرضت على رسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، فهي فرضت في المعراج، ومن ههنا يأخذ أهل السير إلى الله فكرة العروج إلى الملأ الأعلى بالروح أثناء الصلاة... وأما في فضل الذكر: فقد قال ابن عمر: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم " (سنن أبي داود)، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه " (صحيح الترمذي)، وثمرات الذكر كثيرة جدا، وقد تقدم ذكر بعضها في فصل الذكر والصلاة.

فإذا اجتمع مع الذكر شدة الافتقار إلى الله، والاجتماع بأهل الصلاح لكان الخير كله...

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "وإذا كان الإكثار من ذكر الله بكل أنواعه مطلوبا، فإن تنظيم القيام ببعضه أمر مطلوب أيضا، ويتم ذلك عن طريق الارتباط بحصص وأنواع منه في أوقات محددة، وهو ما يسمى بالورد، وقد نبه كل من القرآن والسنة إلى هذا الانضباط والنظام، ألم يحث القرآن المسلم على أن يتعهد نفسه بشيء من ذكر الله إذا أصبح وإذا أمسى، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ ﴾ (الأعراف: 205)،

وقال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩ ﴾ (ق: 39).

وقال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠ ﴾ (طه: 130).

ألم ينبه القرآن المسلم إلى أن عليه أن يتعهد نفسه بوظيفة من الاستغفار في أوقات السحر قال تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ ﴾ (الذاريات: 17-18).

إن كثيرا من الناس يطلب من الله التوفيق في أمر الدنيا، ويغفل عن طلب

التوفيق في أمور الآخرة، لذا قال ابن عطاء الله في حكمة أخرى: خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك...

إذن فالواجب على المسلم أن يضع أوامر مولاه في أعلى سلم الأولويات، ثم ينتقل بعدها إلى حاجاته ورغباته ".. انتهى

مما تقدم يتبين أن أولى ما يعتني به العبد ما هو طالبه منه الحق تعالى وهو الورد، وثوابه وثمرته توجد أساسا في الدار الآخرة، عكس الوارد الذي تطلبه فإنه ينطوي بانطواء هذه الدار، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الزخرف: 72).

وجاء في الأثر: "إن الله يقول: ادخلوا الجنة برحمتي وتقاسموها بأعمالكم".

فالأصل في الدنيا أنها دار عمل لا جزاء فيها، والآخرة دار جزاء لا عمل فيها، فيجب على الإنسان أن يغتنم عمره قبل الفوات، وقد جاء في الحديث: "لا تأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة" (حديث صحيح: أحمد)، وجاء في الأثر: "من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شرا من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن في مزيد فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له" (الديلمي – من حديث علي رضي الله عنه).

وللطاعات عموما أسرار، قال ابن عطاء الله في "لطائف المنن": واعلموا أن الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات، فمن فاته من الطاعات صنف فقد من النور بمقدار ذلك، فلا تهملوا شيئا من الطاعات، وحجاب الغيوب

وجود العيوب، والتطهر من العيب يفتح لك باب الغيب، ولا تكن ممن يطلب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لله...

"وُرودُ الإمْدادِ بِحَسَبِ الاسْتِعْدادِ. وَشُروقُ الأنْوارِ عَلى حَسَبِ صَفاءِ الأسْرارِ"

فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة، وبقدر التخلية تكون التحلية، وفائدة هذه الأمداد تطهير القلوب من الأغيار، وتقديس الأسرار من غبش الحس والأكدار، والوقوف مع الأنوار... بالزهد يتهيأ للمدد، وبالصدق يفيض عليه المدد.

قال رسول الله ﷺ: " إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته" (صحيح البخاري).

وإن كنت ممن يحرصون على القرب من الله سبحانه – وأحسبك منهم ان شاء الله – فتأمل في هذا الحديث العظيم وانتفع به: "قال النبي ﷺ يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت

إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" (صحيح البخاري).

يقول الدكتور البوطي: "إن الأمداد التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، جمع مدد، والمدد خطوة ربانية تفد إلى العبد من لدن مولاه، تتمثل في كل نعمة يقصر عنها باع الإنسان، فيكرمه بها الواحد العظيم المنان، فمنها ما يدخل في أنواع الكرامات مما هو من خوارق العادات، ومنها ما يدخل في بوارق الإلهام والمعارف والتوفيقات الربانية، ومنها ما يدخل في مظاهر النصر على الأعداء، والفوز في الجهود المبرورة وأنواع الجهاد، وإكرام الله الجماعة المسلمة الملتزمة بإخلاص لأوامر الله، بالدولة والمنعة وترسيخ وجودهم الحضاري على الأرض... فهذه الأمداد المتنوعة، إنما تأتي نتيجة للاستعداد السلوكي، وثمرة لصفاء السريرة وطهارتها من التعلق بالأغيار، وشفائها من الأدواء والأوضار، وتعلقها بالحب والمهابة والتعظيم لله الواحد القهار.. أي تأتي نتيجة للانقياد لأوامر الله ولاجتناب نواهيه".

۞ ۞ ۞

"نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ في القُلوبِ، مَدَدُهُ مِنَ النّورِ الوارِدِ مِنْ خَزائِنِ الغُيوبِ"

أول نور يلج في الصدر نور الإسلام، فإذا انشرح القلب به انقذف فيه نور الإيمان، فإذا قوى فيه ونما بالطاعة والذكر والصحبة كان كنور الشمس، وهو نور الإحسان، وبهذا النور يشتاق القلب إلى معرفة الحق.

"النّورُ لَهُ الكَشْفُ. وَالبَصيرَةُ لَها الحُكْمُ. وَالقَلْبُ لَهُ الإقْبالُ وَالإدْبارُ"

النور هنا هو نور العلم المنبثق عن تقوى الله، الذي ينير للعقل الأمر، فتحكم البصيرة عليه، بالصلاح من عدمه..

فالنور يكشف الأمور ويوضحها حتى يظهر حسنها من قبيحها، والبصيرة تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه، والقلب يتخذ القرار: فالقلب السليم يقبل على ما يثبت حسنه، ويدبر عن ما ثبت قبحه، أو يقبل على ما فيه نفعه، ويدبر عن ما فيه ضرره...

ومثال ذلك: إنسان دخل بيتا مظلما فيه عقارب وحيات، وفيه سبائك ذهب وفضة فلا يدري ما يأخذ ولا ما فيه نفع ولا ضرر، فإذا أدخل فيه مصباحا رأى ما ينفعه وما يضره، كذلك قلب المؤمن العاصي لا يفرق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة، فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضره وما ينفعه وفرق بين الحق والباطل... قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال: 29)، (أي نورا يفرق بين الحق والباطل)

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (الزمر: 22)

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الأنعام: 122).

والمؤمن بنور الإيمان يرى الأشياء رؤية غير التي يراها الكافر، فرؤية

الكافر مادية شهوانية أنانية، فيرى الزنا مثلا على أنه متعة، أما المؤمن فيراه معصية وفاحشة وظلمة نهايتها إلى النار... فبنور الإيمان تعرف أن هذا خير وهذا شر...

ويقول سعيد حوى: أن المراد بالقلب هنا هو محل الإيمان والكفر والنفاق، والتقوى والورع، والخوف والمحبة، ومقره الصدر، وله تعلق بالقلب الحسي... قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج: 46)، أما السر فهو الجانب الأخفى من القلب (أو النفس)، ولعله الروح".

❁ ❁ ❁

نظرية إسلامية في النفس البشرية
(النفس والروح والعقل والقلب)

النفس والروح: يرى غالبية علماء المسلمين أن النفس هي الروح، فإذا دخلت الروح في الجسم فإنها تصير نفسا، وتصبح لها خصائص أرضية بحكم ارتباطها بالبدن، وخصائص علوية بحكم أصلها الروحي.

والروح تنتمي إلى عالم الغيب أو عالم الملكوت، ولإنتمائها إلى ذلك العالم، فإن كنهها خارج عن علوم ومعارف البشر المادية، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾ (الإسراء:85).

فبهذا المفهوم تكون النفس هي الروح من حيث الطبيعة والجوهر، ولكن الاختلاف يكون في الخصائص، لأن لها خصائص أرضية مادية بحكم ارتباطها بالبدن، وخصائص أخرى لامادية بحكم أصلها الروحي، فالمكونان ينتميان إلى عالمين مختلفين، والعلاقة بينهما ليست مادية لأن أحدهما غير مادي، وهي أشبه ما تكون بعلاقة الطاقة بالمادة، فالروح تسري سريان الطاقة في المادة، ولها قدرة في التحكم والتصرف في هذه المادة.

وهذا الجوهر النوراني قوة عالمة ومدركة وعاقلة بحسب قوة إمدادها، ومخالفتها للمادة تجعلها تبدو خارقة للعادة في إمكانياتها.

ومثل سريانها في المادة كتوهج الفحمة، فبحسب قوة الاشتعال تكون حمراء أو بيضاء، أو تخمد فتعود سوداء مظلمة.

والجسم هو نقطة الوصل بين العالم المادي وبين نفس الإنسان..

والدليل على هذا التركيب الثنائي للإنسان من كتاب الله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (ص: 71-72)

وفي حديث الرسول ﷺ: " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح... الحديث " (رواه البخاري ومسلم).

وبما أن الجسم مادة فإنه يخضع لقوانين الطبيعة وقيود المكان والزمان، فنرى أن الجسم يمر بمراحل عمرية تظهر عليه فيها تغييرات متتالية تنتهي بالشيخوخة، أي أنه يخضع لعوامل الزمن المادي.

أما الروح، فلأن أصلها مختلف، فزمنها مختلف، والشاهد على ذلك أننا نشعر داخل أنفسنا بالذاتية والثبات مهما امتد بنا العمر، فالزمن يمر على أجسادنا، ولكنه لايمر على نفوسنا، ويظهر هذا الاختلاف الزمني أيضا في عالمي الرؤيا والبرزخ وعند البعث، قال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾(الروم: 55)، والآيات في ذلك كثيرة.

ونفس الإنسان لارتباطها بالروح لها إدراكها المنبثق عن هذه الروح، فهي مدركة مبصرة واعية حتى وبدون حواس، فإنها وإن كانت في اليقظة تستخدم

الحواس، فإنها عند النوم العميق وعندما تتحرر نوعا ما من ارتباطها بالجسد تدرك في عالم الرؤيا، وبدون استخدام الحواس ادراكات تكون أحيانا أقوى من ادراكات عالم الحس والشهادة.

مما مضى يتبين أن النفس لها ظاهر مع عالم الحس والشهادة، وباطن مع عالم الغيب والروح والملكوت، وهذا الباطن هو القلب (كما سيأتي)، فالقلب هو مركز نفس الإنسان، وهو محل ومناط المسئولية والتكليف ومحط تلقي الإلهامات والأنوار... وهذا الجزء الباطن من النفس هو الجانب الأخفى، ولاتصاله بالروح يطلق عليه أحيانا لفظة "السر" والكثير ممن ساروا في الطريق إلى معرفة الله وصفوا أذواقا قلبية عجيبة، وهي المعارف الخاصة والإدراكات التي تأتي عن طريق هذا الجهاز العجيب ! والعقل والضمير من أدوات القلب الباطنة، كما أن الدماغ والحواس من أدواته الظاهرة (في عالم الحس)، وسيأتي تفصيل ذلك فيما يلي.

أدوات النفس ومناطقها: بالرغم من تقدم وسائل البحث العلمي والفحوصات الطبية المختلفة، إلا أن دراسة النفس استعصت على كل هذه الوسائل، وذلك لطبيعة تكوينها غير المادي، ومثلها في ذلك مثل الجاذبية والكهرباء والمغناطيسية، لانعرفها إلا عن طريق آثارها، ولذا لا يمكن دراسة النفس إلا عن طريق دراسة آثارها.

وآثار النفس هي وظائف النفس التي تدلنا على الأجهزة الملحقة بها، فالنفس بصفة عامة كيان معقد، كالبنيان العظيم، قال تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ (الشمس: 7-10)

وكلمة "النفس" تطلق على الذات بجملتها، ولكنها تحتوي على أدوات ومناطق، من أهمها القلب والعقل والوجدان.

العقل: العقل هو الجانب الفكري من النفس، وتعتبر بعض مناطق الدماغ بمثابة الوسيط المادي لهذه الوظائف، وتشمل وظائف العقل: الوعي وإدراك الزمان والمكان والإنتباه والتركيز والذاكرة والتعلم وغيرها من الوظائف الفكرية، وهو مستشار يقيم الآراء ويقيس الأمور بنتائجها وخواتمها، وهو في ذلك مرتبط بالمرجعيات العامة للنفس في عمله، فالعقل بذلك ليس جهة اتخاذ القرار، فقد يوضح خطورة أمر ما كتعاطي المخدرات أو أي سلوك خاطيء أو معصية أخرى مثلا، وبالرغم من ذلك فقد يتخذ المرء قرارا عكس مايمليه العقل وتقتضيه الحكمة، فما السر في ذلك؟

القلب: هو مركز النفس وصاحب القرار، فللنفس مركز هو "القلب" كما ورد في النصوص الشرعية، والقلب لغة هو باطن الشيء، فالقلب هو مركز هذه النفس، وهو مناط الحياة الإيمانية، وكذلك هو محل المؤثرات الغيبية حيث أن لديه مستقبلات لها، وهي قد تكون إلهامات رحمانية مثل لمة الملك، أو وساوس شيطانية، كما في الحديث " إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فيعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى

فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ "الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء " الآية.. (أخرجه الترمذي)

والقلب بموقفه المركزي من النفس (كالنواة بالنسبة للذرة) يمثل حلقة الوصل بين عالم المادة وعالم الروح (عالم الشهادة وعالم الغيب، أو الملك والملكوت).

وللقلب قدرة عجيبة على تقييم ذاته، فهو يستطيع أن يرضى عن "نفسه" أو يكون "غير راض عنها"، وهذه الوظيفة المتميزة قد ترجع إلى جانبه الروحي المتحرر من عالم الشهادة.

علاقة القلب النفسي بالقلب العضلي:

قال الإمام الغزالي في فصل عجائب القلب من كتابه القيم "إحياء علوم الدين": " وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء.. وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة الربانية وبين جسم القلب علاقة خاصة "، وهذه العلاقة الخاصة قد ظهرت بعض دلائلها في عصرنا الحالي، فمن علم الأجنة يتضح أن قلب الإنسان يبدا في النبض مبكرا، وفي فترة زمنية متوافقة مع نفخ الروح حسب ما ورد في الأحاديث، ومن المعلوم أن الدماغ يتم نموه متأخرا جدا مقارنة بالقلب، كذلك يتميز القلب بأنسجة نابضة لموجات منتظمة ذاتية، ومما هو جدير بالذكر أن كثيرا من أمراض عضلة القلب تصاحبها، بل أحيانا تسبقها أعراض وجدانية نفسية، وهذا لا يتعارض مع علاقات الدماغ المتعددة بمناطق النفس، إذ أن الدماغ يعتبر نهاية الحواس وبداية الجوارح.

القلب والدماغ: أثبتت دراسات علمية حديثة قام بها باحثون في معهد دراسات القلب بكندا، أن القلب ليس مضخة للدم فقط، ولكنه مركز معقد لتنظيم المعلومات وان لديه "المخ" الخاص به والذي يتصل ويؤثر بصفة مستمرة بالدماغ الذي في الرأس من خلال الجهاز العصبي والهرمونات ومسارات أخرى، وهو يتواصل مع مراكز المخ المختلفة برسائل واعية: "تؤثر على الطريقة التي ندرك ونستجيب بها للمؤثرات المختلفة في العالم من حولنا، فقد ظهر أن القلب يؤثر على وظائف الفهم والإدراك، واتضح أيضا أن المخ لايفهم فقط هذه الرسائل، بل كان عليه أن يطيعها، والشيء المثير أكثر أن هذه الرسائل كانت تؤثر على سلوك الفرد ذاته"، وبعد وقت قصير استطاع علماء فسيولوجيا الأعصاب اكتشاف الجهاز العصبي (المخ) الخاص بالقلب والذي يتألف من 40,000 خلية عصبية، والعديد من الموصلات العصبية والهرمونات وبتركيز يوازي تركيزها في المخ.

المجال الكهرومغناطيسي للقلب: أثبتت الأبحاث الحديثة أيضا أن القلب يرسل المعلومات للدماغ وسائر أنحاء الجسم أيضا من خلال مجاله الكهرومغناطيسي، فقد اتضح أن القلب يولد أقوى مجال كهرومغناطيسي نابض في الجسم وهو أقوى من مجال الدماغ 500 مرة ويمتد لعدة أمتار خارج الجسم، حيث أمكن رصده بالأجهزة المتخصصة.

القلب والإلهام: وتأتي أعجب هذه الإكتشافات عندما أثبت بعض الباحثين أن القلب يقوم باستقبال وترجمة إشارات إلهامية من خلال مجال قد

يكون خارج حدود المكان والزمان (الروح؟)، وأن كلا من القلب والدماغ يستقبل ويستجيب لبعض الأحداث قبل وقوعها بوقت قليل، وأن القلب في الواقع يستقبل هذه المعلومات قبل الدماغ.

۞ ۞ ۞

وأختم هذا الجزء بما أورده الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في باب عجائب القلوب من كتابه القيم إحياء علوم الدين (بتصرف يسير): "إن للقلب بابين، باب مفتوح إلى عالم الملكوت: وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة، وانفتاح باب القلب الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ، تعلمه علما يقينيا بالتأمل في عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل من عالم الغيب، أوكان في الماضي مما هو غير معلوم، وذلك من غير اقتباس من جهة الحواس، وإنما ينفتح ذلك الباب أكثر لمن انفرد بذكر الله تعالى، وكان كثير المراقبة والتعلق بالله، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ (العنكبوت: 69)، فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ (الطلاق: 2-3)، قال الغزالي: وهذا يشمل أن يعلمه علما من غير تعلم، ويفطنه من غير تجربة، وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ (الأنفال: 29)، قيل نورا يفرق به

بين الحق والباطل، ويخرج به من الشبهات، ولذلك كان النبي ﷺ يكثر في دعائه من سؤال النور.. وقال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ (الأنبياء: 79)، خص ما انكشف باسم الفهم..، وورد في الأثر: " من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم "، وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم.. وقد ورد في الحديث الصحيح: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر"، والمحدث هو الملهم، والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل، لا من جهة المحسوسات الخارجية، ومشاهدة ذلك بالتجارب خارج عن الحصر، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ومن ذلك ما قاله عمر رضي الله عنه في خطبته: يا سارية الجبل ! إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة، وروي أن العباس بن مسروق دخل على أبي الفضل الهاشمي وهو عليل، وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به، قال: فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل؟ فصاح بي: أبا العباس رد هذه الهمة الدنية، فإن لله تعالى ألطافا خفية... وما حكي عن عجائب الفراسة وسماع صوت الهاتف، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر ".

قلت: ولا شك أن كل مؤمن له من ذلك الخير ورد ونصيب، ولكن النسيان آفة الإنسان، وقد أجريت بحثا عن انتشار هذه الظواهر بين عدد من المسلمين من مختلف الفئات والأعمار، فوجدت أنها منتشرة ومتكررة بكثرة، ومن اهمها: الرؤيا الصادقة، والإلهام، والمعونات والكرامات، والهواتف،

والأحاسيس الصادقة، والمبشرات (كسماع آية قرآنية أو ما في حكمها تبشر بالفرج أو النصر فيأتي عقب ذلك سريعا)، ولكن ما يتذكره الإنسان من مثل هذه الظواهر عادة أقل مما يحدث، فما ينساه اكثر.. لذا أوصي بإفراد مذكرات خاصة يكتب فيها الإنسان مثل هذه الظواهر، ويعود لها الحين بعد الحين لتجديد إيمانه، وكي يقصها على أولاده ومن يحب، وما أحسنها من تربية إيمانية للنشء تربطه بعالم الغيب منذ صغره، حيث إنه يسمع قصصا حقيقية تحدث لمن يثق فيهم، لا قصصا تخيلية للوعظ والإرشاد.

❁ ❁ ❁

صفحة بيضاء- تترك فارغة

الفصل الحادي عشر

في القبض والبسط

"بَسَطَكَ كَيْ لا يُبْقِيَكَ مَعَ القَبْضِ، وَقَبَضَكَ كَيْ لا يَتْرُكَكَ مَعَ البَسْطِ، وَأَخرجَكَ عَنْهُما كَيْ لا تَكونَ لِشَيْءٍ دونَهُ"

البسط: فرح يعتري القلوب أو الأرواح بسبب أو بغير سبب.

القبض: حزن وضيق يعتري القلب إما بسبب فوات مرغوب، أو عدم حصول مطلوب، أو بغير سبب...

وهناك حالة ثالثة وهي **الوسط والاعتدال**: وهي الغالبة معظم الوقت عند الأكثرية من الناس ولكن على تقلبات فيها أيضا.

والقبض والبسط يتعاقبان على السالك تعاقب الليل والنهار، فإذا أخذك القبض وسكنت تحت قهره، أخرجك إلى البسط لئلا يحترق قلبك ويذوب جسمك، فإذا حبسك البسط وفرحت به قبضك لئلا يتركك مع البسط فتسئ الأدب، إذ لا يقف مع الأدب في البسط إلا القليل.

واعلم أن القبض والبسط لهما آداب... فمن آداب القبض: الطمأنينة والوقار، والسكون تحت مجاري الأقدار، والرجوع إلى الواحد القهار، فإن القبض شبيه بالليل، والبسط شبيه بالنهار ومن شأن الليل الرقاد والهدوء والسكون والحنو، فاصبر أيها المريد واسكن تحت ظلمة ليل القبض حتى تشرق عليك شموس نهار البسط، إذ لابد لليل من تعاقب النهار، ولابد للنهار من تعاقب الليل: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ (الحج: 61)

هذا من آداب القبض الذي لا تعرف له سببا، وأما ما عرفت له سببا فارجع فيه إلى مسبب الأسباب، ولذ بجانب الكريم الوهاب، فهل عودك إلا حسنا؟ وهل أسدى إليك إلا مننا؟ فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار، فالذي أنزل الداء هو الذي بيده الشفاء:

يا مهموما بنفسه لو ألقيتها إلى الله لاسترحت

والحاصل أن سبب القبض إنما هو النظر للسوى، والغفلة عن المولى، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول: " إذا أصاب أحدكم هم أو لأواء فليقل: الله الله ربي لا أشرك به شيئا " (صحيح الجامع الصغير)

ومن فوائد هذا الحديث: شهود التوحيد والغيبة عن الشرك فكأنه قال ﷺ اعرفوا الله ووحدوه ينقلب قبضكم بسطا ونقمتكم نعمة، وفي الحديث الثاني: قال رسول الله ﷺ: "ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو

علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي. إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحا ". قالوا: يا رسول الله ! ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: "أجل ! ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن " (صحيح الترغيب).

فهذا الحديث يدل على القيام بوظائف العبودية وهي الصبر والرضا.

ومن آداب البسط كف الجوارح عن الطغيان، وخصوصا جارحة اللسان، فإن النفس إذا فرحت بطرت وخفت ونشطت، ولذلك كان البسط مزلة أقدام، فإذا أحس المريد بالبسط فليلجم نفسه بلجام الصمت، وليتحل بحلية السكينة والوقار وليدخل خلوته وليلتزم بيته، فمثل العبد في حالة البسط والقوة كقدر غلى وفار، فإن تركه يغلي أهرق إدامه وبقي شاحتا، وإن كفه وأخمد ناره بقي إدامه تاما، كذلك العبد في حالة القوة والبسط يكون نوره قويا وقلبه مجموعا، فإذا تحرك وبطش، برد ورجع لضعفه...

" العارفونَ إذا بُسِطوا أَخْوَفُ مِنْهُمْ إذا قُبِضُوا، ولا يَقِفُ علَى حُدودِ الأَدَبِ في البَسْطِ إلا قَليلٌ.. البَسْطُ تأخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّها بِوجودِ الفرَحِ، وَالقَبْضُ لا حَظّ للنَّفْسِ فيهِ "

لأن القبض من شأنه أن يقبض النفس عن حظوظها، ومن شأنه أيضا السكون، والسكون كله أدب، ومن شأن البسط أن يبسط النفس وينشطها، فربما تطيش فتزل قدم بعد ثبوتها.

والموضع الذي تحيا به النفس يموت فيه القلب، والموضع الذي تموت فيه النفس (ويخلص فيه التوجه إلى الله) يحيا به القلب والروح.

قال الشيخ في لطائف المنن: " البسط مزلة أقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجوئهم (إلى الله)... والقبض هو اللائق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف، والمطالبة بحقوق الله تعالى، خاصة وأن السابقة مجهولة والخاتمة مبهمة.

وفي آداب القبض والبسط قال أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: "القبض والبسط قلما يخلو العبد منهما، وهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار، والحق سبحانه وتعالى يقتضي منك العبودية فيهما، فمن وقته القبض فلا يخلو من أن يعلم سببه، أو لا يعلم...

وأسباب القبض ثلاث: ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك أو نقصت منك، أو ظالم يؤذيك في نفسك أو في عرضك أو غير ذلك، فإذا ورد عليك القبض من أحد هذه الأسباب، فالعبودية تقتضي أن ترجع إلى العلم مستعملا له كما أمرك الله تعالى: أما في الذنب فبالتوبة والإنابة، وأما فيما ذهب عنك من الدنيا أو نقص فبالتسليم والرضا والاحتساب، وأما فيما يؤذيك به ظالم فبالصبر والاحتمال، واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان: ظلم غيرك لك، وظلمك لنفسك... وتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين.

وأما إذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سببا، فالوقت وقتان: ليل ونهار، فالقبض أشبه شئ بالليل، والبسط أشبه شئ بالنهار، فإذا ورد عليك القبض

بغير سبب تعرفه، فالواجب عليك السكون، والسكون على ثلاثة أشياء: عن الأقوال والحركات والإرادات، فإن فعلت ذلك فعن قريب يذهب عنك الليل بطلوع شمس نهارك، أو يبدو نجم تهتدي به أو قمر تستضيء به أو شمس تبصر بها... وإن تحركت في ظلمة ليلك فقلما تسلم من الهلاك واعتبر بقوله تعالى:

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (القصص: 73). فهذا حكم العبودية في القبضين جميعا.

وأما من كان وقته البسط فلا يخلو من أن يعلم له سببا أو لا، والأسباب ثلاثة:

- الأول: زيادة في الطاعة، أو نوال من المطاع كالعلم والمعرفة.
- الثاني: زيادة من دنيا بكسب أو كرامة أو هبة أو صلة.
- الثالث: بالمدح والثناء من الناس وإقبالهم عليك.

فإذا ورد عليك البسط من أول هذه الأسباب، فالعبودية تقتضي أن ترى النعمة والمنة من الله تعالى عليك، واحذر أن ترى شيئا من ذلك لنفسك، وحصنها بأن تلازم الخوف.. خوف السلب مما به أنعم عليك فتصبح من النادمين.... هذا في جانب الطاعة والنوال من الله تعالى.

وأما الزيادة من الدنيا فهي نعمة أيضا كالأولى، وخف مما بطن من آفاتها... وأما مدح الناس لك وثناؤهم عليك، فالعبودية تقتضي شكر النعمة بما ستره عليك، وخف من الله تعالى أن يظهر ذرة مما بطن منك، فيمقتك أقرب الناس إليك.

وأما البسط الذي لا تعلم له سببا فحق العبودية فيه ترك السؤال والإدلال، والصولة على الناس، اللهم إلا أن تقول: سلم، سلم... إلى الممات... فهذه آداب القبض والبسط في العبودية جميعا...".

السرور بالله:

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن البسط الذي يعتري أحدهم من شعوره بنشوة انتسابهم إلى الله بالعبودية، وجذب الله إياهم إليه بجاذب الولاية، المعبر عنها قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (البقرة: 257)، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (محمد: 11).. هو بسط سالم من الآفات وسوء العواقب، وليس فيه ما قد يحمل صاحبه على التهاون في أداء الواجبات، وإنما هو حال من السرور تعتري أحدهم، إذ يجد نفسه مشدودا إلى الله بنسب العبودية له، والدخول تحت مظلة ولايته له.. فتحدث له نشوة وأذواق ومواجيد بديعة، وربما سميناهذه الحال لدى كثير منهم: السرور بالله "

❁ ❁ ❁

"رُبَّما أفادَكَ في لَيْلِ القَبْضِ ما لَمْ تَسْتَفِدْهُ في إشْراقِ نَهارِ البَسْطِ...

﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ (النساء: 11)

القبض والبسط - كما تقدم - حالتان يتعاقبان على الإنسان كتعاقب الليل

والنهار فالليل محل السكون والقرار، والنهار محل التحرك والانتشار، القبض لا حظ فيه للنفس، والبسط تأخذ النفس حظها منه، وما لا حظ فيه للنفس أقرب للسلامة وأعظم للإفادة.

فالقبض كالليل، والليل محل المناجاة والمصافاة، وملاقاة الأحباب ورفع الحجاب، فربما أفادك في ليل القبض من انخناس النفس، وذهاب الحس، أو موالاة الأنس، ما لا تستفيده في نهار البسط.

فالقبض له فوائد، والبسط له فوائد، من تحصيل العلوم، وتحقيق الفنون، ومجالسة الأخيار، ومخالطة الأبرار والعبد لا يدري أيهما أقرب له نفعا، فتعين الوقوف مع ما يواجهه من جهة الحق، فيتلقاه بالأدب والقبول، والرضا والسكون.

والعارف الذي يعرف الحكمة في القبض والبسط:

- في حال بسطه إذا راقب نفسه وتذكر أخطاءها.. انقبض.
- وفي حال قبضه إذا راقب الله وتذكر فضله.. انبسط.

فلله الحمد والمنة في كل الأحوال والأوقات...

۞ ۞ ۞

صفحة بيضاء- تترك فارغة

الفصل الثاني عشر

في الأوقات وعلو الهمة

"رُبَّ عُمُرٍ اتَّسَعَتْ آمادُهُ وَقَلَّتْ أمْدادُهُ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَليلَةٌ آمادُهُ كَثيرَةٌ أمْدادُهُ"

رب هنا للتكثير في الموضعين، والآماد جمع أمد، وهو غاية الشيء ومنتهاه، والمراد هنا غاية العمر، والأمداد جمع مدد، وهو كل ما يحظى به الانسان من التوفيق والفتح والفوائد.

ومعنى الحكمة أن كثيرا من الناس طالت أعمارهم، واتسعت أزمنتهم، وقلت أمدادهم: أي فوائدهم، فلم يحصلوا شئ حيث اشتغلوا بالبطالة والتقصير، فمضت أيامهم كطيف منام، أوأضغاث أحلام...

وكثير من الأعمار قلت آمادهم: أي أزمنتهم، وكثرت أمدادهم أي فوائدهم، فأدركوا من فوائد العلم والأعمال والمعارف والأسرار في زمن قليل ما لم يدركه غيرهم في الزمن الكثير (وتأمل مثلا سيرة الإمام النووي حيث مات شابا وقد ترك هذه المؤلفات العظيمة، وكذلك سيرة الإمام الشهيد حسن

البنا رحمه الله، وبركة أعماله حيث أنه حين قتل لم يتجاوز عمره الثانية والأربعين، وغيرهم)، ومن البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك في عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في السنة ما يرتفع له في عشرين سنة.

لطيفة: البركة في الزمان:

البركة هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، والمبارك: ما فيه ذلك الخير، أي: حيث يوجد الخير الإلهي (الرغب الأصفهاني).

نعيش في هذه الدنيا في مكان وزمان، فالأحداث كلها لايتم وصفها إلا بتحديد المكان والزمان الملازمان لها. وعالم المكان نستطيع تحديده وقياسه ماديا، أما عالم الزمان فهو بعد تخيلي نحتال لقياسه عن طريق المكان (مثل حركة عقارب الساعة، أو دوران الأرض)، والمكان له أبعاد ثلاثة: طول وعرض وارتفاع، أما الزمان فهو يتحرك على محاور ثلاثة: ماضي وحاضر ومستقبل، مقسمة على نقطة تتحرك دوما هي الحاضر المطلق، وهي ما نعنيه بالوجود الانساني... الماضي ثابت، والحاضر واقع، والمستقبل مفتوح، وللزمن خواص غامضة كعالم الروح، فهو قابل للتمدد والانقباض كالوعاء المطاطي، ويسمح بذلك بسر البركة.

"مَنْ بُورِكَ لَهُ في عُمُرِهِ أدْرَكَ في يَسيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعالى ما لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوائِرِ العِبارَةِ وَلا تَلْحَقُهُ الإشارَةَ"

إذن ليست البركة في العمر بكثرة أيامه وطول أزمانه، وإنما البركة في العمر أن تصحبه العناية، وتهب عليه ريح الهداية، فيدرك في يسير من الزمان من منن الله تعالى: أي من علومه ومعارفه وأسراره ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، لأن ما أدركه أوسع من ضيق العبارة، قال الله تعالى في الحديث القدسي عن نعيم الجنة الذي يصعب وصفه بالعبارة، أو ادراكه بالوصف: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" (البخاري ومسلم).

فقد يدرك السالك من دقائق الأسرار ما تعجز عنه عبارة اللسان في أقل زمان، وغالب هذا يحصل من العبادات القلبية، وملاقاة رجال التربية الربانيين وصحبتهم، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" (صحيح مسلم).

قال أبو عبد الله: فيجب على السالك أن يعمل على اغتنام أوقاته، ويستفرغ في ذلك مجهوده بالكلية، وفي أثناء ذلك تصل إليه من المنح الإلهية ويشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه، ولا تنتهي الإشارة إليه، وكل ذلك في عمر قصير وزمن يسير.

" ما فاتَكَ مِنْ عُمُرِكَ لا عِوَضَ لَهُ، وَما حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لا قيمَةَ لَهُ "

لا قيمة له: يعني لا قيمة تفي بقدره (يعني قيمته أكبر من أن تقدر).

فعمر المؤمن هو رأس ماله، فيه ربحه وخسارته، فمن شد يده عليه كان من الفائزين، ومن ضيعه في البطالة والتقصير كان من الخاسرين، فما فات منه في غير طاعة ربه لا عوض له، لأن ما ذهب لا يرجع أبدا، وما حصل لك منه لا قيمة له تفي بقدره، إذ لو اشتريت ساعة منه بملء الأرض ذهبا لكان نزرا يسيرا في حقه، لأن ساعة منه تذكر الله فيها تنال بذلك ملكا كبيرا ونعيما مقيما، لو بيعت الدنيا بحذافيرها ما بلغت منه عشر العشر، ولأجل هذا المعنى اشتدت محافظة السلف الصالح على الأوقات وبذلوا مجهودهم في اغتنام الساعات، ولم يقنعوا من أنفسهم إلا بالجد والتشمير، ولم يسمحوا لها في الراحة والبطالة بقليل ولا كثير...

وجاء في الحديث: "لا تأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة" (أحمد)، وقال علي كرم الله وجهه: بقية عمر العبد ما لها ثمن، يدرك بها ما فات، ويحيي بها ما مات.

وقال الحسن البصري: أدركت أقواما كانوا على أنفسهم وأوقاتهم أشد حفظا وأحرص شفقة، منكم على دنانيركم ودراهمكم، كما لا يخرج أحدكم درهمه ولا ديناره إلا في ورود منفعة واستجلاب فائدة، كذلك كانوا لا يضيعون نفسا من أنفاسهم في غير طاعة أبدا، وكان سيدنا علي رضي الله عنه يقول لفاطمة بنت رسول الله ﷺ: إذا صنعت طعاما فميعيه (أي اجعليه مائعا خفيفا) فإن بين المائع واليابس خمسين تسبيحة.

ويقال أن ساعات الليل والنهار تبعث يوم القيامة خزائن مصفوفة أربعا وعشرين خزانة، فمن كان عمرها في الدنيا بطاعة الله رآها خزائن معمورة بالنعيم، ومن كان ضيعها رآها خزائن فارغة خاوية، فيتحسر عليها ويندم.

۞ ۞ ۞

" إِحالَتُكَ الأَعْمالَ عَلَى وُجودِ الفَراغِ مِنْ رُعُوناتِ النَفْسِ "

إذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه، وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة، وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال، وقال: إذا تفرغت عملت، فذلك من رعونة نفسه: أي حمقها...

فمن آداب العابد أن يكون كامل العقل، ومن علامة ذلك انتهاز الفرصة في العمل دون تسويف، إذ ما فات منه لا عوض له، وفي الأثر: " ألا وإن من علامة العقل: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور ".

وقال ﷺ: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله " (سنن الترمذي) الكيس: العاقل.

وروي أنه جاء في صحف إبراهيم عليه السلام: "... وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شانه، حافظا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ".

فإحالتك الأعمال وتأخيرها إلى وقت آخر تكون فيه فارغ القلب أو القالب من علامات الرعونة والحمق، وهو غرور، فالموت يهجم فجأة من حيث لا تشعر، فالناس كلهم يقفون في الطابور الممتد أمام بوابة الموت، ولا أحد يدري، أو حتى يفكر: أهو يقف في أوله.. أم في آخره، أم فيما بين طرفيه... وعلى تقدير وصولك لفراغ من جانب، لا تأمن من شغل آخر يعرض لك، لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض، وفراغ الأشغال أمر نادر لقوله ﷺ: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ" (صحيح البخاري)، أي كثير من الناس فقدوهما وغبنوا فيهما، فتجد هذا الكثير إما مشغولا بأمور دنيوية ومعاشية أو مريضا مبتلى، ومفهوم الكثير أن القليل من الناس رزقهم الله الصحة والفراغ، فإن عمروهما بطاعة مولاهم فقد شكروا وربحوا ربحا عظيما، وإن ضيعوهما فقد خسروا خسرانا مبينا وكفروا بهاتين النعمتين، فجدير أن تسلبا عنهم، فالواجب على الإنسان أن يقطع علائقه وعوائقه، ويخالف هواه، ويبادر إلى خدمة مولاه، ولا ينتظر وقتا آخر، إذ إن العبد فقير أشد الفقر الى وقته.

❁ ❁ ❁

" إذْ ما مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إلا ولله عَلَيْكَ فيه حَقٌ جَديدٌ وَأَمْرٌ أكيدٌ.
فَكَيْفَ تَقْضي فيه حَقَّ غَيْرِه وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ الله فيه؟! "

لله تعالى على كل عبد، عند كل حال يحل به، أو وارد يرد عليه، حق جديد

وأمر أكيد، ولا يسعه إلا أن يوفيه إذ ذاك، فكيف يقضي في الوقت الثاني حق غيره (أي الحقوق السابقة)، وهو أيضا له حق جديد يجب عليك أن تؤديه فيه.

۞ ۞ ۞

"مِنْ عَلاماتِ اتِّباعِ الهَوى: المُسارَعَةُ إلى نَوافِلِ الخَيْراتِ، وَالتَّكاسُلُ عَنِ القِيامِ بِالواجِباتِ"

هذه من الصور التي يتبين بها خفة الباطل وثقل الحق على النفس، وما ذكره الشيخ هو حال أكثر الناس، والحكمة تعطي ميزان آخر لأحوال النفس، وشاهد ذلك في الشرع ما ورد في الحديث القدسي:

"وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه... الحديث (صحيح البخاري).

۞ ۞ ۞

وأختم هذا الفصل بهذه الكلمات في سياسة الأوقات من كتابي دستور السعادة:

سياسة الأوقات:

"يا ابن آدم إنما أنا خلق جديد، وإني على عملك شهيد، فاغتنمني فإني لا أعود إلى يوم القيامة".

هكذا ينظر المسلم إلى يومه الجديد، فهو يوم من أيام الله، ونعمة يجب الشكر عليها والقيام بحقوقها، ولهذا علمنا الرسول ﷺ أن نبدأ يومنا بالحمد: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور".

استيقظ في الصباح وقد صممت واستعنت بالله على استغلال اليوم والإفادة القصوى من الساعات الأربع والعشرين المقبلة، وكما قال الإمام المجدد في الوصايا العشر: "اتل القرآن أو طالع أو استمع أو اذكر الله، ولا تصرف جزءا من وقتك في غير فائدة...

الواجبات أكثر من الأوقات فعاون غيرك على الانتفاع بوقته، وإن كان لك مهمة فأوجز في قضائها "

وقال في موضع آخر: "الوقت هو الحياة".. فحياتك ما هي إلا الزمن الذي ينقضي من ميلادك إلى وفاتك، فكل يوم من أيامك إنما هو جزء من حياتك، وفي هذا المعنى قيل: "يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يومك ذهب بعضك".

ولكنه استغلال للوقت بدون حرص مذموم، ولا هم مرذول، إنه التوازن بين حسن الاستغلال للوقت مع الزهد وقصر الأمل، فإنك لا تعيش إلا يومك فقط، فعش في حدوده، قال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: "إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح".

وقال ﷺ: "من تأنى أصاب أو كاد، ومن تعجل أخطأ أو كاد، والعجلة من الشيطان" (حديث صحيح - الطبراني عن عقبة بن عامر).

ويقول مثل صيني "لا تعبر جسرا حتى تصل إليه"، أي لا تستعجل الحوادث والإنشغالات وهمومها قبل وقوعها، فقد لا تقع أصلاً، أو تقع مع المعونة واللطف من الله.

وفي إذكاء الدافعية وعلو الهمة قال الشاعر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قـدر الكـرام المكـارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر قي عين العظيم العظائم

يقول عمر رضي الله عنه: "اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز الثقة"

كثير من أعداء الله عندهم من الدأب والجلد والمثابرة العجب العجاب، وكثير من المسلمين عندهم من الكسل والفتور والتواكل والتخاذل ما الله به عليم..

جولدا مائير كانت تعمل ستة عشر ساعة في اليوم وموشى ديان وغيره مثلها.

هذا وألوف من المسلمين لا يعملون ولو ساعة، إنما هم في لهو وأكل وشرب ونوم وضياع.

قال تعالى: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ (التوبة: 87).

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: 95).

واحترس من التكاسل، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (التوبة: 46)

من "نشيد الحياة"

(لأبي القاسم الشابي)

إذا الشعب يوما أراد الحياة — فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي — ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة — تبخر في جوها، واندثر
كذلك قالت لي الكائنات — وحدّثني روحها المستتر
ودمدمت الريح بين الفِجاج — وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحت إلى غاية — ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم أتجنب وعور الشعاب — ولا كبُّةَ اللهب المستعر
ومن لا يحب صعود الجبال — يعش ابد الدهر بين الحفر
فعجّت بقلبي دماء الشباب — وضجت بصدري رياح أُخر
وأطرقت أصغي لقصف الرعود — وعزف الرياح، ووقع المطر
ومد على الكون سحر غريب — يصرّفه ساحر مقتدر
ورفرف روح غريب الجمال — بأجنحة من ضياء القمر
واعلن في الكون أن الطموح — لهيب الحياة وروح الظفر
إذا طمحت للحياة النفوس — فلا بد أن يستجيب القدر !

الفصل الثالث عشر

في العلم والبيان

"كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز"

علامة الكلام الذي يسبقه التنوير هو تأثيره في القلوب وتهييجه الأرواح، فإذا سمعه الغافل تنبه، وإذا سمعه العاصي انزجر، وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه وعظم شوقه، فالكلام صفة المتكلم، فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع في قلوب السامعين، فالكلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز...

وقيل الناس حوانيت مغلقة فإذا تكلموا فقد فتحوا، هناك يتبين البيطار من العطار...

وقالوا أيضا: الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان... وإنهاض الحال أكثر من المقال...

وقد يكون من الناس من هو عالم اللسان جاهل القلب، وعلامته ترجيح حديث الدنيا على حديث الآخرة، أو حديث الحس على حديث المعنى، ومن مثل هذا الحذر الحذر، لأن قلبه ميت، فكلامه كله على الميتة، والميتة هي الجيفة

- هي الدنيا كما مثلها الأثر: " الدنيا جيفة وطلابها كلاب "، فمن كان همه الدنيا فمثله كالكلب فتأمل ! - قاله الشطيبي.

والحاصل أن من اجتمع فيه الحال وفصاحة المقال فهو أكمل، وذلك لأنه ينتفع بكلامه بعد موته: كالغزالي والششتري والشيخ ابن عطاء الله وأمثالهم رحمهم الله... فقد عظم النفع بكلامهم...

۞ ۞ ۞

"رُبما بَرَزَتِ الحَقائِقُ مَكسوفَةَ الأنْوارِ إذا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فيها بِالإظْهارِ"

قال أبو العباس: الولي يكون مشحونا بالمعارف والعلوم حتى إذا أعطى العبارة كان ذلك كالإذن من الله في الكلام ، وقال أيضا : كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فيتقبل من أحدهما وترد على الآخر ..

وقال ابن عطاء الله في "لطائف المنن" : من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة ..

قال ابن عجيبة: وينبغي لأهل التعبير أن يخاطبوا الناس بقدر ما يفهمون، ففي الحديث : "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة" (صحيح مسلم) ، وفي الأثر: "خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون ".

۞ ۞ ۞

" مَنْ أُذِنَ لهُ في التَّعْبيرِ حسنتْ في مَسامعِ الخَلْقِ عِبارَتُه، وَجُلِّيَتْ إلَيْهِمْ إشارَتُهُ "

قال الجنيد: المأذون له في التعبير هو الذي يتكلم لله وبالله وفي الله، ولذلك كان كلامه صوابا ... قيل لحمدون بن أحمد القصار: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق ..

ولا عبرة عند المحققين بلحن الكلام وإعرابه ، وإنما العبرة بالمعاني .. دون القوالب والأواني ...

يحكى أن بعض النحويين دخل أحد المجالس ليسمع كلاما ، فلما وجد المتكلم يلحن (يخطيء في النحو) انصرف ذاما له ، فكتب له : إنك من كثرة الإعجاب رضيت بالوقوف دون الباب ، فاعتمدت على ضبط أقوالك مع لحن أفعالك ، وإنك قد تهت بين خفض ورفع ونصب وجزم ، فانقطعت عن المقصود ، هلا رفعت إلى الله جميع الحاجات ؟ وخفضت كل المنكرات ، وجزمت عن الشهوات ، ونصبت بين عينيك الممات ؟ والله يا أخي ما يقال للعبد لم تكن معربا ، وإنما يقال له لم كنت مذنبا .. ليس المراد فصاحة المقال ، وإنما المراد فصاحة الفعال ، ولو كان الفضل في فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى حيث يقول : ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ (القصص: 34)...

❁ ❁ ❁

" تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير "

الحكمة والحكماء:

قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة: 269)

جاء في تفسير ابن كثير في هذه الآية الكريمة:

" وَالصَّحِيح أَنَّ الْحِكْمَة كَمَا قَالَهُ الْجُمْهُور لا تَخْتَصّ بِالنُّبُوَّةِ بَلْ هِيَ أَعَمّ مِنْهَا، وَأَعْلاهَا النُّبُوَّة، وَالرِّسَالَة أَخَصّ، وَلَكِنْ لأَتْبَاع الأَنْبِيَاء حَظّ مِنْ الْخَيْر عَلَى سَبِيل التَّبَع كَمَا جَاءَ فِي بَعْض الأَحَادِيث: مَنْ حَفِظَ الْقُرْآن فَقَدْ أُدْرِجَتْ النُّبُوَّة بَيْن كَتِفَيْهِ غَيْر أَنَّهُ لا يُوحَى إِلَيْهِ.. وعَنْ اِبْن مَسْعُود قَالَ: سَمِعْت رَسُول اللَّه ﷺ يَقُول لا حَسَدَ إِلا فِي اِثْنَتَيْنِ رَجُل آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَته فِي الْحَقّ وَرَجُل آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَة فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمهَا، هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسْلِم ".

والحكماء هم ايضا العارفون بالله، الذين يتكلمون بالله ويصمتون بالله... و"رأس الحكمة مخافة الله".. وقد ورد هذا القول ضمن خطبة منسوبة إلى الرسول ﷺ خطبها في تبوك، وردت في ضعيف الجامع، وفيها معاني حسنة:

"أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى

العمى الضلالة بعد الهدى، وخير العلم ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبرا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا، وأعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما وقر في القلوب اليقين، والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جثا جهنم، والكنز كي من النار، والشعر من مزامير إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حبالة الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المآكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع، والأمر بآخره، وملاك العمل خواتمه، وشر الروايا روايا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتأل على الله يكذبه، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يتبع السمعة يسمع الله به، ومن يصبر يضعف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، أستغفر الله لي ولكم ".

فأعرف الناس بالله أشدهم له خشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: 28)

وسئل مالك عن الحكمة فقال: ما زهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بالحكمة،

ثم قال: من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله في السر أكثر من عمله في العلانية، لأن عمل السر منبع الإخلاص، والإخلاص منبع الحكمة...

وسئل مرة أخرى عن الحكمة أيضا فقال: نور يقذفه الله في قلب العبد المؤمن من فسحة الملك.

فأهل التنوير هم الحكماء، وهم العارفون بالله، فإن أرادوا إرشاد عباد الله تعالى ونصيحتهم بإذن من الله تعالى، سبقت أنوار قلوبهم إلى الله تعالى باللجوء والإفتقار إليه، في أن يتولى لهم أمر قلوب عباده، بأن يجعل فيها أهلية واستعدادا لقبول ما يريدون إيراده عليهم من كلام الحكمة، فيجيبهم إلى ذلك، فإذا تكلموا به تلقته قلوبهم التي وصل إليها أنوار أسرار الحكمة كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم الانتفاع، وكذلك يسري نورهم إلى القلوب المستمعة، وبقدر نور القلب يصل نور الكلام..

" من رأيته مجيبا عن كل ما سئل، ومعبرا عن كل ما شهد
وذاكرا لكل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله "

وذلك لما قد يكون من التكلف، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (ص: 86)

وقد سئل مالك عن اثنتين وثلاثين مسألة فأجاب عن ثلاث وقال في الباقي لا أدري، وأيضا فإن إجابة كل سائل جهل وضرر، إذ قد يكون السائل متعنتا

لا يستحق جوابا، وقد تكون المسألة التي سأل عنها لا تليق به لأنه لا يفهمها ولا يطيق معرفتها فتوقعه في الحيرة أو الإنكار... وفي الأثر: "لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم" وفي ذلك يقول الشاعر:

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ... ولا أنثر الدر النفيس على البهم

فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

قال رسول الله ﷺ: " ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة " (صحيح مسلم)

واستكمالا لشرح الحكمة المذكورة، فإن وجه جهله في كونه معبرا عن كل ما شهد من الكرامات، وما وصل إليه من المقامات، وما ذاقه من الأنوار والأسرار، فلأن هذه الأمور أذواق باطنية، وأسرار ربانية لا يفهمها إلا أربابها ... فذكرها لمن لا يفهمها ولا يذوقها ابتذال لها وجهل بقدرها.

وأيضا هي أمانات وأسرار، وكتم الأسرار من شأن الأخيار، وهتك الأسرار من شأن الأشرار...

وأما وجه جهله في كونه ذاكرا لكل ما علم من الحقائق والعلوم والمعارف فلأنه جهل قدرها، إذ صاحب الكنز لا يبوح به وإلا سلبه من ساعته ...

وقد يرخص للعارف الماهر إلقاء الحقائق مع من يضم من لا يعرفها بعبارة رقيقة وإشارة لطيفة حتى يلتقطها من يستحقها والله أعلم.

صفحة بيضاء- تترك فارغة

الفصل الرابع عشر

في ذم الدنيا والترغيب في العمل للآخرة

" لا تَسْتَغْرِبْ وُقوعَ الأَكْدارِ ما دُمْتَ في هذهِ الدّارِ، فإنَّها ما أَبْرَزَتْ إلّا ما هُوَ مُسْتَحِقُّ وَصْفِها وَواجِبُ نَعْتِها "

الأكدار: كل ما يكدر على النفس ويؤلمها.

لا تستغرب من وقوع الأكدار في هذه الحياة الدنيا، لأن تجليات هذه الدار جلها جلالية، لأنها دار أهوال ومنزل فرقة وانتقال، والأجر والجزاء على الحقيقة إنما هو في دار القرار، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (آل عمران: 185-186).

وفي الحديث، قال رسول الله ﷺ: " الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها" (الترمذي)، وفي الحديث أيضا: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" (صحيح مسلم).

وفي الأثر: "أيها الناس: إن هذه الدار دار تواء (أي هلاك)، لا دار استواء، ومنزل ترح (أي حزن)، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرضائها ولم يحزن لشقائها، ألا وان الله خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببا، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلى ليجزى، وإنها لسريعة التوى، وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها لكربة آجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها وقد أراد الله منكم اجتنابها، فتكونوا لسخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين ".

وقال بعضهم: الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئا، فليصبر على معاشرة الكلاب.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "من سعادة العبد أن يمارس عبوديته لله بسلوكه الاختياري، كما أنه قد خلق عبدا له سبحانه بالواقع الاضطراري، وذلك من خلال تنفيذ أوامره، والخضوع الطوعي لسلطانه وشرعه، فالإنسان كائن مكلف، والتكليف لايسمى تكليفا إلا إن كان ملاحقة للمكلف بما فيه كلفة: أي مشقة.. ومعلوم أن سدى ولحمة التكاليف الإلهية هما الصبر والشكر، ومادة الصبر هي المصائب والشدائد، ومادة الشكر هي النعم والرغائب...

إن الدنيا إنما هي أيام قليلة تافهة بالنسبة لما بعدها، فلا خيرها إن غاض أو غاب مأسوف عليه، ولا شرها إن أقبل أو استفحل مشكلة ذات بال، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ (النساء: 77)

وقال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (آل عمران: 196-197).

بقي أن تعلم أنه لا النعم ولا المتع هي مصدر السعادة، ولا المصائب والأسقام هي مصدر الشقاء، لأن مصدر الشعور بالسعادة والشقاء هو القلب، والقلب هو مكان تجليات الله عز وجل الذي هو أضحك وأبكى ".. انتهى.

فيا أيها العابد.. ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وكن مؤمنا واعمل الصالحات تحيا حياة طيبة، وتخرج من الدنيا وقد نجوت من شرها، وأخذت منها أحسن ما فيها، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل: 97).

ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات في الكتاب البديع: " إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى ونفع به إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

"إنَّما جعَلَ الدّارَ الآخِرَةَ مَحلّاً لِجزاءِ عبادِهِ المُؤْمنينَ؛ لأَنَّ هَذِهِ الدّارَ لا تَسَعُ ما يُريدُ أنْ يُعْطِيَهُمْ. ولِأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدارَهُمْ عَنْ أنْ يُجازِيَهُمْ في دارٍ لا بَقاءَ لَها"

إن الله تعالى وسم هذه الدار بدار الغرور، وحكم عليها بالهلاك والثبور فلذلك سميت الدنيا: إما لدنوها، وإما لدناءتها، فهي ضيقة الزمان والمكان...

ووسم الآخرة بدار القرار، ومحل ظهور الأنوار، وانكشاف الأسرار، محل النضرة والحبور، ودوام النعمة والسرور، محل شهود الأحباب ورفع الحجاب، نعيمها دائم ووجودها على الدوام قائم، فلذلك جعلها الحق تعالى محلا لجزاء عباده المؤمنين، ومقعد صدق للنبيين والصديقين، ولم يرض سبحانه أن يجازيهم في دار لا بقاء لها ضيقة الزمان والمكان، ومحل الأكدار والغيار والذل والهوان، لأنها ضيقة لا تسع ما يريد أن يعطيهم: أي لا يسع فيها ما يريد أن يكرمهم به تعالى زمانا ومكانا... لأن أدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشر مرات، فكيف بأعلاهم... قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ (السجدة: 17).

وقال ﷺ: "قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر " (البخاري ومسلم)

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "المراد بالجزاء في هذه الحكمة، ما وعد الله به عباده الصالحين من النعيم المقيم في جنات النعيم، وهذا الجزاء العظيم شاء الله سبحانه أن يؤجل ميقاته إلى يوم القيامة، ولكنه يشمل ما وراءه من الأعطيات والمنن التي يكرم بها الصالحين من عباده في دار الدنيا، وهو ما

سيشير إليه ابن عطاء الله في حكمة تالية، إذ يقول: جل ربنا أن يعامله العبد نقدا، فيجازيه نسيئة.. ومن حكمة تأخير الجزاء للآخرة، أن دار الدنيا تتعارض من حيث ذاتها مع نوع الأجر الذي أعده الله لعباده، إذ أن من أخص خصائص الدنيا فناؤها وعدم بقائها، في حين أن من أخص خصائص الأجر الذي قضى به الله لعباده بقاؤه وعدم فناؤه، فكيف يكون الفاني وعاء أو محلا للباقي؟ كما أن الدنيا مليئة بالمنغصات والابتلاءات، إذن فهذه الدنيا بكل ما فيها من شدة ورخاء، وخير وشر، لا تصلح أن تكون محلا للأجر العظيم الذي وصفه الله تعالى في كتابه، والذي أعده لعباده الصالحين، كما أن الدنيا تعتبر بوابة وممرا للآخرة، وبما أن الممر ليس من شأن الإنسان أن يقيم فيه، فكان من الأفضل أن يخلو عما يغريه بالركون إليه وبالبقاء فيه، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ (النساء: 77).

وفي معنى مقارب قال ابن عطاء الله في إحدى رسائله:

"وإنه لابد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه، وأن تسلب كرائمه"

تسلب كرائمه: المراد زوال بهجته وجماله، وهي زينة الدنيا:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ (يونس: 24).

وسلب الكرائم من الاستعارات البديعة... فمن تيقن بفناء هذا الوجود،

وزوال هذا العرض الفاني، جعل الدنيا محلا للعبور يعبر منها إلى دار البقاء، فيصبر على شدتها ولأوائها حتى تنقضي عنه أيامها...

ذكر هذا المعنى تسلية للعبد عما يفوته في حال سلوكه من حظوظه وشهواته، لأنه إذا علم أن هذه الأشياء لابد أن تزال عنه هانت عليه، فقد حكم الله على هذا الوجود الظاهر أن يصير باطنا، فلابد أن تنهدم دعائمه، ويتبدل خلقاً آخر، قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ (إبراهيم: 48)،

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ (القصص: 88)،

❁ ❁ ❁

"الأَكْوانُ ظاهِرُها غِرَّةٌ وَباطِنُها عِبْرَةٌ"

الأكوان هنا كل ما يمكن أن يكون للنفس فيه حظ من متاع الدنيا وزهرتها.... الغرة: الخداع

وإنما كانت الأكوان ظاهرها غرة لما جعل الله سبحانه على ظاهرها من البهجة وحسن المنظر، وما تشتهيه النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب وشهوة المناكح والمساكن والبساتين، وغير ذلك من بهجتها وزهرتها وزخرفها، فانكب جل الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها، والجري عليها بالليل والنهار، والشهور والأعوام، حتى هجم عليهم هادم اللذات، فأعقبهم

الندم والحسرات، ولم ينفع الندم وقد جف القلم... سافروا بلا زاد، وقدموا على الملك بلا تأهب ولا استعداد، فاستوجبوا من الله الطرد والبعاد، ولأجل هذا حذر الله من غرورها وزخرفها، والوقوف مع ظاهرها، قال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران: 14)

ثم قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ (آل عمران 15).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ (الكهف: 7)،

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ (طه: 131)، أزواجا منهم: أي أصنافا منهم.

وفي نصيحة علي كرم الله وجهه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه، تحذيراً من الدنيا "... ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمئن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه".

فأهل الحزم واليقظة نفذوا إلى باطنها فعرفوا سرعة ذهابها وقلة بقائها،

فاشتغلوا بجمع الزاد وتأهبوا ليوم الميعاد.. لهم الخير العجيب.. وعندهم الخير العجيب.

۞ ۞ ۞

" فَالنَّفْسُ تَنْظُرُ إلى ظاهِرِ غِرَّتِها، وَالقَلْبُ يَنْظُرُ إلى باطِنِ عِبْرَتِها "

فأهل النفوس وحظوظها، وقفوا مع ظواهر الأشياء، واغتروا بعاجلها ولم يهتموا بآجلها، فحجبوا عن العمل، وغرهم الأماني وطول الأمل، أما أهل القلوب فنفذوا إلى بواطن الأمور واهتموا بآجلها ولم يغتروا بعاجلها، فاشتغلوا بالجد والاجتهاد، وأخذوا في الأهبة والاستعداد، وهم العباد والزهاد: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة: 22)، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه...

۞ ۞ ۞

" إنْ رَغَّبَتْكَ البِداياتُ زَهَّدَتْكَ النِهاياتُ.
إنْ دَعاكَ إلَيْها ظاهِرٌ نَهاكَ عَنْها باطِنٌ "

فمن عرف الدنيا بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها، ومن كوشف له بعاقبتها لم تستهوه زخرفها، فهي من حيث ظاهرها محبوبة حلوة خضرة، وبالنظر إلى باطنها جيفة قذرة... وتأمل الحديث: " إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا

و ضرب مطعم ابن آدم مثلا للدنيا وإن قَزَحه و ملّحه (أي أكثر ملحه وتوابله) فانظر إلى ما يصير؟" (صحيح الجامع الصغير).

وفي حديث مماثل آخر سأل رسول الله ﷺ أحد الصحابة: " يا ضحاك ! ما طعامك؟ قال: يا رسول الله! اللحم واللبن قال: ثم يصير إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت، قال: فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا " (صحيح الترغيب)

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "هذه الدنيا التي من حولنا لها ظاهر سطحي تراه العين وتتأثر به النفس، ولها باطن خفي يدركه العقل المتدبر.. فأما ظاهرها السطحي فزينة وزخارف تأخذ الأبصار وتغر النفوس، وأما باطنها الخفي فمبعث للاعتبار ومصدر للحذر من سوء العواقب.. والدنيا التي تتحدث عنها هذه الحكمة، هي ما تجاوز حاجة المسلم في طريقه إلى الله، فكل ما شغلك بالله أو أعانك في التقرب منه، فهو من الدين أو من ملحقاته، وكل ما شغلك عن الله أو حجبك عنه فهو من الدنيا أو من ملحقاتها.. إن النفس غالبا ما تعيش في الحاضر ولا تقيم وزنا كبيرا للمستقبل وما قد يأتي به، ولكن القلب اليقظ الحي عندما ينظر إلى نعيم الدنيا وزخارفها ومشتهياتها، إنما ينظر إليها من خلال ما ستؤول إليه ومن خلال ما قد تكون سببا له.. فيا أيها العابد: إذا وجهت اهتماماتك ورغباتك إلى البعيد، إلى المآلات التي أنت مقبل إليها، تجد أن سائر كنوز الدنيا ومتعها التي من حولك غدت تافهة، إلا بمقدار ما تكون سبيلا إلى تلك المآلات والغايات..

أتذكرون يوم كنا أطفالاً صغاراً، ما الدنيا التي كنا نعشقها ونتعلق بها؟ إنها لعب تافهة كنا نعتبرها كنوزا وقتها، ونعتبرها غاية المنى، ننظر إليها اليوم فلا نعيرها أي أهمية، ولا نجد لها أي قيمة.. كانت تلك دنيانا آنذاك.. وكلما تجاوزنا مرحلة من محطات عمرنا ظهرت متطلعات جديدة ولعب جديدة ودنيا جديدة تهون السابقة إلى جانبها، وتكبر التي تليها.. ذلك هو واقع الحياة الإنسانية بمراحلها المختلفة طبق قانون النسبية التي يخضع لخداعها الإنسان، إذا حبست نفسك فيما أنت فيه، يعظم في ناظرك الشيء الصغير، ويكبر أمامك الأمر الحقير، وتبدو لك التوافه كنوزا لا غنى عنها، ولكن إذا رميت بآمالك وبصيرتك إلى المآل والمستقبل الذي أنت متجه إليه، يصغر عندئذ في ناظرك هذا الكبير، ويهون العظيم، وتبدو تافهة وحقيرة تلك الكنوز..

ولا تنتهي هذه الأطوار إلا عندما يرتفع الغطاء عن عين الإنسان وبصيرته، ويرى أمامه الحقيقة المطلقة التي كان غافلا عنها، قال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (ق: 22).. انتهى

❁ ❁ ❁

"إنْ أرَدْتَ أنْ لا تُعْزَلَ فلا تَتَولَّ وِلايَةً لا تَدومُ لَكَ"

ولايات الدنيا مما يتنافس عليها الناس - تفنى وتنقطع، ويعقبها ذل وفقر، والولاية التي تدوم هي الولاية التي تأتي من جهة الإقبال على الله، وهي العز بالله والغنى به، والمعرفة له، والغيبة عما سواه، فلا شك أن هذه ولاية لا تنقطع، وشرف لا ينفد، وعز لا يبيد..

وأيضا الولاية التي تدوم تنسحب عليه وعلى ذريته من بعده، فكل من عظمت ولايته دامت على أولاده وأتباعه بقدر بركة تلك الولاية وهو معنى قوله تعالى في بعض التفاسير: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ (النساء: 9)، أي: فإن الله يحفظه فيهم...

وأيضا تأمل أثر صلاح الأب في عناية الله لذريته من بعده في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (الكهف: 82)

وفي الأثر: "من أراد أن يحفظه الله في عقبه، وعقب عقبه، فليحفظ الله في نفسه".

قال سعيد حوى رحمه الله: ولكن إذا كان أدب المسلم الفرار من فتن

الدنيا، فإن واجبه إذا تعينت عليه فريضة عينية أن يقيمها، أو إذا تعين هو لفريضة كفاية ليقوم بحق الله فيها... كولاية يقيم بها حقا أو شرعا، أو يخفف فيها ضررا عن المسلمين - وكان باستطاعته ذلك ولا يترتب على قبوله لها فتنة له أو ضرر لا يطيقه - فواجب عليه أن يقبل الولاية في هذه الأحوال، وعندئذ فهو مأجور مبرور عابد، لأنه زاهد فيها ولا يرغبها أصلا.

قال الله تعالى على لسان سيدنا يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف: 55).

وأنت إذا أطلقت نفسك، وجعلتها غرضا لسهام أقدار ربك، لا تعارضه فيما يفعل بك، لا شك أنك تستريح ويدوم فرحك، لأنك حينئذ منتظر ما يبرز من عند الحبيب، فتلقاه بالرضا والترحيب، وهذه حلاوة برد الرضا والتسليم.. فإن صحبها شهود الفاعل المختار فهو النعيم المقيم، وهذه هي الولاية الكبرى، من تقلدها لا يعزل عنها أبدا.

❁ ❁ ❁

" عِلمَ أنَّكَ لا تَقْبَلُ النُّصْحَ لمُجَرَّدِ القول، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَواقِها ما يُسَهِّلُ عَلَيْكَ فِراقِها "

لما أراد سبحانه أن يصطفي لحضرته من يشاء من عباده، نغصها عليهم وشدد عليهم البلاء والمحن، وأجرى على ظاهرهم مواقع الفتن، كل ذلك عناية بهم ليذوقوا مرارة باطنها فلا يغتروا بحلاوة ظاهرها... فما من أحد في

الدنيا إلا وهو معرض لأكدارها، فإذا نزل به ذلك عادت النعمة نقمة، وانقلبت الحبرة عبرة، وصارت الفرحة ترحة، وهكذا شأن الدنيا أبدا...

جاء في تفسير ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ ﴾ (يونس: 62-63):

"يُخْبِر تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ: هُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، كَمَا فَسَّرَهُمْ رَبّهمْ، فَكُلّ مَنْ كَانَ تَقِيًّا كَانَ للهَّ وَلِيًّا، فَ " لا خَوْف عَلَيْهِمْ " أَيْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَال الآخِرَة " وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ " عَلَى مَا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ عَبْد اللهَّ بْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: أَوْلِيَاء اللهَّ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللهَّ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا فِي حَدِيث مَرْفُوع كَمَا قَالَ الْبَزَّار عن اِبْن عَبَّاس قَالَ: قَالَ رَجُل يَا رَسُول اللهَّ مَنْ أَوْلِيَاء اللهَّ؟ قَالَ " الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللهَّ ".

وَقَالَ اِبْن جَرِير عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ: " إِنَّ مِنْ عِبَاد اللهَّ عِبَادًا يَغْبِطهُمْ الأَنْبِيَاء وَالشُّهَدَاء "، قِيلَ مَنْ هُمْ يَا رَسُول اللهَّ؟ لَعَلَّنَا نُحِبّهُمْ، قَالَ " هُمْ قَوْم تَحَابُّوا فِي اللهَّ مِنْ غَيْر أَمْوَال وَلا أَنْسَاب، وُجُوههمْ نُور، عَلَى مَنَابِر مِنْ نُور، لا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاس وَلا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاس، " ثُمَّ قَرَأَ " أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهَّ لا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ".

وَفِي حَدِيث الإِمَام أَحْمَد عَنْ أَبِي مَالِك الأَشْعَرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ:

"يَأْتِي مِنْ أَفْنَاء النَّاس وَنَوَازِع الْقَبَائِل قَوْم لَمْ تَتَّصِل بَيْنهمْ أَرْحَام مُتَقَارِبَة، تَحَابُّوا فِي اللهَّ وَتَصَافَوْا فِي اللهَّ، يَضَع اللهَّ لَهُمْ يَوْم الْقِيَامَة مَنَابِر مِنْ نُور فَيُجْلِسهُمْ عَلَيْهَا، يَفْزَع النَّاس وَلا يَفْزَعُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاء اللهَّ الَّذِينَ لا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ".. انتهى

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَتَـٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٌ ﴾ (النساء: 77)، جاء في ابن كثير:

"وَقَوْله سبحانه: قُلْ مَتَاع الدُّنْيَا قَلِيل، وَالآخِرَة خَيْر لِمَنْ اِتَّقَى ": أَيْ آخِرَة الْمُتَّقِي خَيْر مِنْ دُنْيَاهُ، وَهَذِهِ تَسْلِيَة لَهُمْ عَنْ الدُّنْيَا وَتَرْغِيب لَهُمْ فِي الآخِرَة. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم عَنْ هِشَام قَالَ: قَرَأَ الْحَسَن: " قُلْ مَتَاع الدُّنْيَا قَلِيل "، قَالَ: رَحِمَ اللهَّ عَبْدًا صَحِبَهَا عَلَى حَسَب ذَلِكَ، وَمَا الدُّنْيَا كُلّهَا أَوَّلهَا وَآخِرهَا إِلا كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَة، فَرَأَى فِي مَنَامه بَعْض مَا يُحِبّ، ثُمَّ اِنْتَبَهَ. وَقَالَ اِبْن مَعِين: كَانَ أَبُو مِصْهَر يُنْشِد: وَلا خَيْر فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ اللهَّ فِي دَار الْمُقَام نَصِيب، فَإِنْ تُعْجِب الدُّنْيَا رِجَالا، فَإِنَّهَا مَتَاع قَلِيل وَالزَّوَال قَرِيب".

بل إن فتوحات الدنيا قد تكون استدراجا خطيرا، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَـٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأنعام: 44): قَالَ مُكِرَ بِالْقَوْمِ وَرَبّ الْكَعْبَة، أُعْطُوا حَاجَتهمْ ثُمَّ أُخِذُوا رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم، وَقَالَ قَتَادَة: بَغَتَ الْقَوْم أَمْر اللهَّ، وَمَا أَخَذَ اللهَّ قَوْمًا قَطُّ إِلا عِنْد سَكْرَتهمْ وَغِرَّتهمْ وَنِعْمَتهمْ، فَلا تَغْتَرُّوا بِاَللهَّ، فَإِنَّهُ لا يَغْتَرّ بِاَللهَّ إِلا الْقَوْم الْفَاسِقُونَ ".

وهذه الحكمة أساس في شأن من استحكم فيه حب العاجلة وتمكنت من باطنه ولم ينفعه النصح المجرد، فاعرف قدر النعمة عليك بذلك، وسلم لربك في حكمته وقدرته، وأحسن ظنك به.

❁ ❁ ❁

" لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نورُ اليَقينِ لَرأيتَ الآخرَةَ أَقْرَبَ إليْكَ مِنْ أنْ تَرْحَلَ إليْها، ولَرأيْتَ مَحاسِنَ الدُّنْيا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفناءِ عليْها."

اليقين: هو العلم الذي لا يزاحمه وهم، ولا يخالطه ريب، هو العلم إذا صحبته الطمأنينة ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب، إشراق نوره: هو ظهور أثره على الجوارح، فيظهر فيها الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ويظهر منه الإقبال علي الله، والاشتياق إليه سبحانه، والمسارعة إلى ابتغاء مرضاته، والمبادرة إلى مظان محابه، ولهج اللسان بذكره، وشغل القلب بالفكر في عظمته، وهيمان الروح في حضرة قربه، فهذه علامة إشراق نور اليقين في القلب، فلو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة الآتية حاضرة لديك، أقرب إليك من أن ترحل إليها، إذ هي الراحلة إليك والمدركة لك، ولرأيت محاسن الدنيا الوهمية الفانية قد ظهرت كسفة الفناء عليها: أي قد انكسف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها، وإنما أبعد ذلك عن الخلق ضعف إيمانهم وقلة نور إيقانهم، ولو أشرق نور اليقين في قلوبهم، لرأوا الدنيا مكسوفة أنوارها، بادية عوارها، كما رآها حارثة رضي الله عنه ، جاء في الحديث: " بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله

شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنا بالله حقا، فقال له: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا (أي أدبرت وهربت)، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، فكأني بعرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال له: أبصرت فالزم، عبد نور الله الإيمان قلبه "، (قال يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ)، " وقتل يوم بدر شهيدا، فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله قد علمت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر، وان لم يكن في الجنة ترى ما أصنع، فقال: أوهبلت؟ أجنة هي؟ إنها جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى، فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ يا حارثة " (النص حديثان رويا بأسانيد متعددة، في الطبراني ومسند الإمام أحمد).

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي: اليقين نور يجعله الله في قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته، ويخرق به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهد لها، فيبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة في الدنيا، والتجافي عن زهرتها، والإقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها، ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح الصدر بذلك النور كما ورد في الأثر السابق، والمنسوب إلى الرسول ﷺ، والله أعلم.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "ما الذي يحجب الإنسان عن رؤية أحداث الآخرة التي يصفها بيان الله تعالى، وكأنها مشاهد تجري أمام أعيننا اليوم؟ إنه حجاب المشاهد الدنيوية القائمة أمامنا، فهو سور مضروب بيننا وبين ما نحن مقبلون إليه.. وهناك سبيل من شأنه أن يقضي على كثافة هذا السور أو الحجاب الدنيوي، فإذا هو كالزجاج الصافي النظيف الشفاف، يشعرك بوجوده ولكنه يبصرك بما وراءه.. إنه السبيل الذي ينمي نور اليقين في الآخرة، إنه التذكر والتطلع الدائم إلى ما عند الله، وإلى الثقة المطلقة في وعده ووعيده.. إن الدنيا بكل ما فيها من محاسن ومغريات وعبر، إما أن تكون حجابا تبعد المقبل إليها عن الآخرة، وإما أن تكون منبها إليها ومذكرا بها.. فمن أقبل إليها وتعامل معها ذاكرا الله دائما، منتبها إلى الأيام الثقيلة الوافدة إليه من ورائها، رآها كالدهليز الذي يدخل منه الوافد إلى الدار، لا يحفل به إلا من خلال أنه طريق ينتهي به إلى مستقره القاصد إليه.. فالدنيا لا تكون حجابا عن رؤية الآخرة لمن داوم على مراقبة الله وذكره، وكان دأبه ربط النعم بالمنعم، والمخلوق بالخالق، فهو ينظر إلى الدنيا فيرى الآخرة من خلالها.. وهو عندما يمعن النظر إليها يجد نذير الفناء ملازما لها واضحا عليها، إذ لا يبقى شيء من ألقها أو نعيمها على حاله قط: يولد كل شيء برعما، ثم يتفتح مكسوا بمظهر من الرواء والجمال، ثم ما هو إلا أن يذبل، وتتجرد عنه كسوة الجمال، وإذا هو أثر بعد عين، وخيال يحتضنه الوهم.. تلك هي المراحل الثلاث التي لابد أن يمر بها كل ما على هذه الأرض.. تتلو على سمعك دائما نشيد الغروب والفناء... وهذا ما يعنيه ابن عطاء الله بكلمته البليغة الجامعة: " ولرأيت

محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها "، وكسفة الشيء سوء حاله، وصدق الله القائل: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ (الحديد 20).

جاء في تفسير ابن كثير في قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ ﴾ (الرحمن 26-27):

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّ جَمِيع أَهْل الأرْض سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ، وَكَذَلِكَ أَهْل السَّمَاوَات إلا مَنْ شَاءَ اللهُ، وَلا يَبْقَى أَحَد سِوَى وَجْهه الْكَرِيم، فَإِنَّ الرَّبّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ لا يَمُوت بَلْ هُوَ الْحَيّ الَّذِي لا يَمُوت أَبَدًا، وَفِي الدُّعَاء الْمَأْثُور: " يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا بَدِيع السَّمَوَات وَالأرض يَا ذَا الْجَلال وَالإِكْرَام، لا إِلَه إلا أَنْتَ، بِرَحْمَتِك نَسْتَغِيث، أَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ وَلا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسنَا طَرْفَة عَيْن وَلا إِلَى أَحَد مِنْ خَلْقك "، وَقَالَ الشَّعْبِيّ إِذَا قَرَأْت: " كُلّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ " فَلا تَسْكُتْ حَتَّى تَقْرَأ: " وَيَبْقَى وَجْه رَبّك ذُو الْجَلال وَالإِكْرَام"، وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالَى: "كُلّ شَيْء هَالِك إلا وَجْهه"، وَقَدْ وصف الله تَعَالَى وَجْههُ الْكَرِيم فِي هَذِهِ الآيَة الْكَرِيمَة بِأَنَّهُ ذُو الْجَلال وَالإِكْرَام: أَيْ هُوَ أَهْل أَنْ يُجَلّ فَلا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاع فَلا يُخَالَف، قَالَ اِبْن عَبَّاس ذُو الْجَلال وَالإِكْرَام: ذُو الْعَظَمَة وَالْكِبْرِيَاء.

وأختم هذا الفصل بهذه النصوص المباركة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾ (يونس: 7-8).

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ۝٢٠﴾ (الحديد: 20).

وجاء في تفسير ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ (هود: 15-16).

عن ابن عباس: إِنَّ أَهلَ الرِّيَاء يُعطَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا، فَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا اِلْتِمَاس الدُّنْيَا، لا يَعْمَلهُ إِلا اِلْتِمَاسا للدُّنْيَا، يَقُول اللهّ تَعَالَى: أُوَفِّيه الَّذِي اِلْتَمَسَ فِي الدُّنْيَا مِنْ الْمَثَابَة وَحَبِطَ عَمَله وَهُوَ فِي الآخِرَة مِنْ الْخَاسِرِينَ. وَقَالَ أَنَس بْن مَالِك وَالْحَسَن: نَزَلَتْ فِي الْيَهُود وَالنَّصَارَى، وَقَالَ قَتَادَة مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمّهُ وَنِيَّته وَطُلْبَته، جَازَاهُ اللهّ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُفْضِي إِلى الآخِرَة وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَة يُعْطَى بِهَا جَزَاء، وَأَمَّا الْمُؤْمِن فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُثَاب عَلَيْهَا فِي الآخِرَة. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيث الْمَرْفُوع نَحْو مِنْ هَذَا.

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ (الإسراء: 18-21).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ (الشورى: 20).

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (الأعلى: 16-17)

وقال رسول الله ﷺ: "من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له " (صحيح الجامع الصغير).

وفي الحديث: "مالي والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال (من القيلولة) في ظل شجرة ثم راح وتركها " (الترمذي)

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: "أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال:" كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، وكان ابن عمر يقول: إذا

أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتابا طويلا قال فيه: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها... ما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، ما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبينا ﷺ مفاتيحها وخزائنها لا ينقص عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها وكره أن يحب ما أبغضه خالقه، أو يرفع ما وضعه مليكه، زواها الله عن الصالحين اختيارا، وبسطها لأعدائه اغترارا، أفيظن المغرور بها أنه أكرم بها، ونسى ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا فلم يخف أن يكون مكرا إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظنه خيرا له فيها إلا نقص عقله وعجز رأيه.

❁ ❁ ❁

صفحة بيضاء - تترك فارغة

الفصل الخامس عشر

في الشكر

"مَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلى اللهِ بِمُلاطَفاتِ الإحْسانِ .. قِيْدَ إلَيْهِ بِسَلاسِلِ الامْتِحانِ"

السائرون إلى الله على قسمين: قسم أقبل على الله بملاطفة إحسانه وقياما بشكر إنعامه وامتنانه وهم أهل مقام الشكر... وقسم أقبل على الله بسلاسل الامتحان وضروب البلايا والمحن وهم أهل مقام الصبر... أهل المقام الأول أقبلوا على الله طوعا، وأهل المقام الثاني أقبلوا على الله كرها. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ (الرعد: 15).

سنة الله: استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة، ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا إبتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون، لأن مراده عز وجل رجوع العباد إليه طوعا وكرها...

فقوم بسط الله عليهم النعم وصرف عنهم البلايا والنقم ورزقهم الصحة وأمدهم بالأموال والعافية فأدوا حقها وقاموا بشكرها، وتشوقوا إلى معرفة المنعم بها، فكانت مطية لهم على السير إليه، ومعونة لهم على القدوم عليه،

أخرجوها من قلوبهم وجعلوها في أيديهم، وقليل ما هم.. قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13).

وفي مثل هؤلاء ورد الأثر: "نعمت الدنيا مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر".

وقوم أمدهم الله بالنعم، وبسط لهم في المال والعافية، وصرف عنهم النقم فشغلهم ذلك ومنعهم من المسير إلى حضرته... فسلب ذلك عنهم، وضربهم بالبلايا والمحن، فأقبلوا على الله بسلاسل الامتحان: " عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل " (صحيح البخاري)... وقد مدح الله الغني الشاكر والفقير الصابر بمدح واحد، فقد قال تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (ص: 30).

وقال في حق أيوب عليه السلام: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص: 44).

وقال بعضهم: لأن أعطى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر...

ورجح كثيرون الغني الشاكر على الفقير الصابر والله أعلم..

وقد ذكر الدكتور البوطي فئة ثالثة، وهي في معزل عن هذه التربية الإيمانية، تلك هي فئة المستكبرين على الله، والطغاة، والمعاندين للحق بعد معرفتهم له ويقينهم به، فهؤلاء قد يمدهم الله بمزيد من النعم، ويستدرجهم إلى مزيد من العتو والطغيان، وفي مثل هؤلاء جاء قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨ ﴾ (آل عمران: 178)، وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ٤٤ ﴾ (الأنعام: 44)

❁ ❁ ❁

" مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوِجْدانِها عَرَفَها بِوُجودِ فُقْدانِها "

وذلك أن العبد قد تترادف عليه النعم والعوافي، فلا يعرف قدرها، فإذا سلبها، وضرب بالبلاء والأوجاع والمصائب، فحينئذ يعرف قدر العافية..

ومن أجل النعم وأعظمها: حلاوة الإيمان... ويستعين العبد على معرفة قدر النعم بالتفكر فيها وبالتفكر في حال نفسه قبل وجودها.. كل نعمة ينظر إلى وجود ضدها، فلا شك أنه يعرف قدرها فيشكرها فتدوم عليه. وأما من لم يتفكر في حال النعم فلا يعرف قدرها، فيغفل عن شكرها فتسلب منه وهو لا يشعر...

وقال الجنيد: شكر النعمة ألا ترى نفسك أهلا لها، وألا تعصي الله بها... ومن دعاء بعض الصالحين: اللهم عرفنا نعمتك بدوامها، ولا تعرفها لنا بزوالها، وقيل: الولد العاق المصر على تأبيه، إنما يعرف قدر الآباء، يوم وفاة أبيه.

ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد وتضييع الشكر عليها من العبد، جاء في الأثر: "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم".

۞ ۞ ۞

"مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوالِها، وَمَنْ شَكَرَها فَقَدْ قَيَّدَها بِعِقالِها"

قالوا: من أعطى (النعمة) ولم يشكر، سلب منها ولم يشعر... قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11)

قال الجنيد: الشكر أن لا يعصي الله بنعمه...

وفي الأثر: "التحدث بالنعم شكر"، وفي الحديث "أفلا أكون عبداً شكورا" (البخاري)

والنعم التي يقع عليها الشكر دنيوية كالصحة والمال، ودينية كالعلم والعمل... وأجل النعم: الإسلام والإيمان والمعرفة... وشكرها هو الاعتقاد أنها منة من الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: 7)

ثم قال سبحانه: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ (الحجرات: 7)

والاعتقاد والامتنان لله سبحانه وتعالى بنعمه الكثيرة، سبب أيضا لزيادة

هذه النعم، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: 7).

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "جعل ابن عطاء الله من عدم الشكر سببا للتعرض لزوال النعمة، دون أن يجعل منه سببا لزوالها يقينا.. ولكنه جعل من وجود الشكر والانضباط الدائم به سببا لبقاء النعمة بيقين.. وغالبا ما تجد العبد الشاكر، ونعمه رفيقة دربه كاملة غير منقوصة إلى الممات، فإذا رأيت ثغرات تتفتح في بعض تلك النعم، ونقصا يتسرب إليها، فاعلم أن ذلك ليس إلا لآفات من المعاصي والتقصير في أداء الواجبات، والانزلاق إلى بعض السيئات، مما لا يتسنى لأي من المسلمين العصمة منه، روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية "ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به"؟ فقال له رسول الله ﷺ: "يغفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟ قال بلى، قال فهو ما تجزون به"... على أن الله سبحانه أخبرنا أيضا بأنه يعفو عن كثير مما قد يتعرض له المسلم من الانحرافات، دون كفارة لها من المصائب في الدنيا ولا عقاب عليها في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: 30).

والشكر يشمل صرف النعم التي وهبها الله للإنسان إلى الوظيفة التي أمره بها وخلقه من أجلها، فالشكر على نعمة العلم يتمثل في نشره وبثه في

الناس بالسبل الممكنة، والشكر على نعمة الرتبة يتمثل في أن يسخرها لإحقاق الحق ومقاومة الظلم والضرب على يد الظالمين، وهكذا.. "

۞ ۞ ۞

"نِعْمَتانِ ما خَرَجَ مَوْجودٌ عَنْهُما، وَلا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُما: نِعْمَةُ الإيجادِ، وَنِعْمَةُ الإمْدادِ"

نعمة الإيجاد هي الإظهار من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو من عالم الأمر إلى عالم الخلق، وأما نعمة الإمداد: فهي قيامه تعالى بالأشياء بعد وجودها، وإمداده إياها بما تقوم به بنيتها، قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: 50)، وتأمل رحمة الآباء والأمهات بأولادهم، وما هي حقيقة: إلا رأفته سبحانه، ساقها الله للعباد في مظاهر الآباء والأمهات تعريفا بالوداد، فهو الذي فطرهم عليها، ومن نعمة الإمداد المعنوي نعمة الإسلام والإحسان، وزيادة الترقي في المعرفة واليقين، ونعمة إيجاد الإيمان ومحبة الطاعة في قلبك، وإمدادهما، وكذلك كراهة الكفر والمعصية، من النعم العظيمة التي لا مدخل للعبد فيها، ولا له وسيلة إليها بكسب أو بحول أو بقوة، ولولا توالي الله تعالى له بهما، لتاه في ظلمات الضلال، وقد نبه سبحانه وتعالى على هذا المعنى فقال عز من قائل: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ (الحجرات: 7).

ورد في الأثر: يقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: "إن لي عبادا من عبادي، أحبهم ويحبوني، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلي، وأذكرهم ويذكروني، وأنظر إليهم وينظرون إلي، من سلك طريقهم أحببته، ومن عدل عنهم مقته، قيل: يا ربنا، وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم، وافترشوا إلى وجوههم، وناجوني بكلامي وتملقوا إلي بإنعامي، فمن صارخ وباك، ومن متأوه وشاك، ومن قائم وقاعد، ومن راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي، أول ما أعطيهم ثلاثا: أقذف في قلوبهم من نوري، فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيهن من موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة: أقبل عليهم بوجهي، أترى من أقبلت عليه بوجهي يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ ".

۞ ۞ ۞

" مِنْ تَمامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ ما يَكْفيكَ وَيَمْنَعَكَ ما يُطْغيكَ "

إذا رزقك الحق تعالى ما يكفيك لقيام بشريتك أكلا ولباسا ومسكنا، ولقيام روحانيتك علما وعملا وذوقا ومعرفة.. ومنعك ما يطغيك ويشغلك عن حضورك مع ربك، فقد أتم نعمته عليك، فاشكره على ما أسدى إليك،

وتوجه إليه وحده فيما تعذر عليك، وادفع ما يشغل قلبك من النهوض إليه..
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (النحل: 128).

وقد استعاذ النبي ﷺ مما يشغل القلب وينسى الرب فقرا أو غنى، فكان يتعوذ من الفقر المنسي، والغنى المطغي، وقال: " اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا " (البخاري ومسلم)، وقال ﷺ: "ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا مالا تلفا " (مسند الإمام أحمد).

وقال ﷺ: "ليس الغني عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس" (البخاري ومسلم).

قال بعض العارفين: كل من لا يعرف قدر ما زوي عنه من الدنيا، أبتلي بأحد وجهين: إما بحرص مع فقر يتقطع به حسرات، أو رغبة في غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه.

فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على ما أنعم الله به عليه من هذه النعم العظيمة، ويقنع بما أباح له من هذه المنة الجسيمة، فيستعجل بذلك راحة نفسه، والاستغناء عن بني جنسه.

ويروى عن أحد المبتلين بمرض شديد جعله رقيد الأرض ملتحفا، أنه

كان كثير الحمد، فلما سئل عن ذلك قال: ومالي لا أحمد الله تعالى، وقد خلقني فأحسن خلقي، وجعل منشئي ومولدي في الإسلام، وألبسني العافية في أركاني، وستر علي ما أكره ذكره ونشره، فمن أعظم نعمة ممن أمسى في مثل ما أنا فيه؟

وقال أحد الواعظين: "اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ومال إلى شئ من الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد، وظل حيران ولها، فإن كان له عند الله نصيب، عاتبه وحيا في سره فيقول له: عبدي أردت رفع قدرك عند ملائكتي، وأجعلك دليلا لأوليائي، ومرشدا لأهل طاعتي فملت إلى عرض الدنيا وتركتني، فأورثك ذلك: الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، ارجع إلى ما كنت عليه، أرجع عليك ما كنت تعرفه عن نفسك".

لطيفة:

كان حبيب العجمي يخدم الحسن البصري، فصنع حبيب طعاما لإفطارهما، وإذا بسائل فأعطاه جميعه، فقال الحسن: يا حبيب انك كثير اليقين قليل العلم، فهلا أعطيته النصف، ونتقوت بالنصف؟ فقال: يا سيدي، ثوابه لك، وأنا أستغفر الله... فلما جن الليل، وإذا بقارع على الباب فخرج حبيب فوجد عبدا معه طعام كثير، والشتاء ينزل والغلام يبكي فقال له: ما هذا؟ قال: طعام، قال لي سيدي إن قبله منك الحسن البصري فأنت حر لوجه الله تعالى، وقد طال علي الرق، فقال حبيب: لا إله إلا الله، عتق رقبة وإطعام جائع، ثم دخل به على الحسن وقال: يا سيدي انك كثير العلم قليل اليقين، فقال: يا حبيب، تقدمناك وسبقتنا.

وفي بعض الآثار المروية عن الله عز وجل: " يا ابن آدم أنا بدك اللازم فالزم بدك "... "يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له "

۞ ۞ ۞

رسالة من الشيخ في الشكر - أرسلها لبعض إخوانه:

قال رحمه الله مما كتب به لبعض إخوانه :

" إنْ كانَتْ عينُ القلْبِ تَنْظُرُ إلى أنَّ اللهَ واحِدٌ في مِنَّتِه ، فَالشَريعَةُ تَقْتَضي أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خليقَتِه "

إذا أنعم الله عليك بنعمة على يد واسطة، سواء كانت دينية أو دنيوية، فعليك في ذلك وظيفتان: إحداهما قلبية وهي اعتقادك أنها من الله وحده، وترى من سواه ممن أجراها على يديه مقهورا مجبورا على ذلك، مسلطا عليه الدواعي والبواعث حتى لم يجد انفكاكا عنه، وهذا هو حق التوحيد.

والثانية: أن تشكر من وصلت إليك على يده، وتدعو له وتثني عليه، إمتثالا لأمر الله تعالى، وعملا بالشريعة، قال الله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ (لقمان: 14).

وروى النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب" (صحيح الترغيب)، وفي حديث

صحيح آخر: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله" (صحيح الجامع الصغير)..

وفي حديث أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: "أشكر الناس لله أشكرهم للناس" (صحيح الجامع الصغير)...

ومن أسمائه تعالى: "الشكور"، فليتخلق العبد بذلك...

وحكمة اعتبار الواسطة ثلاث:

- أولها أنها رسل من الحق تحمل الهدايا إليك، ومن الكرم إكرام الرسل...
- وثانيها: أنها أواني تصل فيها إليك المنافع، ومن الحكمة ترفيع آنية المنافع...
- وثالثها: أنك إن كافأته فقد أعتقت من رق إحسانه.

لطيفة:

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إذا جاءك ساعي البريد بهدية أو طرد قيم فهل تنسى الجهة التي أرسلتها وتتجه بالشكر إلى ساعي البريد؟ إن النعم تفد من عند الله تعالى عن طريق بعض الوسائط، وهم مثلهم مثل ساعي البريد، والمصدر الحقيقي لهذه النعم والإتحافات هو الله سبحانه وتعالى، وحتى تتذكر ذلك فإنه يريك بين الحين والآخر من مظاهر لطفه وعنايته بك ما يزيدك تعلقا به ونسيانا لحواجز الوسائط والأسباب... من هذه المظاهر أنه قد يخرق لك العوائد ويسخر لك ما لا تتوقعه من البديل عنها تنفيذا لحاجتك التي طرقت بها باب مولاك".

جاء في الإحياء في فضيلة الشكر (بتصرف يسير):

"اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه، قال تعالى:

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: 152)، جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة: " أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام قَالَ يَا رَبّ كَيْف أَشْكُرك؟ قَالَ لَهُ رَبّه: تَذْكُرنِي وَلا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتنِي فَقَدْ شَكَرْتنِي وَإِذَا نَسِيتنِي فَقَدْ كَفَرْتنِي، قَالَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ وغيره: إِنَّ اللهَّ يَذْكُر مَنْ ذَكَرَهُ، وَيَزِيد مَنْ شَكَرَهُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ كَفَرَهُ".

والشكر منجاة من العذاب، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ (النساء: 147).

وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين في كيده لبني آدم: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف: 17)، وذلك لعلو رتبة الشكر.

وقال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: 13). جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة: "اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا": أَيْ وَقُلْنَا لَهُمْ اِعْمَلُوا شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدِّين وَالدُّنْيَا، وفِيهِ دلالَة عَلَى أَنَّ الشُّكْر يَكُون بِالْفِعْلِ كَمَا يَكُون بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّة، فالصّلاة شُكْر، وَالصِّيَام شُكْر، وَكُلّ خَيْر تَعْمَلهُ للهَّ عَزَّ وَجَلَّ شُكْر، وَأَفْضَل الشُّكْر الْحَمْد.

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم: 7).

جاء في ابن كثير في تفسيرها: "وَقَوْله" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ "أَيْ آذَنَكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِوَعْدِهِ لَكُمْ، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْمَعْنَى: وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَآلَى بِعِزَّتِهِ وَجَلاله وَكِبْرِيَائِهِ " لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنكُمْ ": أَيْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لأزِيدَنكُمْ مِنْهَا "وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ" أَيْ كَفَرْتُمْ النِّعَم وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا "إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" وَذَلِكَ بِسَلْبِهَا عَنْهُمْ وَعِقَابه إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرهَا.

❁ ❁ ❁

صفحة بيضاء- تترك فارغة

الفصل السادس عشر

في الفهم عن الله

" خَفْ مِنْ وُجودِ إحْسانِهِ إلَيْكَ وَدَوامِ إساءَتِكَ مَعَهُ أنْ يَكونَ ذلِكَ اسْتِدْراجاً لَكَ: قال تعالى: " سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ "

الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين، كما أن عدم الخوف منه، مع الدوام على الإساءة من صفات الكافرين.

وتأمل قوله تعالى: (وَأُمْلِي لَهُمْ)، أي نمدهم بالعوافي والنعم حتى نأخذهم بغتة...

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأنعام: 44).

وهكذا عادة الله في خلقه: أن يرسل إليهم من يذكرهم بالله ويدلهم عليه، فإذا أعرضوا عنه بسط عليهم النعم الحسية حتى إذا اطمأنوا وفرحوا بها دمرهم الله وأخذهم بغتة ليكون ذلك أشد في العقوبة.

وفي معنى الاستدراج أيضا التخلية بين العاصي والذنوب التي تترك آثارا بعد الموت، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (يس: 12)

وفي الحديث، قال رسول الله ﷺ: "من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها و أجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، و من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" (صحيح الجامع الصغير).

وما أصدق من قال: "طوبى لمن مات، وماتت معه ذنوبه".

وفي معنى الفهم عن الله يقول سعيد حوى رحمه الله: السالك طالب معرفة وطالب فهم عن الله، بينما أهل الغفلة لا شئ يذكرهم بالله إلا إذا جاءت أزمة أو هزة، أما صاحب القلب الذاكر العارف فكل شئ يزيده معرفة بالله، ويفتش أن يكون هو المراد في النعمة والنقمة، فيشكر ويتوب، فهو يتعامل مع الله في أمره كله، بفطنته إلى بواطن الأمور، وأن الله هو الظاهر والباطن، فظاهر العارف يتعامل مع المخلوقات لكنه في الحقيقة يقظ القلب على أفعال الله، فهو دائم الفهم عن الله حيثما أقامه الله.. ولله في الكافر سنن، ولله في المنافق سنن، ولله في أهل الإيمان سنن، قد نجد المنافق لا يبتليه الله فيبقى طيلة حياته وهو يشعر بالنعمة والرفاهية، والكافر نفس الشيء، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ (الزخرف: 33)، وقال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء: 20).

والذي يسير في طريق المعرفة أو الجهاد له أيضاً عطاءاته، فالله يكرمه بأنواع من الكرامة والاجتباء والتوفي، والمهم هو النظر للدنيا بعين القلب والعبرة، فإنك ترى فيها آثار الله وتتعرف بذلك عليه سبحانه، وعلى أسمائه عز وجل.

ويقول الدكتور البوطي (بتصرف): "بعد أن نبه ابن عطاء الله في الحكم السابقة إلى أهمية الشكر باعتباره الحصن الذي يحفظ النعمة ويزيدها، في هذه الحكمة ينبه إلى سنة أخرى يعامل الله بها طائفة من عباده، ألا وهي سنة الاستدراج، فقد يقول قائل: ها أنا معرض عن الشكر الذي تتحدث عنه، والنعم التي أتمتع بها موفورة وكثيرة، والجواب هو: أن هذا الذي تصفه ليس إلا مظهرا لسنة أخرى من سنن الله في عباده، ألا وهي سنة الاستدراج، قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (القلم: 44)، والاستدراج مظهر لسخط الله، يحيق بالمستهترين بحقوق الله ونعمه استكبارا وجحودا، إن الذي يتلقى النعم عند إقبالها إليه، على أنها ثمرة لجهوده، ونتائج للأسباب والوسائط الماثلة أمامه، ناسيا خالق الأسباب والمسببات، ثم يتعامل معها طبقا لما توحي إليه أهواؤه، ذاهلاً عن المحسن الذي تفضل بهذه النعم عليه، وعما يريده أن يستخدم هذه النعم فيه، فعليه أن يعلم أن استمرار تلك التعم مع بقائه على تلك الحال، ليس إلا استدراجا من الله له، ليوغل في الطريق الذي انحط فيه، فيستحق بذلك مزيدا من النكال والعقاب.. واعلم أن هذا المقياس كما ينطبق على الأفراد، ينطبق أيضا على حال الدول والمجتمعات، وينبغي أن تعلم أن الاستدراج الذي يبتلي

به الله الدول والمجتمعات التي تستمريء العتو والطغيان، ليس مرحلة مستمرة من الأمن والطمأنينة في ظلال النعم والمتع، بل هو نذير إهلاك وزوال، ولكن أعمار الدول تقاس بالعقود، في حين أن أعمار الأشخاص تقاس بالأيام والسنوات، وسنة الله عز وجل جرت على إهلاك دول البغي والطغيان عندما تصل إلى أوج قوتها وغناها، وتأمل قصص فرعون وقارون، والحكمة من هذه السنة الإلهية هو أن هلاك الضعيف لا يعطي نفس الأثر والعبرة التي يعطيها هلاك القوي عندما يكون في أوج قوته، (كما أنه أثر من أسمائه الحسنى سبحانه: فهو "الحليم" و"الصبور".. وهو أيضا "المنتقم")..

وقد يتساءل أحدهم بأنه وإن كانت سنة الله تقضي بأن تستدرج دول البغي والعدوان بمزيد من النعم والقوة ريثما يحين ميعاد هلاكهم، أيستلزم ذلك أن يعلو سلطانهم على المسلمين، وأن يتحكموا بهم؟ والجواب: أن المسلمين اليوم في عمومهم ليسوا هم المسلمين الذين وعدهم الله في كتابه بالنصر، إنهم اليوم نموذج آخر غريب، قد شاعت فيما بينهم صنوف كثيرة من المنكرات حتى غدت هي المعروف المحبب إليهم، وتنكروا لما يقابلها من المعروف، حتى أصبح هو المنكر المستهجن عندهم.. هذا بالإضافة إلى الأنشطة الهدامة التي يتجه بها كثير منهم إلى الكيد للإسلام ذاته مبادئاً وعقائداً وأحكاماً، ووالى كثير منهم الكافرين وتبرأوا من المؤمنين، فأين هؤلاء من نصر الله؟

ثم اعلم أن سنة الله ماضية أن تظل هذه الدنيا تسير بأهلها في تطورها العمراني والمعاشي، حتى يأتي وعد الله وتحين الساعة المحددة لزوالها وانمحاقها...

فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في إيمانهم به، أوفياء في تنفيذ شريعته، جعل الله قيادة الحياة وعمارتها آيلة إليهم، وأخرج لهم أسباب العزة والمنعة والنصر من حيث لا يحتسبون، وجعل رتبة الآخرين من ورائهم وتحت سلطانهم... وأما إذا انقلب المؤمنون فضيعوا شرع الله واستهانوا بأنظمته وحدوده، جعل الله قيادة الحياة وعمارتها إلى الأمم الأخرى وإن كانت كافرة، وهكذا فإن الدنيا لا يمكن أن تقف عن حركتها وتطورها كما اقتضت سنة الله، ولكن قيادتها تتحول من أيدي أولئك الذين ضيعوا الأمانة وخانوا العهد، إلى أيدي الآخرين أيا كانوا. (إن الله يقيم الأمة الكافرة لو كانت عادلة، ولا يقيم الأمة المسلمة لو كانت ظالمة).. وتأمل وصية عمر لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وهو متوجه لحرب القادسية، إذ قال له فيها قال: " يا سعد بن أم سعد، لا يغرنك أن يقال عنك خال رسول الله ﷺ.. آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا منكم ، من عدوكم.. فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم.. لأن عددنا ليس كعددهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا ننصر عليهم بفضلنا لن نغلبهم بقوتنا.. ولا تقولوا عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل بختنصر، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا.. "

على أن علينا أن نعلم أن هذا الواقع لا يسمى انتصارا، أو تفوقا للكافرين على المسلمين، وإنما هو في الحقيقة تسليط علهم ليذوقوا بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ".. انتهى

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال: 25)، وفي الحديث: "والذي نفسي بيده: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم " (صحيح الترغيب)

❁ ❁ ❁

"مِنْ جَهْلِ المُريدِ أنْ يُسيءَ الأَدَبَ فَتُؤَخَّرَ العُقوبةُ عَنْهُ، فَيَقولَ: لَوْ كانَ هذا سُوءَ أدَبٍ لَقَطَعَ الإمْدادَ وَأَوْجَبَ الإبْعادَ، فَقَدْ يُقْطَعُ المَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلّا مَنْعُ المَزيدِ... وَقَدْ يُقامُ مَقامَ البُعْدِ وَهُوَ لا يَدْري!! وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلّا أنْ يُخَلِّيَكَ وَما تُريدُ"

المريد هو كل من أراد التقرب إلى الله بإصلاح حاله، وذلك بالتخلص من الصفات الرديئة والتحلي بالصفات الطيبة الحميدة، والاستقامة على طاعة الله..

والحكمة تتحدث عن نوع من الاستدراج الذي تقدم ذكره، والعقوبات فيه مختلفة، فمنها معجلة ومنها مؤجلة، ومنها جلية ومنها خفية، فالعقوبة الجلية: العقوبة بالعذاب لأهل الخطايا والذنوب، والعقوبة الخفية، العقاب بالحجاب لأهل إساءة الأدب بين يدي علام الغيوب.

يجب على المريد أن يراعي الأدب مع الله في كل شيء، ويلتزم التعظيم عند كل حال، ويحفظ الحرمة في كل شيء، فإن أخل بشيء فليبادر بالتوبة والاعتذار

مع الذلة والانكسار، فإن أخر التوبة انقطعت عنه الأمداد واستوجب الطرد والبعاد... وقد لا يشعر بذلك في الحين... فالأشجارإذا قطع عنها الماء لا يظهر أثر العطش عليها إلا بعد حين، فإذا طال الأمد يبست شيئا فشيئا... ولو لم يكن من العقوبة إلا منع المزيد من السير والترقي لكان كافيا لأنه من لم يكن في زيادة.. فهو في نقصان، ومن كان يومه شرا من أمسه فهو الخسران.

فمراتب القرب لا نهاية لها حتى يصير بعضها إلى بعضها بعدا... ولو لم يكن ذلك البعد إلا أن يتركك مع ما تريد لكان كافيا في الطرد والإبعاد، إذ ترك العبد مع هواه وشهوته من علامة الإهمال، وإخراج العبد عن هواه وما تركن إليه نفسه من علامة الاعتناء والإقبال.

ويقال من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البر عليك من غير قصد منك إليها، وصرف المعاصي عنك مع السعي فيها، وفتح باب اللجوء والافتقار إلى الله تعالى في كل الأحوال.

ومن علامة الخذلان ثلاثة: تعسر الطاعات عليك مع السعي فيها، ودخول المعاصي عليك مع الهرب منها، وغلق باب اللجوء إلى الله، وترك الدعاء في الأحوال.

ومواطن الآداب ثلاثة: آداب مع الله ورسوله، وآداب مع الشيوخ وآداب مع الإخوان....

- فمن الأدب مع الله: امتثال أمره واجتناب نهيه، وحفظ الحدود والوفاء

بالعهود والرضا بالموجود، والإكثار من ذكر الله، ومراقبة حضوره، وإيثار محبته.

- ومن الأدب مع رسوله ﷺ: اتباع السنة ومجانبة أهل البدعة، وإيثار محبته والاهتداء بهديه، والتخلق بأخلاقه... وشهود نوره....والإقتداء به.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب: 21)... وكذلك كثرة الصلاة عليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب: 56).

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الصلاة على رسول الله، منها ما رواه أبو طلحة: "إن رسول الله ﷺ خرج عليهم يوما، يعرفون البشر في وجهه، فقالوا إنا نعرف الآن في وجهك البشر يا رسول الله ! قال: أجل أتاني الآن آت من ربي فأخبرني أنه لن يصلي علي أحد من أمتي إلا ردها الله عليه عشر أمثالها " (الأذكار والأدعية الصحيحة).

وقيل أنه من أراد أن يرى رسول الله ﷺ في المنام فليكثر من الصلاة والسلام عليه في اليقظة: فقد روي أن الإمام مالك رضي الله عنه كان يرى النبي ﷺ تقريبا في كل ليلة...

وفي عصرنا الحديث ذكر الشيخ عبد المقصود سالم رحمه الله في كتبه - وكان ممن يحب رسول الله ﷺ ويكثر الصلاة عليه ويجعلها وردا له بالآلاف يومياً -

أنه ببركة هذه الصلاة كان يرى الرسول ﷺ في المنام كثيرا، بل إنه كان يراه في الليلة الواحدة أحيانا أكثر من مرة، وذكر من ذلك أمثلة طيبة كثيرة...

- **ومن الأدب مع الشيوخ**: توقيرهم ومحبتهم، والدعاء لهم، ومداومة حضور مجالسهم، مع الحذر من مجالسة الجهلة والغافلين، وذلك لأثرهم السيئ على القلب.

- **ومن الأدب مع الإخوان**: نصيحتهم بتعليم جاهلهم، وإرشاد ضالهم، وتقوية ضعيفهم ولو بالسفر إليه، والتواضع لهم والاستنصاف من نفسك معهم، وخدمتهم بقدر الإمكان، فخديم القوم سيدهم، ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: 2)، وإدخال السرورعليهم، ومعاونتهم على دفع شدائد الحياة، فكل ما يشغل قلب أخوك المسلم فدفعه جهاد وبر... وكذلك شهود الصفا فيهم، فلا ينقص أحدا ولو رأى منه ما يوجب النقص في الظاهر- فالمؤمن يلتمس المعاذير- فليلتمس له سبعين عذرا، فإن لم يزل عنه موجب نقصه فليشهده في نفسه، وأهل الصفا يشهدون الصفا، وأهل الكمال لا يشهدون إلا الكمال، وأهل النقص لا يشهدون إلا النقص، وفي حديث الرسول ﷺ: " حسن الظن من حسن العبادة " (سنن أبي داود).

وورد في الأثر: " خصلتان ليس فوقهما شئ من الخير: حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما شئ من الشر: سوء الظن بالله، وسوء الظن بعباد الله ".

وما أساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب في الظاهر، وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب في الباطن...

ومن أنواع سوء الأدب من المريد الاعتراض على الله تعالى وتعاطي التدبير معه، والتبرم بأحكامه المؤلمة في نفسه أو غيره، وأن يسرح لسانه بالشكوى إلى الخلق... ويجب عليه إن خطر في باله أو جرى على لسانه شئ من ذلك أن يبادر إلى الاستغفار منه، والابتعاد عنه، وليعلم أن تشاغله عن ذلك وتوبته منه، من أعظم الحسنات وأفضل القربات، وذلك يدخله في مقامات الرضا ويوصله إلى غاية النعيم والعطاء.

❁ ❁ ❁

"علِمَ أنَّ العِبادَ يَتَشَوَّفونَ إلى ظُهورِ سرِّ العِنايةِ، فَقالَ: "يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ"، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلّاهُمْ وَذلِكَ لَتَرَكوا العَمَلَ اعْتِماداً عَلى الأَزَلِ. فَقالَ: "إِنَّ رَحْمَةَ اللّهِ قَريبٌ مِنَ الْمُحْسِنينَ"

لما أخبر الله سبحانه وتعالى أن المدار إنما هو على السابقة، فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية، تشوف الخلق كلهم إلى ظهور سر هذه العناية، فكل واحد يظن أنه من أهلها، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض، فقال: ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: 74)، فأسندها إلى مشيئته دون مشيئتهم، وأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله ومختص به، فقال: ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ

مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: 56)، فالرحمة هنا هي: العناية السابقة وهي قريبة من المحسنين الذين أحسنوا عبادة ربهم وأحسنوا إلى عباد ربهم، فتحصل أن سر العناية إنما يظهر على المحسنين المتقنين لأعمالهم، المخلصين في عبودية ربهم، فالحكمة تقتضي وجود العمل.

۞ ۞ ۞

"أنْتَ مَعَ الأكْوانِ ما لَمْ تَشْهَدِ المُكَوِّنَ، فَإذا شَهِدْتَهُ كانَتِ الأكْوانُ مَعَكَ"

فرق بين كونك مع الأكوان، وكون الأكوان معك، فإن كونك مع الأكوان يقتضي تقييدك بها وحاجتك إليها، فأنت بذلك عبد لها ثم هي خاذلتك ومسلمتك أحوج ما تكون إليها...

وكون الأكوان معك يقتضي ملكك لها، واستغناءك عنها، فأنت حينئذ حر عنها وهي محتاجة إليك وخادمة لك، ومتبركة بك. وهذه حالة نفسية يقتضيها شهودك للمكون، أن تعبد الله كأنك تراه...

وفي بعض الآثار المروية عن الله عز وجل يقول: "عبدي... اجعلني مكان همك أكفك كل هم، ما كنت (أنت) بك فأنت في محل البعد، وما كنت بي فأنت في محل القرب، فاختر لنفسك".

قال الشاعر:

إذا صوبت البصر في الأكوان ... أبصرت نور الحق ذا ابتسام

"تَحَقَّقْ بأوْصافِكَ يُمِدّكَ بأوصافِه. تَحَقَّقْ بذُلِّكَ يُمِدّكَ بِعزِّه. تَحَقَّقْ بعَجْزِكَ يُمِدّكَ بقُدْرَتِه. تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدّكَ بِحَوْلِهِ وقُوَّتِه"

من أراد أن يمده الله بالغنى به عما سواه فليتحقق بالفقر مما سواه، ومن أراد أن يمده الله بالعز الذي لا يفنى فليتحقق بالذل لله والتواضع بين خلقه، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره... ومن أراد أن يمده الله بالقوة الخارقة للعوائد فليتحقق بعجزه وليتبرأ من حوله وقوته، ومن أراد أن يمده الله بالقوة على طاعة مولاه ومجاهدة نفسه وهواه فليتحقق بضعفه ويسند أمره إلى سيده، فبقدر ما تعطي تأخذ، وبقدر ما تتخلق تتحقق وبقدر مما تتحقق بوصفك يمدك بوصفه...

- وقل من بساط الفقر الحقيقي: يا غني من للفقير سواك؟
- ومن بساط الضعف الحقيقي: يا قوي من للضعيف سواك؟
- ومن بساط العجز الحقيقي: يا قادر من للعاجز سواك؟
- ومن بساط الذل الحقيقي: يا عزيز من للذليل سواك؟

تجد الإجابة كأنها طوع يدك: قال تعالى: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ (الأعراف: 128)، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: 46).

ولا يصح للعبد التحقق بالأوصاف، حتى يتعلق بأضدادها من مولاه، فلا يلتجئ في فقره ولا عجزه ولا ضعفه إلى أحد سواه.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون: 8)، ومن تعزز بالله ذل له كل شئ فقد ورد في الأثر: " يقول الله تعالى للدنيا: يا دنيا

اخدمي من خدمني، واتعبي من خدمك ".

وقال سهل: لم يشم رائحة اليقين من ركن لغير الله...

۞ ۞ ۞

" العَطاءُ مِنَ الخَلْقِ حِرْمانٌ. والمَنْعُ مِنَ اللهِ إحسانٌ "

إنما كان العطاء من الخلق حرماناً لوجهين:

الأول: ما في ذلك من الركون إلى الخلق وميل القلب بالمحبة لهم، إذ النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، فتسترق لهم وتكون أسيرة في أيديهم، وفي وصية علي كرم الله وجهه: لا تجعل بينك وبين الله منعما، وعد نعمة غيره عليك مغرما.

فمن أنعمت عليه فأنت أميره، ومن احتجت إليه فأنت أسيره، ومن استغنيت عنه فأنت نظيره.

وقال أحدهم: إن شر الناس يصيبك في بدنك وخيرهم يصيبك في قلبك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك، وربما لأجل هذا جاء في اا لحديث: "إذا أسدى إليكم أحد معروفا فكافئوه" (أبو داود وأحمد) أي لتسقطوا منته عليكم، والله تعالى أعلم.

الثاني: ما في ذلك من نقص الدرجات والغض عن كمال المراتب والمقامات، ولذلك ترك الأكابر التمتع بالشهوات لقوله تعالى:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ (الأحقاف: 20).

فالجهاد الذي لا غنيمة فيه أعظم من الجهاد الذي فيه الغنيمة وقد ورد في الحديث الصحيح: " ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون غنيمة، إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، فإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم " (مسلم والترمذي).

وإنما كان المنع من الله إحسانا لوجهين:

- أحدهما: ما تقدم من أن الله سبحانه ما منعك بخلا ولا عجزا، وإنما هو حسن النظر لك، إذ لعل ما طلبته لا يليق بحالك، أو أخره لوقت هو أولى لك وأحسن، أو ادخر لك ذلك ليوم فقرك.
- الثاني: ما في ذلك من دوام الوقوف ببابه واللياذ بجنابه، وفي ذلك غاية شرفك ورفع لقدرك.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن الإنسان إذا تكالبت نفسه على الدنيا، فقد يحصل على المال الذي يبتغيه ولكنه يحرم بركته، فبدلا من أن يثمر لصاحبه الهناء والخير، يجر إليه آفات متنوعة من الشر والضيق والهموم... وبركة كل شيء هي سره الذي يعطيه معنى وجوده، فبركة الورد: العبق المنبعث من داخله، وبركة الشمس هي الحياة أو الطاقة التي تسري منها إلى

سائر الأشياء، وبركة المال ما قد يحمله إلى صاحبه من معاني الخير والسعادة.. وهكذا... إن الله سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، هو الذي أعطى كل شيء خلقه وشكله، ثم أودع فيه من لدنه سره الذي يحدد جدواه ووظيفته، قال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ (الأعلى: 1-3): أي الذي أعطى كل شيء مظهره الذي أبدعه فيه، ثم هداه إلى المهمة التي خلق لأدائها، عن طريق السر الذي أودعه فيه... والمال وما في حكمه من مظاهر الدنيا وزخارفها، ليست العبرة منه بالشكل أو بالمظهر الذي يبدو فيه، بل بالبركة المودعة فيه، أي بما يحمله لصاحبه من أسرار السعادة وطمأنينة النفس ومتعة الخاطر، وما أكثر من هم فقراء في غناهم، ومن هم أغنياء في فقرهم.. ففي الفئة الأولى قال رسول الله ﷺ: " لو كان لابن آدم واد من مال، لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب " (رواه الشيخان).

وفي الثانية قال ﷺ: "اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب " (الترمذي وابن ماجة).

ولكن كيف يكون المنع من الله إحسانا؟ إن الله لايريد بعباده المؤمنين إلا الخير.. قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل 97) ولكن مقياس الخير والشر في حياة

الإنسان لايتمثل فيما قد تهواه نفسه، فقد يتطلع الإنسان إلى ما فيه حتفه دون أن يعلم، وإنما مقياس ذلك كامن في علم الله عز وجل ولطفه، وصدق الله القائل: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: 216)... إننا جميعا لو عدنا بالذاكرة إلى أحداث جرت على غير ما كنا نريد في ماضي حياتنا، وما أعقبها من نتائج، لوجدنا مصداق هذا الذي يقرره بيان الله، وأن ما كنا نحلم به من العطاء الذي كنا ننتظره ونتمناه، لو تحقق على النحو الذي كنا نريده لجر إلينا ذيولا من المصائب والآلام.. فهو العطاء إذن، جاء مغلفا بغلاف المنع والحرمان.. فاللبيب هو الذي لا ينظر إلى العاجل، ولكن يتعقب النتائج الآتية، ولو بعد حين ".

❁ ❁ ❁

" جَلَّ رَبُّنا أَنْ يُعامِلَهُ العَبْدُ نَقْداً فَيُجازِيَهُ نَسْيئَةً "

النقد ما كان معجلا، والنسيئة ما كان مؤخرا، وقد اشترى الحق تعالى منا أنفسنا وأموالنا معوضنا بها الجنة، فمن باع نفسه وماله وسلمها إليه، عوضه الله جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مع ما يتحفه به فيها من أعلى أنواع النعيم.. ألا وهو النظر إلى وجهه الكريم.

ومن شأن الكريم إذا اشترى شيئا أن ينجز نقده ويزيد إحسانه ورفده،

وهو لابد أن يعجل لعبده ما يليق به في هذه الدار، ويدخر له ما يليق به في تلك الدار...

والذي عجل له سبحانه في هذه الدار أمور:

منها: ما يدفع عنه المضار، ويجلب له من المنافع والمسار، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الأعراف: 196).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ (الطلاق: 2-3).

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ (يونس: 62).... وقد يتعدى ذلك إلى عقبه.

ومنها: ما يشرق عليه من الأنوار، وينكشف لقلبه من الأسرار... قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ (الأنفال: 29)، وهو نور يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (البقرة: 257)

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: 282)

يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة المعصية إلى نور الطاعة، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة...

ومنها: حلاوة الإيمان ولذة الطاعة كما تقدم...

ومنها: التوفيق والهداية لها قبل عملها، حتى جعلك أهلا للوقوف بين يديه.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن الفائدة التي ينالها العامل من رب العمل على عمله تسمى أجرا وجزاء، وبين الكلمتين فرق، أما الأجر فهو ما قد التزم به رب العمل تجاه العامل على عمله، وأما الجزاء فيشمل سائر الأعطيات التي قد يستفيدها العامل مقابل عمله، فهو يشمل ما قد تم الالتزام به مع العامل، وما لم يتم الالتزام به، من الزوائد التي قد ينالها على عمله.. فالذي قضى الله أن يؤخر حصول عباده العاملين عليه، هو الأجر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (آل عمران: 185)، وهو ما قد عناه ابن عطاء الله في الحكمة السابقة التي يقول فيها: إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين.. (وربما كان من الأنسب أن يقول هناك: لأجر عباده المؤمنين).. أما ما قد عناه في هذه الحكمة فهو الجزاء الذي هو أعم من الأجر كما قد علمت، وهو الذي يؤكد ابن عطاء الله تعجيله للعاملين في دار الدنيا... ومن نماذج ما يعجل الله لعباده من جزاء في الحياة الدنيا:

1- طمأنينة القلب، وهي من أعظم ثمار ذكر الله عز وجل، وذكر الله هو الروح السارية في العبادات كلها، وهذه الثمرة العزيزة قضى الله أن تكون نقدا لا نسيئة تأمل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد: 28)، وطمأنينة القلب هي مصدر عافية الإنسان وسر راحته النفسية، وترياق سعادته.

2- والأمن الذي هو رفيق الطمأنينة ومثبتها، قال تعالى: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون" (الأنعام: 82).

3- والحياة الطيبة، وهي كلمة جامعة تستوعب سائر مقومات السعادة الإنسانية، وقد جعلها الله ثمرة عاجلة للعمل الصالح المتوج بالإيمان، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل 97)... وانظر كيف فرق البيان الإلهي بين الثمرة العاجلة التي هي الحياة الطيبة في دار الدنيا، وما سماه الأجر الذي ادخره لعباده الصالحين ليوم القيامة.

4- نعمة النصر على الأعداء، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم 47)، وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ (الحج: 40)، وهذه المكرمة تتجلى في حال الجماعة المسلمة المتمسكة بصدق وإخلاص بأوامر الله عز وجل والمبتعدة عن نواهيه، وقد صدقها وشهد عليها التاريخ القاصي والداني للمسلمين.

5- وعد الله المتصدق بصدقة ما، ابتغاء مرضاته، بأضعاف ما قد تصدق به من مال أو خلافه، فقال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ (البقرة: 245)، وقال الرسول ﷺ: " ما أنقص مالا صدقة "، يعلم هذا عن بينة وتجربة كل من تقرب إلى الله بصدقة يبتغي بها وجه الله تعالى.

6- إن صنائع المعروف كلمة تصدق على كل عمل مبرور يعود منه المؤمن بفائدة وخير إلى عباد الله تعالى، فإذا تقرب المؤمن إلى الله بواحدة من هذه الصنائع، قاصدا بها بلوغ مرضاته، فإن الله عز وجل يجعل له منها وقاية تحميه من المصائب والآفات، قال رسول الله ﷺ: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة الخفية تطفيء غضب الرب" (الطبراني في الكبير).

7- وبالنسبة للمجتمعات، فإن نعمة الاستخلاف في الأرض هي الترجمة الجامعة لنعم القوة والغنى والعلم والعزة، ومنها يتكون نسيج الحضارة المثلى، وقد وعد الله بها عباده الصالحين، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا ﴾ (النور: 55).

فما تقدم من الأعطيات والمكرمات، هي بعض الثمرات العاجلة التي يقرنها الله تعالى بطاعات عباده وقرباتهم، التي يؤدونها لوجهه بصدق وإخلاص .. انتهى

الفصل السابع عشر

في الإخلاص والطاعة

" الأَعْمالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ، وَأَرْواحُها وُجودُ سِرِّ الإِخْلاصِ فِيها "

الإخلاص: إفراد القلب لعبادة الرب، مع نفي الرياء والعجب - والرياء قادح في صحة العمل، أماالعجب فقادح في كماله فقط.

الأعمال كالأشباح (الأشباح: الأجسام) وأرواحها وجود الإخلاص فيها، وكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها.

وفي أثر عن رب العزة - عن الإخلاص - "هو سر من أسراري أودعه قلب من أحببت من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده".

وقال بعضهم الإخلاص هو مقام الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه".

قال الشيخ أبو طالب: "الإخلاص إخراج الخلق من معاملة الحق، وأول الخلق: النفس".

وقال بعضهم: صحح عملك بالإخلاص، وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة.

ولا يتحقق الإخلاص حتى يسقط الناس من عينه ، فما دام العبد يراقب الناس ويهابهم لا يتحقق إخلاصه أبدا، إذ لا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق... وليحذر أن يترك العبد العمل خوفا من الرياء فهذا من مداخل الشيطان على الإنسان ليمنعه من العمل الصالح.

ومقام الإخلاص هو من التحقق بمعنى قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ (الفاتحة: 5).

فعمل الأول هو العمل لله تعالى، وعمل الثاني هو العمل بالله، فالعمل لله يوجب المثوبة، والعمل بالله يوجب القربة كما عبر عن ذلك الإمام القشيري.

❁ ❁ ❁

"كَما لا يُحِبُّ العَمَلَ المُشْتَرَكَ لا يُحِبُ القَلْبَ المُشْتَرَكَ.
العَمَلُ المُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ، والقَلْبُ المُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْهِ"

العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع، والقلب المشترك هو الذي فيه محبة غير الله تعالى والسكون إليه والاعتماد عليه، فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه إلى الناس، والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه إلى الأغيار (ما سوى الله تعالى)...

العمل المشترك لا يحبه ولا يقبله ولا يثيب عليه لفقد الإخلاص منه: يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" (مسلم وأحمد)، والقلب المشترك وهو الذي فيه حب شئ من السوى، لا يقبل عليه لعدم وجود الصدق فيه، فمن حصن أعماله بالإخلاص، استحق القبول وكان من الخواص، ومن حصن قلبه من الأغيار، امتلأ بالعلوم والأنوار، ونبعت منه المعارف والأسرار...

واعلم أن العمل المشترك هو الذي يدخله ثلاث علل: إما رياء وإما عجب أو طلب عوض:

أما الرياء: فهو الشرك الأصغر، وقد تقدم الحديث: " من عمل عملا أشرك فيه معي غيري..." الحديث، وفي حديث مسلم: " ثلاثة أول من تسعر بهم النار..." الحديث.

وأما العجب: فهو رؤية النفس وإسناد العمل إليها، ورؤية المزية لها على الناس، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (النجم: 32)، قيل معناه: إذا عملت عملا فلا تقل عملت ولا تظهره عند من يعظمك لأجل علمه بذلك.

وفي الحديث: "ثلاث مهلكات وثلاث منجيات وثلاث كفارات وثلاث درجات ;

فأما المهلكات: فشح مطاع وهوى متبع و إعجاب المرء بنفسه،

وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله تعالى في السر والعلانية;

وأما الكفارات: فانتظار الصلاة بعد الصلاة وإسباغ الوضوء في السبرات ونقل الأقدام إلى الجماعات ;

وأما الدرجات: فإطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام. (الطبراني في الأوسط).

وقال ﷺ: "لو لم تكونوا تذنبون، لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك؛ العجب.. العجب" (حسن - صحيح الجامع).

والمعجب أعمى عن آفات نفسه وعمله، وربما استنكف عن سؤال غيره والاستماع لنصح الناصح، لنظره لمن سواه بنظر الاستحقار.

والقلب المشترك هو الذي يدخله حب الدنيا أو حب الأغيار أو حب الخصوصية... وهي قادحة في الإخلاص، ومخرجة عن درجة التوحيد الخالص...

سئل بعض العارفين ما علامة قبول العمل؟ قال: نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية، بدلالة قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر: 10)، فالمقبول مرفوع مغيب عنك... والله أعلم...

" عَلِمَ قِلَّةَ نُهوضِ العِبادِ إلى مُعامَلَتِه ، فَأوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجودَ طاعَتِه ، فَساقَهُمْ إلَيْهِ بِسَلاسِلِ الإيْجابِ... (عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُساقونَ إلى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ)... أوْجَبَ عَلَيْكَ وُجودَ طاعَتِه ، وَما أوْجَبَ عَلَيْكَ إلا دُخولَ جَنَّتِه "

لما علم الحق سبحانه من عباده قلة النهوض إلى معاملته، إذ قال سبحانه: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: 13)، وقال أيضاً: ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (ص: 24)، فلما علم ذلك أوجب عليهم طاعته، وأوعدهم على تركها بالعقوبة، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب، واستدرجهم بذلك إلى ما فيه نعيمهم، مما لا علم لهم به.

ثم ذكر الشيخ حديثا ورد في شأن الأسارى من الكفار حين أسرهم المسلمون، فيعرفون الإسلام ويكون أسرهم سببا في دخولهم الجنة، ولفظ الحديث: "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل " (صحيح البخاري)، والعجب في حق الله معناه الرضا ونحو ذلك، وفيه إظهار لبديع شأنه سبحانه... فالجنة التي أخبر الله بما فيها من النعيم المقيم والخلود في العيش الرغد الدائم، حكم من سمع بها من ذوي العقل أن يسارع إليها، ويبذل جهده فيها، ويحتمل المكاره والمشقات لينالها، وهؤلاء يفرون منها ويرغبون عنها حتى يقادوا إليها بالسلاسل كما يقاد إلى المكاره العظيمة، فشبه المؤلف رحمة الله انقياد عامة المسلمين تحت تكاليف الشرع، من أمر ونهي بانقياد الكفار للإسلام بسلاسل الأسر...

ثم إن الحق سبحانه غني عن الانتفاع بالمنافع، فما أمرك بهذا ونهاك عن

هذا إلا لما لك فيه من جلب المنافع ودفع المضار: " أوجب عليك وجود خدمته، وما أوجب عليك إلا دخول جنته ".

قال بعض الحكماء: واعلم أن في الطاعات تفاوتا ودرجات، وفي المخالفة كبائر ودركات، قال رسول الله ﷺ: "إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم" قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم. قال "بلى، والذي نفسي بيده ! رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين" (البخاري ومسلم).

والناس قسمان: قسم أطاع على التكليف، وقسم أطاع على التعظيم وهم أهل الإحسان، وهو أيضا مقام الأنبياء وخواص الأولياء... جاء في الحديث: "قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! قال:أفلا أكون عبدا شكورا" (البخاري ومسلم)، ومن كانت عبادتهم شكرا، فعبادة هؤلاء كثيرة، عظيمة في المعنى والأجر...

❁ ❁ ❁

" خيرُ ما تَطْلُبُهُ مِنْهُ ما هُوَ طالِبُهُ مِنْكَ "

الذي طالبه منا هي الاستقامة ظاهراً وباطناً - العبودية في الظاهر والمعرفة في الباطن، ومنها امتثال أمره واجتناب نهيه، والإكثار من ذكره، والاستسلام

لقهره، فخير ما يطلبه العبد من سيده ما هو طالبه منه وهو ما تقدم ذكره... وفي الأثر: "إن الله لا يسأل الخلق عن ذاته وصفاته، ولا عن قضائه وقدره، ولكن عن أمره ونهيه"، فإذا ما فعل ما أمره به سيده رزقه المعرفة به، قال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ (النساء: 32)، قيل فضله: هو الغني به.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "ما يكلف الله عباده آمرا أو ناهيا، بشيء، إلا وفي ذلك التكليف خير لهم، قال العز بن عبد السلام: (الشريعة كلها مصالح، إما أن تدرأ مفاسد، أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: "يأيها الذين آمنوا"، فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرا يحثك عليه، أو شرا يزجرك عنه، أو جمعا بين الحث والزجر).. وحسبك دليلا على هذا قول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ (الأنفال: 24)... إن الله الذي فطر الإنسان على احتياجات تصلح شأنه، وأقامه في دنيا مليئة بالآفات التي تعكر صفو سعادته، وأقامه من الزمن الذي خلقه فيه على منهاج رحلة ذات ثلاثة مقاطع:

- مقطع هذه الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت،
- ومقطع الحياة البرزخية التي تنتهي بقيام الساعة،
- ومقطع اليوم الآخر الذي يسلم الإنسان إلى مستقره الأخير..

هذا الإله العليم القدير هو البصير بما يصلح عباده، أفرادا ومجتمعات... والمسلم الذي يوجه كل اهتمامه للنهوض بالتكاليف التي خاطبه الله بها، فينشغل بها في حينها عن النظر في شئونه الشخصية وحاجاته الدنيوية، سيجد

من لطف الله به ورعايته له ما لا يدخل في الحسبان، إنه وقد شغل نفسه بالقيام بتكاليف الله، سيجد أن الله عز وجل قد قام وكيلا عنه في رعاية مصالحه وتحقيق متطلباته.. إنه مقتضى: " حسبنا الله ونعم الوكيل "، وفي الحديث القدسي الذي تقدم: " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ".. قال الشيخ الرفاعي: احفظ نيتك من دنس الوساوس، وأمسك القلب عن الميل إلى الناس، وكل خبزا يابسا وماء وملحا من باب الله، ولا تأكل لحما طريا وعسلا من باب غير الله ".

۞ ۞ ۞

" مَتى رَزَقَكَ الطّاعَةَ وَالغِنى بِهِ عَنْها فَاعْلَمْ أنَّهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً "

الطاعة هي اتباع الشريعة... والنعم الباطنة: الهداية والمعرفة، أسبغ عليك: أكمل وأطال عليك نعمه، ومعنى الحكمة واضح، فهو سبحانه المتفضل بإخراج من يشاء من عباده من الظلمات إلى النور، ويجري الخير على أيديهم بما ييسره لهم من الأعمال الصالحة التي يوفقهم لها، ثم هو يكرمهم ويجزيهم على هذا التفضل بما أعده لهم من الجزاء الطيب في الدنيا والآخرة.

وطاعة الله لها فوائدها العديدة، وثمارها الكثيرة.. ومنها أيضا حب الناس:

- قال زيد بن أسلم: كان يقال: من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا.
- وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلته.

- قال ابن رجب: فتقوى الله في السر، هي علامة كمال الإيمان، ولها تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبها الثناء في قلوب المؤمنين.

ورد في بعض الأخبار: إن الله يحفظ الأولاد وأولاد الأولاد بطاعة الأجداد، وذلك لقوله تعالى: " وكان أبوهما صالحا "، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (الكهف: 82).

❁ ❁ ❁

"لا تُفْرِحْكَ الطّاعَةُ لأَنَّها بَرَزَتْ مِنْكَ، وَافْرَحْ بِها لأَنَّها بَرَزَتْ مِنَ اللهِ إلَيْكَ: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) "

لما كان أصل كل نور وسرور وخير هو طاعة الله، وأصل كل ظلمة وحجاب وبعد هو معصية الله، كان من علامة حياة القلب فرحه بالطاعة، وحزنه على صدور المعصية.

ورد في الحديث: "من سرته حسنته وساء ته سيئته فهو مؤمن" (الترمذي وأحمد)، فالطاعة تحدث فرحا لأنها عنوان الرضا والقبول، فهي هدايا من الملك الكريم... فأهل ذلك الحس فرحهم بالله دون شئ سواه، فالفرح إنما هو بفضل

الله وبرحمته: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾ (يونس: 58).

فمن فضل الله الهداية والتوفيق، ومن رحمته: اجتباؤه وتقريبه، وقيل جنة النعيم... وجاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية العظيمة: "أَيْ بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ اللهَّ مِنْ الْهُدَى وَدِين الْحَقّ فَلْيَفْرَحُوا فَإِنَّهُ أَوْلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ " هُوَ خَيْر مِمَّا يَجْمَعُونَ " أَيْ مِنْ حُطَام الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ الزَّهْرَة الْفَانِيَة الذَّاهِبَة لا مَحَالَة "..

ويقول الدكتور البوطي: "هو بفضله ورحمته فطرك على حنين الإقبال عليه والتعرف إليه، وبفضله ورحمته أقدرك على خطوات السير إليه، وبفضله ورحمته يجعلك يوم القيامة من المقبولين لديه.. إذن فاجعل ذلك وحده مصدر سرورك وفرحتك، وصدق الله القائل: (قُلْ بِفَضْلِ اللهَّ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ).

۞ ۞ ۞

"كَفى مِنْ جَزائِهِ إيّاكَ عَلى الطّاعَةِ أنْ رَضِيَكَ لَها أهلاً"

لأن الملك لا يدعو لخدمته إلا من يريد أن يكرمه، ولا ينسب له إلا أهل الفضل والتكرمة... قال تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (النور: 21).

وقال تعالى: "﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ (الحجرات: 7)

ورد في الأثر: "إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا لمن أحب".

وورد في الحديث: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله" (البخاري ومسلم).

فالتوفيق للطاعة أعظم منة وأكبر جزاء على وجودها، بل هو غاية الجزاء ونهاية العطاء عند العلماء العارفين.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن الله جل جلاله عندما شرفك بنعمة الإسلام، وقبلك وافدا إليه بطاعتك، لم يقبلك في عداد المؤمنين إلا لأنه أحبك، فيجب على العبد الذي هداه الله إلى طريقه، ووفقه إلى طاعته أن يعلم أن المنة لله عليه في كل ذلك، وأنه لم يعط إنسان آخر مثل تلك النعمة العظيمة".

۞ ۞ ۞

"كَفى العامِلينَ جَزاءً ما هُوَ فاتِحُهُ عَلى قُلوبِهِم في طاعَتِهِ، وَما هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِم مِنْ وُجودِ مُؤانَسَتِهِ"

هذا بيان آخر للجزاء المعجل، وهو أن العاملين لربهم يفتح لهم من المعارف، ويورد على قلوبهم من أنواع اللطائف ما يتنسمون منه روح الأنس،

ويتنعمون به في حضرة القدس، وهذا من علامة وجود الرضوان الأكبر الذي يتلاشى دونه كل جزاء..

فمما عجل الله سبحانه في هذه الدار ما يرد على قلب العبد حال عمل الطاعة من المؤانسة به والقرب منه...

قال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى أي شئ، قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله...

وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا ما يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة...(أهل التملق هم الذين يستيقظون في الثلث الأخير من الليل يناجون الله سبحانه ويثنون عليه بما هو أهله).

وكان بعضهم يقول: التملق للحبيب والمناجاة للقريب في الدنيا ليس من الدنيا، هو من الجنة أظهره الله في الدنيا، لا يعرفه إلا هم، ولا يجده سواهم روحا لقلوبهم، وقيل أيضا: ليس شئ من الطاعات إلا ودونه عقبة كئود يحتاج فيها إلى الصبر، فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة، وإنما هي مجاهدة النفس ومخالفة الهوى.. مكابدة في ترك الدنيا، ثم اللذة والتنعم.

يقول الدكتور البوطي: "إن العبد إذا أقبل إلى الله يؤدي ما قد كلفه به من طاعات، أقبل الله إليه بالرحمة واللطف، وتجلى عليه بالود والإيناس، فيشعر عندئذ بلذة قلبية بالغة للطاعة التي هو مقبل عليها، ويرى فيها متعة نفسه وغذاء روحه".

"وِجْدانُ ثَمَراتِ الطّاعاتِ عاجِلاً
بَشائِرُ العامِلينَ بِوُجودِ الجَزاءِ عَلَيْها آجِلاً"

ما يجده العاملون بطاعة الله تعالى في أعمالهم عاجلا من مزيد الإيمان واليقين، وتنسم روح الأنس، ولذيذ القرب ولطيف الوصل، بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها في الدار الآخرة إن شاء الله، ولعلها إشارات تعطي الأمل في قبولها عند الله تعالى بفضله وكرمه ومنته، فمن وجد في بدايته، حلاوة مجاهدته، مما خلفته في قلبه من معارف وأنوار، وما يترتب عليها من نفع لخلق الله، فليستبشر بوجود الجزاء آجلا... على هيئة ثمار طيبة لهذه الأعمال في الدنيا، أو جزاء وفير عليها في الآخرة... ومن لم يجدها فلا ييأس من روح الله، فإن لله نفحات تهب على القلوب.. فتصبح عند علام الغيوب.

۞ ۞ ۞

"لولا جَميلُ سَترِه لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أهْلاً لِلْقَبول..
مَتى طَلَبْتَ عِوَضاً عَلى عَمَلٍ، طولِبْتَ بِوجودِ الصِّدْقِ فيهِ. وَيَكْفي المُريبَ وِجْدانُ السَّلامَةِ"

العمل الذي تتوفر فيه شروط القبول، وهي الإخلاص والتبري فيه من الحول والقوة في غاية الندرة، فلولا أن الله سبحانه تفضل علينا بجميل ستره فغطى مساوئنا بجلائل لطفه وبره، ما كان عمل أهلا للقبول أصلا، ولكن الذي من بوجود الأعمال، يمن بوجود القبول والإقبال... قال بعضهم: ما هناك إلا

فضله، ولا نعيش إلا في ستره، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم... قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ ﴾ (عبس: 17)، وقال سبحانه: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ ﴾ (عبس: 23)، فبالكاد يقوم الإنسان بالأمر.

۞ ۞ ۞

"السَّتْرُ عَلى قِسْمَيْن: سَتْرٌ عَنِ المَعْصِيَة، وَسَتْرٌ فيها. فَالعامَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ السَّتْرَ فيها خَشْيَةَ سُقوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ الخَلْق، وَالخاصَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ السَّتْرَ عَنْها خَشْيَةَ سُقوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ المَلِكِ الحَقِّ"

الستر: هو الحفظ والتغطية، وفي المعنى: من الفضيحة والمقت وسقوط المرتبة. وهو باعتبار المعصية على قسمين: قسم يقع الستر فيها، فلا يفضح صاحبها، وقسم يقع الستر عنها فلا يقع العبد فيها ولو طلبها، لما شمله من حفظ الله ورعايته...

فالعامة يطلبون الستر من الله فيها مع وقوعها لئلا يسقطوا من عين الخلق، فهم: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ ﴾ (النساء: 108)، فمحط نظرهم إنما هو شهود الخلق، غائبين عن نظر الملك الحق، وذلك لضعف إيمانهم، وقلة يقينهم، وانطماس بصيرتهم...

وأما الخاصة فهم يطلبون من الله الستر عنها والعصمة منها خشية أن يسقطوا من عين الحق.

وإلى هذا المعنى أشار أبو الحسن الشاذلي في دعائه بقوله: "اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها، وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها، واحملنا على النجاة منها، ومن التفكير في طرائقها، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها، واستبدلها بالكراهة لها، والطعم لما هو بضدها".

وعلى كل الأحوال، فالمطلوب من الإنسان أن يسأل الله الستر، فمن سنة الله وحكمته أن يستر على عباده المؤمنين، وجعل ذلك من شرعه، لذلك ندبنا إلى الستر " ومن ستر مؤمنا ستره الله في الدنيا والآخرة" (البخاري ومسلم).

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن الله ستير يحب الستر، جاء في الحديث: "إن الله تعالى حيي ستير يحب الحياء و الستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر" (صحيح الجامع الصغير)، وروى الشيخان أن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس (أي يوم القيامة) ويقرره بذنوبه، فيقول: "أتعرف ذنب كذا يوم كذا، فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا اغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه... الحديث.

والله سبحانه بهذا الستر الجميل، يستر عن الناس قبائح العبد في الدنيا مهما كثرت، وينشر فضائله بينهم مهما قلت، تفضلا منه وإحسانا... نسأل الله أن يديم علينا ستره، وأن لا يفضحنا ويكشف سريرتنا بين عباده ".

"ما اسْتُوْدِعَ في غَيْبِ السَّرائِرِ، ظَهَرَ في شَهادةِ الظَّواهِرِ"

ما استودع الله سبحانه في القلوب وجعله فيها من خير أو شر، من نور أو ظلمة، من كرم وسخاء وقبض وبسط... إلى غير ذلك، لابد أن يظهر آثار ذلك على الجوارح من أدب وتهذيب، وسكون وطمأنينة، وبذل وعفو، أو طيش وغير ذلك من الأحوال القلبية والأعمال القالبية، قال تعالى: ﴿ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ (البقرة: 273) وقال: ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم ﴾ (الفتح: 29).

وورد في الأثر: "من سر سريرة كساه الله رداءها" (الطبراني في الكبير والأوسط).

فأفعال الجوارح تابعة لأحوال القلوب، فمن أودع في سر غيبه معرفة مولاه لم يطلب من سواه... وهكذا أحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن، كما في قوله في الحكمة الأخرى: "تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال"، فما فيك ظهر على فيك، وكل إناء بالذي فيه يرشح، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره...

قال الشيخ أبو طالب المكي: قد جعل الله تعالى وصف الكافرين أنهم إذا ذكر الله وحده في شئ انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر غيره في شئ فرحوا، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥ ﴾ (الزمر: 45)، ومن مقتضيات هذا الفهم، أن المؤمنين إذا ذكر الله وحده في شئ انشرحت صدورهم واتسعت قلوبهم واستبشروا بذكره وتوحيده، وإذا ذكرت الوسائط

والأسباب التي دونه كرهوا ذلك، واشمأزت قلوبهم، وهذه علامة صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك...

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن الحب شعور خفي يهيمن على قلب الإنسان وسريرته، ولكنه لابد أن يطفح بآثاره ومقتضياته على ظاهر سلوكه وتصرفاته، فإذا رأيت من يدعي أنه يحب الله ورسوله، فتتبع دليل ذلك في سلوكه وأعماله، فإن رأيته ملتزما بأمور دينه قدر استطاعته، فذلك هو الدليل على صدقه، فإذا خشع القلب فلابد أن تظهر آثار ذلك على الظاهر، والخشوع حالة قلبية تعني الخضوع والسكون... ولعلك تستشكل فتقول: ولكن في الناس من ينزلق إلى المعاصي ولا يبدو ذلك على ظواهرهم، بل يظلون في كنف من ستر الله، أليس في هذا ما يناقض كلام ابن عطاء الله؟

والجواب: أن المراد بالسرائر أحوال القلوب وما استكن فيها، أما المعاصي التي يجترحها الإنسان في الخفاء، ويتوارى بها عن الناس، فليست هي المعنية بالسرائر هنا، بل هي من الظواهر التي سترها الله على صاحبها.. ومن بديع مظاهر ألطاف الله بعباده أنه ينشر الجميل من أفعالهم ويبعث لها عبقا بين الناس مهما قل ذلك الجميل أو خفي عن أنظارهم، ويستر القبيح منها مهما كثر أو تكرر. "

" غَيِّبْ نَظَرَ الخَلْقِ إلَيْكَ بِنَظَرِ اللهِ إلَيْكَ،
وَغِبْ عَنْ إقْبالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إقْبالِهِ إلَيْكَ "

الوجود الحق إنما هو: الله الواحد الأحد، ووجود السوى كالهباء في الهواء أو كظلال الأشخاص، إن فتشته لم تجده شيئا، فغيب عنك أيها الفقير نظر الخلق إليك اكتفاء بنظر الحق إليك، إذ لا نظر لسواه، وغب عن إقبالهم عليك بالتعظيم والتكريم بشهود إقبال الملك الكريم عليك، وفي الحديث عن الرسول ﷺ في وصية لابن عباس رضي الله عنهما: "يا غلام: إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" (صحيح الجامع الصغير).

وقال الشيخ أبو الحسن: آيست من نفع نفسي لنفسي، فكيف لا أيأس من نفع غيري لها، ورجوت الله لغيري، فكيف لا أرجوه لنفسي ".

قال ابن عطاء الله في "لطائف المنن": اعلم أن مبنى الولاية على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق: 3)، وقال سبحانه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ (الزمر: 36)، وقال ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ (العلق: 14)، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: 53).

قال سهل: لا ينال العبد حقيقة هذا الأمر حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا هو وخالقه.

ولله در من قائل:

فليتــك تحلــو والحيــاة مريــرة — وليتك ترضى والأنـام غـضاب
وليت الذي بيني وبينـك عـامر — وبينـي وبـين العـالمين خـراب
إذا صح منك الود فالكـل هـين — وكل الذي فوق الـتراب تـراب

واعلم أن رضا الخلق غاية لا تدرك، وأجهل الناس من طلب ما لا يدرك.

قال بعضهم: مالي وللناس، كنت في بطن أمي وحدي، وخرجت إلى الدنيا وحدي، وأموت وحدي، وأدخل قبري وحدي، وأسأل وحدي، وأبعث في قبري وحدي، وأحاسب وحدي فإن دخلت الجنة دخلت وحدي، وإن دخلت النار دخلت وحدي، ففي هذه المواطن لا ينفعني أحد، فما لي وللناس !.

صفحة بيضاء- تترك فارغة

الفصل الثامن عشر

في السير إلى الله

"لَوْلا مَيادينُ النُّفوسِ ما تَحَقَّقَ سَيْرُ السّائِرينَ"

السير إلى الله:

هو تعبير مجازي وهو عبارة عن قطع العلائق: وهي ما يعلق بالإنسان ويجذبه من مشاغل الدنيا، والعوائق: وهي ما يعوق الإنسان ويقطع عليه الطريق في سيره إلي الله.

والميدان: هو مجال الخيل، واستعير هنا لمحاربة النفوس ومجاهدتها، فهي تارة تكر عليك فتظفر بك، وتارة تكر عليها فتظفر بها..

وألفاظ: السير والسلوك والذهاب والرجوع هي عبارات استعملها كتاب التربية في أمور معنوية تجوزوا بها عن أمور حسية، ومرجع ذلك إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد. وقد تقدم أكثر من مرة من كلام المؤلف أن النفس

هي الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى، وأن بمجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالى.

قال ابن الجوزي في ترجمة أبي يزيد البسطامي من كتابه صفة الصفوة: عن علي بن المثنى سمعت أبا يزيد يقول:

رأيت رب العزة تبارك وتعالى في المنام، فقلت "يا رب كيف الطريق إليك؟ فقال له: أترك نفسك ثم تعال" (أي غب عنها تجدني أقرب إليك منها)، قال أبو يزيد: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها.

قال بعضهم: ما الحياة إلا في الموت، أي ما حياة القلب إلا في إماتة النفس (أي إماتة حظوظ النفس السفلية)، وسبيل المريد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة إلى مولاه في أن يعينه ويقويه على أمر نفسه، ويسهل عليه طريق سلوكه، ويستعمل هذا في كل حال وفي كل وقت.

ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة في ظاهره وباطنه، والتزام آدابها، فيراقب ربه ويحفظ جوارحه وقلبه، ويعتزل أماكن الشبهات والغفلات، فإن العزلة والخلوة في هذه الأحوال تؤدي إلى هدوء النفس وسكونها، وبمداومته على ذلك يحصل له من التزكية والتخلية والاستقامة والطمأنينة ما هو مقصود بالرياضة والمجاهدة...

والوحدة في جمع الهم (بأن يكون أهم ما يشغل المرء هو هم الآخرة) لها

تأثيرها في صفاء الباطن مطلقا، وكل ما كان من ذلك بحسب سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج: تنوير القلب والزهد في الدنيا وحلاوة الذكر، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك.

وما كان من ذلك من مجاهدة للنفس بغير سياسة الشرع كما يفعل الهنود والبوذيون كان محلا لغواية الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك، وليس ذلك المقصود من الخلوة... وقد يفتح الله على الصادقين بشيء من خرق العادات وصدق الفراسة وتبين ما سيحدث في المستقبل، وقد لا يفتح عليهم بذلك، ولا يقدح في حالهم عدم ذلك.

قال ابن عجيبة: ويجب على المريد أن يأخذ نفسه بالتدرج، تقدمها للقليل فإذا استأنست به زدتها شيئا آخر وهكذا، فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، وقال يحكي عن نفسه رحمه الله: " وقد كنت في حالة المجاهدة إذا هممت بترك وردي نادتني هواتف الأكوان، حتى كنت في بعض الأيام تخاطبني الصبيان: يا هذا اليهودي حين نهتم بترك وردي، وتارة نسمع يا عساس حين يسرقني شئ من الحس وهكذا.. انتهى.

قال ﷺ: "اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل" (البخاري ومسلم)، وجاء في الأثر: "لا يكن أحدكم كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى"، (المنبت: المنقطع الذي أجهد دابته للإسراع في السير حتى ماتت وسط الطريق)...

ولكن ليستمر في سيره، ولا يمل ولا يفتر، **فمن عرف ما قصد، هان عليه ما ترك.**

وإذا وفق الله العبد إلى رجل من رجال التربية فقد أنعم عليه نعمة كبيرة... وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه...

۞ ۞ ۞

" الخِذْلانُ كُلُّ الخِذْلانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنْ الشَّواغِلِ ثُمَّ لا تَتَوَجَّهَ إلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إلَيْهِ "

من أسباب البركة في العمر التفرغ من الشواغل والشواغب، فمن كثرت شواغله وشواغبه وكان بعيدا عن الله، لا بركة له في عمره... ولكن إذا قلت شواغلك في الظاهر وعوائقك في الباطن ثم لم تتوجه إلى ربك في ظاهرك، ولم ترحل إليه في باطنك فهو علامة غاية الخذلان، لأن جل الناس ما حبسهم عن التوجه إلى الله إلا كثرة أشغالهم الحسية فاشتغلت جوارحهم بخدمة الدنيا في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، حتى انقرض العمر كله في البطالة والتقصير، فهذا هو الخذلان الكبير، ومن الناس من قلت شواغلهم الظاهرة لكن كثرت علائقهم في الباطن لكثرة ما تعلق بهم من الشواغل، فهم مغرقون في التدبير والاختيار، والإهتمام بأمور من تعلق بهم من الأنام، لا سيما من كان له جاه ورياسة وخطة أو سياسة، فهذا باعتبار العادة بعيد من الإقبال على مولاه إلا أن سبقت له سابقة عناية، فتجره إلى رحمة ربه ورضاه.

والحاصل أن الخير كله في التخفيف من الشواغل والعلائق، فمن تفرغ منها فهو قريب من الحضرة، وأما من كثرت شواغله وعوائقه فأمره غالبا بعيد، لأن فكرته مشغولة بالعلائق والمخاطف، ومهما هم بالسير جذبته المخاطف إليها... ففراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة... أما من خفت شواغله ولم يتوجه إلى الله، فعليه أن يسارع وليجدد إيمانه..

قال أبو عبد الله: قد قيل: سيروا إلى الله عز وجل عرجا ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة... قال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ (التوبة: 41).

۞ ۞ ۞

" لا تَتَرقَّبْ فُراغَ الأَغْيارِ، فإنَّ ذلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجودِ المُراقَبَةِ لَهُ فيما هُوَ مُقيمُكَ فيهِ "

الترقب: هو الانتظار، والأغيار: جمع غير وهو ما غير الله تعالى، أوهو ما يغير القلب عن حاله، والغالب استعماله فيما يغيره من حالة الكمال إلى حالة النقص... وعند الصوفية: كل ما يشغل عن الحضرة (أي الحضور بالقلب مع الله) ويغير القلب عنها فهو غير... ويدخل فيها كل شواغل الدنيا.

فإذا أقامك الحق تعالى في حال يغلب فيها وجود الأغيار، كما إذا أقامك في شغل دنيوي في الظاهر لا محيد لك عنه، فجاهد قلبك في الحضور مع الله لئلا تسرقك الغفلة، ولا تنتظر فراغ شغل يدك من تلك الأغيار فتؤخر حضور

قلبك إلى تمام شغل يدك فيفوتك وجود المراقبة في تلك الحال التي أقامك الحق فيها.

والسالكون إلى الله عز وجل يصلون إلى حالة لا يغيب عنهم الله عز وجل أبدا حتى في أكلهم... حتى في شربهم... حتى في مخاطبتهم الناس، وهذه أرقى درجات الوصول إلى الله عز وجل... قال الجنيد رحمه الله: "صار لي ثلاثون عاما أخاطب الخلق وأنا أخاطب الحق"، بمعنى أنه منذ ثلاثين سنة لم يغب الله عز وجل عنه لحظة واحدة حتى وهو يخاطب الخلق... وهذه حالة لا يصل إليها الإنسان إلا بعد مجاهدة.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "إن العارف إذ يتعامل مع الدنيا وأسبابها لا يرى نفسه إلا مع الله، وهو إذ يمارس شئونه مع الناس وينشط معهم في قضاياهم الاجتماعية وغيرها، لا يعلم من حاله إلا أنه يتعامل مع الله، فهو كما قالوا: عرشي وفرشي بآن واحد، عرشي مع الله في مشاعره وباطن حاله، وفرشي مع الناس في تصرفاته وظاهر حاله، قال الإمام الرازي رحمه الله: "كن ظاهرا مع الخلق، باطنا مع الحق"، فهؤلاء العارفون إنما يتعاملون مع الدنيا وهم غافلون عنها، والمراد بغفلتهم عنها أنهم لا يقيمون لها وزنا ولا يرون لها شأنا، أذهلهم عنها انصرافهم الكلي إلى الله، وصغرها في أعينهم انشغال أفئدتهم عنها بمحبة الله وتعظيمه.. وكم من فرق بين من يلهو بالدنيا مندفعا إليها بالحب محجوبا بها عن الله، وبين من يجندها ويذللها لمرضاة الله.. ألا إن فناء العارفين عن الدنيا وعن أنفسهم بالله، هو الذي حررهم من مكائدها، فصارت مطية ذلولا سارت بهم إلى رحاب الله طبق النهج الذي أمر

به الله... تلك هي الدنيا، مطية إلى الله، فمن ذهل بالله عنها أوصلته وأسعدته، ومن ذهل بها عن الله أسقطته ثم أعطبته، وتقطعت به الآمال والسبل.. وتلك هي مزية من يسمون العارفين، وهم الربانيون، ورثوا عرفانهم من رسول الله ﷺ، ثم من أصحابه والصالحين من بعده، فأضافوا إلى ظاهر الالتزام بالشرع، باطن الفناء عن الدنيا بشهود الله.. ولا يصلح حال المسلم مع الله إلا بعد أن يتوفر في حياته كلا هذين الجانبين..

والفرار من الأغيار أيا كانت وأينما وجدت، إنما يكون بالالتجاء إلى الله عز وجل، وهذا من معاني قول الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ ﴾ (الذاريات: 50).

۞ ۞ ۞

" لا مَسافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتى تَطْوِيهَا رِحْلَتُكَ "

لا مسافة بينك وبينه إلا حجاب النفس الكثيفة، وعلائق القلب الكونية... فمن خرق عوائد نفسه زالت عنه الحجب الظلمانية، ومن قطع علائق القلب فاضت عليه العلوم الربانية، وأشرقت عليه الشموس العرفانية، وهذا هو الوصول، فلا مسافة بينك وبينه حسية حتى تطويها رحلتك، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦ ﴾ (ق: 16)، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ (البقرة: 148).

قال ابن عجيبة: فكل شخص إنما يعبر عن وجهته التي خصه الله بها، فيجب توحيد الهمة للوصول إلى الله عز وجل.

ومعنى الوصول إلى الله هو الوصول إلى العلم الذي يجعل الإنسان دائما مع الله تعالى، وهذا هو غاية السالكين، ومنتهى سير السائرين... والوصول إلى الله ليس وصولا ماديا له صلة بالمكان أو فيه معنى الحلول والاتحاد... جل ربنا: أي تعالى وترفع عن ذلك علوا كبيرا... لذا نبه الشيخ على أن القرب منه هو التقرب إليه والشعور بقربه سبحانه وتعالى.

۞ ۞ ۞

"فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيارِ تَمْلأهُ بِالمَعارِفِ والأسْرارِ"

فرغ قلبك أيها المريد من الأغيار (وهو ما غير الله، أو ما سوى الله)، بحيث لا يتعلق قلبك بشيء آخر من الكون علويا أو سفليا، دنيويا أو أخرويا، حسيا أو معنويا، فإذا رحل قلبك من هذا العالم بالكلية ولم يبق فيه إلا محبة مولاه، فإنه يملأ بالمعارف، بحيث يكشف عنك حجاب الوهم، ويذهب عنك ظلمة الحس، فتشاهد الأشياء كلها أنوارا ملكوتية، مشاهدة ذوقية تمكينية، فيهب عليك نسيم، برد الرضا والتسليم، وأنت في حضرة النعيم المقيم، عند الملك الكريم...

والتدرج في المعرفة والإدراك، ضرب له ابن عجيبة مثلا بافتقار القارئ

إلى النظر في الرسوم، فإذا حفظ القارئ المعنى وتمكن منه محى الرسوم ولم يفتقر إليها، كذلك السائر.. يكشف له أولا عن نور الكون فيغيب في النور عن ظلمة الحس، ثم لا يزال في السير حتى يقبض المعنى ويتمكن منه فلا يحتاج إلى مشاهدة فيستغني عن نور الملك بنور الملكوت، وذكر المؤلف للأسرار قد يقصد به الأذواق والوجدان، فتكون المعارف هي علوم المعرفة، والأسرار هي أذواق تلك العلوم... فإن المعرفة تكون أولا علما، وآخرا ذوقا...

ومن أراد سرعة السير إلى هذا المقام، فليفرغ قلبه وينظفه على التمام، فبقدر التخلية تكون التجلية، وبقدر التصفية تكون الترقية.

۞ ۞ ۞

" العَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لا انْفِكاكَ لَهُ عَنْهُ، وَيَطْلُبُ ما لا بَقاءَ لَهُ مَعَهُ "

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "أيها العبد.. لا انفكاك لك عن الله في حياتك التي تعيشها اليوم، إذ هو معك أينما كنت، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد: 4)، ومعنى هذه المعية أن الله معك بعلمه، معك برعايته، ومعك بتدبيره، ومعك بالمعنى المطلق للمعية، دون أن تفهم منها قيود التحيز في مكان، فالله سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: 11)..

أما الشيء الذي لا بقاء له مع الإنسان، فهو كل ما عدا الله عز وجل، كل

ما يركن إليه الإنسان مما عدا الله عز وجل فمآله إلى الإنفكاك عنه.. إما أن يهلك الإنسان فيتركه، أو أن يهلك الشيء الذي كان يركن إليه، ويبقى الإنسان بعيدا، بل غائبا عنه..

والإنسان الضال في الغرب يتعلق بعالم الأسباب وظواهرها، منصرفا عن المسبب الذي يحركها، يرى المطر الهاطل من السماء، فيمضي يحدث الناس عن رحمة السماء، ويبعث بصره في الأرض المخضرة والينابيع الثرة فيناجي في ذلك الطبيعة ويشكرها، ويمضي يحدث الناس عن فنون الطبيعة وإبداعاتها.

وإذا تأمل هذا الغافل حوله لوجد هذه "الطبيعة " من حوله بكل ما فيها تسير على سنة كونية واحدة لا تتبدل.. إذ قضى الله بأن تكون مدارج الوجود لكل شيء مؤلفة من بداءة ضعف، ثم من تنقل في درجات القوة إلى أن تصل منها إلى الأوج، ثم من تدرج في العود إلى الضعف فالذبول فالانمحاق.. كل شيء في الكون مطبوع بهذا القانون.. إن هذا الواقع المتشابه الذي تنطق به أشياء الكون كلها، يقص عليك قصة النهاية التي سيختفي في مغربها كل هذه المكونات التي تتألق أمام عينيك ويأخذ الكثير منها بمجامع نفسك، كي لا تغتر بها فتتعلق بها وتركن إليها، تنشد سعادتك وراء اللحاق بها..

قال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ﴾ (الكهف: 45)...

وقال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ

بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ (الحديد: 20).

فالمطلوب من العبد المملوك تجاه ربه الذي لا شريك له في ربوبيته ومالكيته له، أن يعلم مستيقنا أنه هو، لا غيره، مصدر كل فضل وعطاء، فلا يبتغي رزقه إلا منه، وأنه هو لا غيره، مسبب الأسباب كلها، فلا يتعلق بالأسباب الوهمية ويجعل منها شريكا مع الله، وأن يعلم أن كل شيء مما يحلو لعينيه مرآه، أو تركن إليه نفسه، سيتخلى عنه عما قريب، ولن يبقى من صاحب ولا أنيس ولا سمير ولا حبيب معه إلا الله عز وجل".

۞ ۞ ۞

رسالة للشيخ في السير إلى الله:

أما بعد،

فإنَّ البداياتِ مَجلاةُ النِّهاياتِ. وإنَّ مَنْ كانَتْ بِالله بِدايَتُهُ كانَتْ إلَيْهِ نِهايَتُهُ. والمُشْتَغَلُ بِهِ هُوَ الَّذي أَحْبَبْتَهُ وَسارَعْتَ إليهِ، والمُشْتَغَلُ عَنْهُ هُوَ المُؤْثَرُ عَلَيهِ. وَإنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ يَطْلُبُهُ صَدَقَ الطَّلَبَ إليهِ. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الأُمُورَ بِيَدِ الله انْجَمَعَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ. وأَنَّهُ لا بُدَّ لِبِناءِ هذا الوُجودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعائِمُهُ. وأَنْ تُسْلَبَ كَرائِمُهُ. فالعاقِلُ مَنْ كانَ بِما هُوَ أَبْقى، أَفْرَحَ مِنْهُ بِما هُوَ يَفْنى. قَدْ أَشْرَقَ نُورُهُ

وَظَهَرَتْ تَباشيرُهُ، فَصَدَفَ عَنْ هذِهِ الدّارِ مُغْضِياً، وَأَعْرَضَ عَنْها مُوَلِّياً. فَلَمْ يَتَّخِذْها وَطَناً وَلا جَعَلَها سَكَناً. بَلْ أَنْهَضَ الهِمَّةَ فيها إلى الله، وَسارَ فيها مُسْتَعيناً بِهِ في القُدومِ عَلَيْهِ. فَما زالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لا يَقِرُّ قَرارُها، دائِماً تَسْيارُها، إلى أَنْ أَناخَتْ بِحَضْرَةِ القُدْسِ وَبِساطِ الأُنْسِ، مَحَلِّ المُفاتَحَةِ وَالمُواجَهَةِ وَالمُجالَسَةِ وَالمُحادَثَةِ وَالمُشاهَدَةِ وَالمُطالَعَةِ. فَصارَتْ الحَضْرَةُ مُعَشَّشَ قُلوبِهِمْ؛ إليْها يأْوونَ، وَفيها يَسْكُنونَ. فإِنْ نَزَلوا إلى سَماءِ الحُقوقِ أَوْ أَرْضِ الحُظوظِ فَبِالإِذْنِ وَالتَّمْكينِ وَالرُّسوخِ في اليَقينِ. فَلَمْ يَنْزِلوا إلى الحُقوقِ بِسوءِ الأَدَبِ وَالغَفْلَةِ، وَلا إلى الحُظوظِ بِالشَّهْوَةِ وَالمُتْعَةِ. بَلْ دَخَلوا في ذَلِكَ كُلِّهِ بِاللهِ وَللهِ وَمِنَ اللهِ وَإِلى اللهِ. {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ}، لِيَكونَ نَظَري إلى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ إذا أَدْخَلْتَني، وَاسْتِسْلامي إِلَيْكَ إذا أَخْرَجْتَني. {وَاجْعَلْ لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصيراً} يَنْصُرُني وَيَنْصُرُ بي وَلا يَنْصُرُ عَلَيَّ؛ يَنْصُرُني عَلى شُهودِ نَفْسي وَيُفْنيني عَنْ دائِرَةِ حِسِّي.

❁ ❁ ❁

الفصل التاسع عشر

في معرفة الله

" إذا فَتَحَ لكَ وجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فلا تُبْالِ معَها إنْ قَلَّ عمَلُكَ، فإنَّهُ ما فَتَحَها لكَ إلا وَهُوَ يُريدُ أنْ يَتعَرَّفَ إليْكَ..

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ والأَعْمالَ أَنْتَ مُهديها إليه، وأَينَ ما تُهْدِيهِ إلَيهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ؟! "

معرفة الله تعالى هي غاية المطالب ونهاية الآمال والمآرب، فإذا واجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها، وفتح له باب التعرف له منها، وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها، فذلك من النعم الجزيلة عليه.

والدخول إلى مقام الولاية إنما يكون من خلال العمل الصالح، وما تقرب العبد إلى ربه بشيء أحب مما افترضه عليه، جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى قال: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا

أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت و أنا أكره مساءته" (البخاري).

وقلة العمل مع ازدياد الواردات الإلهية فيه حكمة، حتى لا يصبح عندك نوع من الشعور بالعجب وأن هذه الواردات هي أثر من عملك.

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "يمكن أن ينتقل الإنسان من وهدة الضياع والضلال إلى صعيد الهداية ومعرفة الله من خلال أحد طريقين لا ثالث لهما:

أحدهما: يتجه الإنسان إلى الله، ويوجه قلبه إلى معرفته ومحبته وتعظيمه، ويلتزم الطاعات والقربات، ويتجنب المحرمات والمكروهات ما استطاع، ويستعين على ذلك بذكر الله كثيرا، والتبتل إليه تبتيلا.. والنتيجة التي ينتهي إليها سالك هذا الطريق هي تضاؤل الدنيا شيئا فشيئا أمام بصره وبصيرته، وتعاظم الآخرة وما فيها شيئا فشيئا في نفسه وفؤاده، فيهتم لما هو مقبل إليه أكثر من اهتمامه للدنيا التي يعبرها ويمر بها، حيث أنه مفارقها عند ذلك الميقات المحدد الخفي من خلال بوابة الموت... وهذا الطريق يسمى طريق الهداية والإنابة، وهو طريق طويل وشاق، إلا على من يسره الله عليه.

ثانيهما: طريق يتجه به الله إلى العبد، أي فالطريق الأول يكون البدء فيه منك إلى الله، أما هذا الطريق الثاني فيكون البدء فيه من الله إليك، ويسمى طريق الاجتباء... يكون الإنسان شاردا وبعيدا عن الله، وفجأة تدركه رحمة من

الله تعالى، لسبب من الأسباب التي قد لا يعلمها إلا الله، ويتجلى الله عليه تجلي لطف وإيقاظ، فيجذبه إليه، ويسمو به إلى صعيد معرفته وحبه، وقد يتم ذلك كله في لحظة واحدة.. وتجمع الآية الكريمة كلا الطريقين: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى: 13)، اجتباء وهداية، أولهما الاجتباء: ويكون باصطفاء وجذب من الله عز وجل لمن شاء من عباده، وثانيهما الهداية: وتكون بإنابة، فسير من العبد إلى الله تعالى خلال طريق طويل من المعارف والطاعات والقربات.

فطريق الاجتباء يأتي نتيجة اصطفاء من الله لبعض عباده، فينتشلهم في لحظة واحدة من أقصى أودية الضياع والبعد عن الله، إلى أعلى قمم العرفان والقرب من الله عز وجل..

تأمل، كم هو الفرق كبير بين سلم الأعمال التي ترقى بها إلى الله، وجلها لا يخلو من الشوائب والحظوظ، وبين الألطاف التي تهبط وترد إليك من حضرة الله عز وجل..

في التاريخ الإسلامي كثير ممن جذبهم الله بنقلة واحدة من التيه إلى الرشد، ومن الشرود إلى الالتزام، ومن محبة الأغيار إلى التعلق بالله عز وجل.. في القديم الفضيل بن عياض الذي تحول خلال دقائق في جوف ليلة مظلمة من قاطع طريق إلى متنسك رباني فرغ قلبه من كل شيء إلا من الله سبحانه وتعالى، ومنهم عبد الله بن المبارك الذي كان مولعا بالطرب والسماع والعزف على الأوتار، بعيدا عن الالتفات إلى حقوق الله، فما هو إلا أن تحول في سواد ليلة

واحدة، هو الآخر إلى نموذج عجيب للعالم الرباني الذي جعل دنياه كلها فداء لرضا الله عنه وسبيلا لقربه منه، ومنهم مالك بن دينار الذي تحول فجأة من شرطي يتعاطى اللهو والسكر إلى واحد من كبار الربانيين الذين كانت تغشى دروسه الآلاف، وهدى الله على يديه الكثير من التائهين والمارقين.. وفي عصرنا الحديث تأمل في قصص الفنانيين والفنانات التائبات، تجد العجب العجاب من لحظات هذا التحول المفاجئ تجدها واضحة في حكاياتهم المؤثرة، وكذلك في قصص كثير ممن تحولوا إلى الإسلام في الشرق والغرب..

وقد يتساءل سائل: فما هو مصدر هذا الحظ الذي يناله بعض الناس دون بعض؟.. مصدره فضل الله الذي يؤتيه من يشاء... على أن الذي أحبه الله فاجتباه، إنما أحبه لخصلة أو خلق أو سبب ما علمه الله منه ولم تعلمه.. وهناك بعض الصفات يتصف بها بعض الناس قد تكون مظنة تنزل هذا اللطف الرباني إليهم، ومن ثم تكون هي سبب هذا الاجتباء لهم، وبالذات الفقر والذل والانكسار إلى الله بسبب قلة الزاد والعمل، أو الحيرة والتيه، وكذلك لعل الاجتباء يحدث إذا ما فتح العبد فجأة عين بصيرته على الله سبحانه وتعالى، وأراد أن يتعرف إليه، وكذلك ممكن أن تكون عودة وإنابة سريعة، أو غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله، عالم الغيب والشهادة.. جل شأنه..

والكلام عن قلة العمل إنما هو حديث عما قبل التحول من التيه إلى الرشد، فسائر هؤلاء المهتدين يكونون من بعد ذلك التحول، من أكثر الناس عبادة وورعا ومسارعة في الخيرات ببركة هذه النفحات الربانية.

"الكونُ كلُّه ظُلْمةٌ وإِنَّما أَنارَهُ ظُهورُ الحقِّ فيهِ "

جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو يقول: " سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول جف القلم على علم الله " (الترمذي وأحمد).

وفي الأثر: "إن الله احتجب عن أهل السماء كما احتجب عن أهل الأرض، وإن أهل الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم، وإنه ما حل في شئ، ولا غاب عن شئ".

يقول الدكتور البوطي (بتصرف):

"هذه الحكمة حصيلة مكثفة لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (النور: 35)، وأحسن ما قيل في تفسير (النور) هنا، إنه بمعنى المنور، وهو الله عز وجل.. فهو مصدر هذا النور الذي أضاء به وتكون منه هذا الكون كله.

فالنور هو عماد وجود المكونات، وهو ظاهر في الأجرام السماوية الضخمة، وهو باطن أيضا يسري في أصغر جزيئات المادة، فتلك الإلكترونات وجزيئات الذرة مؤلفة من إشعاعات متجمعة، تكون منها ما يسمونه المادة، وهي في أصلها الذي تكونت منه ليست إلا طاقة، فأصل المادة ومآلها في الوقت ذاته هو النور المخبوء الذي يرصده العقل ويراه بنور البصيرة وإن لم تره العين.. تلك هي قصة الدنيا، كانت كتلة ظلام دامس، ثم إن الله الخالق المبدع أمدها

بنور من نوره، فتحول الظلام إلى نور مشع يبعث فيه الحركة والطاقة، وينشر في أرجائه القوة والحياة "

۞ ۞ ۞

فَمَنْ رأى الكوْنَ ولَمْ يَشْهَدْهُ فيهِ أوْ عِنْدَهُ أوْ قَبْلَهُ أوْ بَعْدَه فقَدْ أعْوَزَهُ وُجودُ الأَنْوارِ. وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُموسُ المَعارِفِ بِسُحُبِ الآثارِ"

قال سعيد حوى رحمه الله: "عندما أنظر إلى شئ دخلته يد الصنعة البشرية أقول: لابد أن يكون لصانع هذه إرادة وقدرة وعلم، فلولا أن الذي صنعه عنده علم بكيفية صناعته، وتوجهت إرادته للصناعة، وتوجهت بعد ذلك قدرته للإبراز لما صار هذا الشيء، وعندما أنظر لهذا الكون يدلني كل جزئ من جزيئاته على أن هناك علما وإرادة وقدرة، ولكن لولا النور الذي رشه الله عز وجل فأصاب قلب المؤمن، ولولا النور الذي رشه في هذا الكون ما كانت هداية:﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.. الآية (النور: 35).

وتأمل قوله تعالى: " يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ " في الآية نفسها، وانظر إلى واقع الملحد الذي لم يصبه من نور الله عز وجل، ينظر إلى الكون فلا يرى إلا المادة، وبالتالي فلا يؤمن إلا بها لأنه ليس في قلبه نور، وبالتالي فهو لا يرى إلا الظلمة: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾(النور: 40)

وإذا فبسبب من هذا النور الإلهي الذي أصاب قلب المؤمن وأصاب

الكون صار هناك نوعا من الهداية الخاصة عند المسلم، فآمن بالله عز وجل وآمن بصفاته وبالتالي صار يرى آثار المكون في الكون.

إن نظرة إيمانية خالصه تنظر بها إلى هذا الكون لابد أن نجد بها هذا الكون قائما بالله ... والله عز وجل من أسمائه القيوم، والقيوم هو القائم بذاته والذي يقوم غيره به ... وإذا فهذا الكون كله قائم بالله، ولولا الله لفني: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا ﴾ (فاطر:41).

فأصل وجودك بالله، واستمرار وجودك بالله عز وجل، وعندما ننظر إلى الكون بهذه الرؤية ترى الله عز وجل قبل أن ترى هذا الكون،

لكن لنفرض أنك لم تكن في أعلى المقامات، فلتكن في المقام الآخر وهو أن تنظر إلى الكون ثم تتذكر الله عز وجل، أو تنظر إلى الكون فترى فيه آثار الله عز وجل:﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾(الروم: 50)... وليس المراد بكلمة (فيه) التي جاءت في الحكمة الحلول والعياذ بالله، بل المراد أن ترى كيف يقوم الكون بالله، أن ترى في كل شئ إرادة الله وقدرته عز وجل ... فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار، فآثار الله عز وجل حجبته عن الله ... إذن فأنواره ضعيفة، فكيف تقوي هذه الأنوار؟ ... " ادفن نفسك في أرض الخمول ...".. أي اهرب من نفسك وفر إلى الله...

فيا مسلم ليكن لك انقطاع إلى الله عز وجل... ومن خلال العزلة ومن خلال الخلوة تدخل ميدان الفكرة والتدبر والاعتبار " انتهى.

ويقول الدكتور البوطي (بتصرف): " من رأى الكون ولم يشهد - أي بعين بصيرته - الحق سبحانه وتعالى مؤثرا فيه، ولم يشهده أيضا عند نظره إلى المكونات التي من حوله، فهو ممن سلب الله عنه نور الهداية، وكان ممن قال عنهم: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النور: 40).. إن حال هؤلاء الناس أشبه بمن نظر إلى حوض يفيض بماء عذبٍ يتلألأ بأشعة انعكست عليه من الشمس التي تطل من كبد السماء، فوقف هذا الناظر يحدق في الحوض وصورة الشمس ووهجها فيه دون أن يرمق ببصره تجاه السماء، وأخذ يصف هذا الذي تبصره عيناه وقد حبس عقله، ومداركه بعد بصره إلى دنيا ذلك الحوض، موقنا أن هذا الألق منبعث من رقة الماء وصفائه، ولم يكتف بذلك بل أخذ يحلل ويعلل ويجعل مما قد حبس بصره وعقله فيه قانونا علميا يعلمه الناس ويلزمهم الإيمان الجازم به.. ولو أنه حرر عينيه وعقله من سجن ذلك الحوض والتفت إلى السماء لرأى الشمس مصدر ذلك الوهج والضياء..

فاحرص أيها العابد أن تجعل من الأكوان مرآة ترى من خلالها المكون.. فتكون ممن يتمتعون بما يسمونه وحدة الشهود، إذ لا يرون الدنيا بكل ما فيها إلا كالمرآة الصافية تتلألأ على صفحتها صفات المكون جل جلاله ".

۞ ۞ ۞

" كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ! "

أي الظاهر بصفاته في كل شيء، والمتجلي في الكون بمحاسن صفاته

وأسمائه... فالله سبحانه وتعالى من أسمائه " الظاهر "، بمعنى أن كل شئ خلقه الله عز وجل فهو ظاهر به.

يقول الدكتور البوطي: "ما من شيء تراه عيناك إلا وتجد فيه صفة الإبداع والحكمة والجمال والقوة والإرادة إلى آخر ما ينعت به الله عز وجل من صفات الكمال.. انظر إلى الزهرة وتأمل في عبقها.. في ألوانها، وجمال الأصباغ العجيبة التي تلاقت منسجمة فيها، ألا تراها تفيض بصفات الله عز وجل؟ ألا ترى في داخلها صفة الجمال، صفة الحكمة؟ صفة القدرة الباهرة؟ صفة الإبداع؟ صفة العلم؟.. تأمل في عوالم البحار وعجائب كائناتها.. عالم الطيور وبديع ألوانها.. عالم الفراش.. عالم الزواحف.. إلى غير ذلك من مخلوقات الله الكثيرة العجيبة.. تجد أن الله ظاهر بصفاته في كل شيء".

قال الدكتور مصطفى محمود رحمه الله في كتابه "الوجود والعدم" شارحاً مفاهيم الصوفية في هذه المعاني:

"هو قيوم كل شئ.. وهو مخرج الزهور من أكمامها والأجنة من أرحامها.. والله بهذا المعنى ظاهر في جميع المظاهر، ولكنه منزه عنها جميعا، وهو غيرها وإن قامت به... فهو ظاهر فيها جميعا بصفاته وتجلياته، ولله المثل الأعلى سبحانه، وبمثل هذا يتجلى الله في المظاهر المختلفة دون أن يحل فيها أو يتحد بها أو ينتقل إليها، فهو حيث كان ولا شئ معه، دائما تتجلى كنوزه وأسراره في عالم الممكنات، ولكن الأصل غير محدود... كما أن تجليات الله بلا عدد وبلا نهاية وبلا حصر، والإحاطة بها محال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ

ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الكهف: 109).

التناظر بين الإنسان والكون، وتقابل الحقائق بين الذرة والمجرة، وتشابه المناظر بين الخلية في ورقة نبات والخلية في قلب سبع... سبب هذا التشاكل العجيب أنها جميعا تجليات ذات إلهية واحدة وصناعة قدرة إلهية واحدة... وحجب الكثرة تحجب عين الغافل، ولكنها تشف وتشي عن الأحدية الباطنة فيها أمام عين العارف الذاكر..." انتهى.

❁ ❁ ❁

" كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ الظَّاهِرَ لِكُلِّ شَيءٍ! "

قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ (الإسراء: 44)... فالمخلوقات كلها تعرف الله عز وجل، حتى الحيوانات، ففي الأثر: " بهمت البهائم إلا عن أربع: عن خالقها وخانقها ورازقها وسفادها "، فما من شئ إلا ويعرف الله عز وجل إلا القلب الكافر.. يقول الدكتور البوطي: " ظهور الله للعقلاء من الإنس والجن والملائكة لا إشكال فيه، ولكن كيف يكون ظهور الله للأشياء الأخرى من الجمادات والنباتات ونحوها، وهي كلها لا تعقل؟.. إن هذا التساؤل يرجع إلى ما قد نتوهمه، من أن وسيلة معرفة الله، إنما هي هذا العقل الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوانات والمخلوقات الأخرى، وهذا

خطأ، فسبيل معرفة الله ليست مقصورة على العقل البشري.. ولتقريب هذه الحقيقة أقول: أرأيت إلى الملائكة، إنهم لا يتمتعون بالوسيلة الإدراكية ذاتها التي نتمتع بها نحن البشر، وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (البقرة: 31-32)، ليس لهم في رؤوسهم الأدمغة التي في رؤوسنا، ولا القلوب التي في صدورنا، والتي يشرق عليها ذلك السر الرباني الذي به يتم العلم والإدراك والذي نسمبه العقل، ولكنهم مع ذلك يعلمون ما لا نعلمه من أسرار الملكوت الرباني، ويعرفون الله، ويعبدونه ويقدسونه، وهذا يدل على أن لهم إلى ذلك سبلا أخرى متعهم الله بها، وهذا الذي يصدق على الملائكة يصدق على المخلوقات الأخرى أيا كانت.. فكما ظهر الله لك بنور من إدراك عقلك، فقد ظهر للمخلوقات كلها بنور رباني آخر لا علم لنا به.. والخوارق التي قضى الله عز وجل أن تخترق نواميسه وسننه الكونية بين الحين والآخر، تضعنا أمام الدليل المادي المنظور على ما يقوله الله عز وجل.. من ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر ﵁ قال: " كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ، فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار، حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه إلى أن سكن ".. فحنين الجذع إلى رسول الله نتيجة لشعوره به وحبه له، وهو بدوره نتيجة لإدراكه لله وحبه له، وللجذع إلى ذلك سبيله الذي جهزه الله به، الذي لا يشترط أن يكون كسبيلنا في العقل والإدراك".

هذا وقد ثبت إحساس النبات بنوايا الإنسان نحوه، وما يحدث للأحياء

حوله بتجارب معملية واضحة نشرت في المؤتمرات والمجلات العلمية، والغريب في هذه التجارب أنها أثبتت أن هذا الإحساس يتعلق بالنوايا الداخلية وليس بالحركات الخارجية، ولمن أراد المزيد أحيله إلى كتاب " الإدراك الأولي " للعالم "كليف باكستر"، والذي أثبت بالبحث العلمي وجود التواصل الحيوي بين النبات ونوايا البشر، وله موقع على الإنترنت بنفس الاسم (Primary Perception).

أقول: وحتى بالنسبة للمعرفة البشرية فيبدو أن سبلها متعددة، فبالإضافة إلى المعرفة العقلية البشرية، هناك المعرفة القلبية الروحية، ولعل ذلك هو سر لجوء الكافر إلى الله عند الاضطرار والشدائد... وتوحد المعرفة العقلية مع هذه المعرفة القلبية قد يكون هو سر برد اليقين والإخبات عند المخلصين، والله تعالى أعلم.

۞ ۞ ۞

"كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ الوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيءٌ؟!"

المراد ليس معه شئ معية حقيقية، يعني معية مستقلة مستغنية عن الله عز وجل، يقول الدكتور البوطي: "إن الأشياء كلها، كما أنها مفتقرة إلى من يوجدها من العدم وهو الله عز وجل، فإنها مفتقرة إليه أيضا في استمرارية وجودها لحظة فلحظة.. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا ﴾ (فاطر: 41)، وإمساك الله للسموات والأرض هو إمدادها بالوجود المستمر ورعايته لها وهدايته إياها للقيام بما توجه إليها من الأوامر التكوينية..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ ﴾ (القمر: 13-14)، (بأعيننا: أَيْ بِأَمْرِنَا، بِمَرْأًى مِنَّا وَتَحْتَ حِفْظِنَا وَكلاءَتنَا)، فقد أبطل البيان الإلهي وجود أي فاعلية ذاتية للفلك، ونبه إلى أن ما يبدو أن الفلك تقوم به من وظيفة الحمل والطفو على سطح الماء، إنما هو بفاعلية مباشرة من الله عز وجل، ولذا فإن الحامل الحقيقي لها ولمن هم على ظهرها إنما هو الله سبحانه وتعالى.. وهذا هو المعنى للكلمة القدسية التي علمنا إياها رسول الله ﷺ، وهي: " لا حول ولا قوة إلا بالله "، فقد انتفى إذن أي حول وأي قوة لأي شيء في الكون، ابتداء ودواما، إلا أن يمده الله من عنده بالحول والقوة ".

❁ ❁ ❁

" كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ! "

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ ﴾ (ق: 16)، وقربه تعالى قرب علم وإحاطة وشهود لا قرب مسافة، إذ لا مسافة بينك وبينه، وفي الأثر: "وإن الله ما حل في شيء، ولا غاب عن شيء ".

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " كان الله ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان " (رواه أبو منصور البغدادي في كتابه الفَرق بين الفرَق)، وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي:

"تعالى (يعني الله) عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات" ا. هـ .وقال: "ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر" ا.هـ. المحدود عند علماء التوحيد ماله حجم صغيراً كان أو كبيراً، الحد عندهم هو الحجم إن كان صغيراً وإن كان كبيراً، الذرة محدودة والعرش محدود والنور والظلام والريح والروح كل محدود.

ويكفي في تنزيه الله تعالى عن المشابهة لخلقه وعن الاحتياج إلى المكان أو أن يجري عليه زمان قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ (الشورى: 11).

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: "ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون و لا السماوات، كان قبل أن كون المكان ودبر الزمان، وهو الآن على ما عليه كان " ا. هـ . (من كتاب طبقات الشافعية الكبرى لتاج السبكي).

وورد في الحديث عن النبي ﷺ : "يقول الله عز وجل يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار" (البخاري ومسلم وأبو داود)، جاء في "عون المعبود شرح سنن أبي داود " في شرح هذا الحديث:

"كانت الجاهلية تضيف المصائب والنوائب إلى الدهر، الذي هو من الليل والنهار، وهم في ذلك فرقتان: فرقة لا تؤمن بالله تعالى ولا تعرف إلا الدهر الليل والنهار اللذان هما محل للحوادث وظرف لمساقط الأقدار، فتنسب المكاره إليه على أنها من فعله، ولا ترى أن لها مدبرا غيره، وهذه الفرقة هي الدهرية الذين حكى الله عنهم في قوله ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (الجاثية: 24) ، وفرقة

تعرف الخالق وتنزهه من أن تنسب إليه المكاره فتضيفها إلى الدهر والزمان، وعلى هذين الوجهين كانوا يسبون الدهر ويذمونه فيقول القائل منهم يا خيبة الدهر ويا بؤس الدهر ، فقال ﷺ لهم مبطلا ذلك: " لا يسبن أحد منكم الدهر فإن الله هو الدهر " يريد – والله أعلم – لا تسبوا الدهر على أنه الفاعل لهذا الصنيع بكم، فالله تعالى هو الفاعل له ، فإذا سببتم الذي أنزل بكم المكاره رجع السب إلى الله تعالى وانصرف إليه.

(وأنا الدهر) : قال العيني قال الخطابي: معناه أنا ملك الدهر ومصرفه فحذف اختصارا للفظ واتساعا في المعنى.

وقال غيره: معنى قوله "وأنا الدهر" أي المدبر أو صاحب الدهر أو مقلبه أو مصرفه، ولهذا عقبه بقوله بيدي الأمر.

قال العلماء: وهو مجاز، أي لا تسبوا فاعل النوازل، فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله تعالى لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى. وبالجملة فإن معنى أن الله هو الدهر: أي فاعل النوازل والحوادث، وخالق الكائنات.. انتهى كلامه ".

" كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيءٌ وَلولاهُ ما كانَ وُجودُ كُلِّ شَيءٍ! "

قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر: 49)، وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: 2).

فلا وجود للأشياء إلا منه، ولا قيام لها إلا به، ولا نسبة لها معه، إذ هي عدم محض، وعلى توهم وجودها فهي حادثة فانية، ولا نسبة للعدم مع الوجود الحق.

إن الموجودات كلها كالأصفار، لا قيمة لها مجتمعة مهما تراصت بجوار بعضها البعض، فإذا جاء بعدها الواحد القيوم، سرت القوة منه إليها، فصارت شيئا بعد أن كانت عدما.. ويقول الدكتور البوطي: " هل في العقلاء من يزعم أن أشعة الشمس تشكل حجابا يقصي العقل عن الإيمان بوجود الشمس؟ ألم يقل ذلك الأعرابي اعتمادا على فطرته العقلية وحدها: "البعرة تدل على البعير، وأقدام السير تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدل على العليم الخبير؟".. فإذا كان الكون كله أثرا لوجود الصانع والمبدع، فمن أين يأتي الحجاب الذي يحجب العبد عن رؤية الله وشهوده؟ "

❁ ❁ ❁

" شُعاعُ البَصيرةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ. وعَيْنُ البَصيرةِ تُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجودِه. وَحَقُّ البَصيرةِ يُشْهِدُكَ وُجودَهُ، لا عَدَمَكَ ولا وُجودَكَ... كانَ اللهُ وَلا شَيْءَ مَعَهُ "

علم اليقين: كمن سمع بمكة ولم يرها، عين اليقين: إذا استشرف عليها ورآها، حق اليقين: إذا دخلها وتمكن فيها، البصيرة: ناظر القلب، كما أن البصر ناظر القالب.

فالبصيرة ترى المعاني اللطيفة النورانية، والبصر يرى المحسوسات الكثيفة، والذي يعمي عين البصيرة هو الكفر والنفاق: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: 46).

لذا فهي تنكر نور الحق من أصله... أما الإيمان فهو يجلو البصيرة، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ (الأنعام: 104).

وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (القيامة: 14).

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "هذه الحكمة تتضمن بيان ثلاث رتب يتدرج في طريقها المؤمن إذ يسعى للوصول إلى درجة الإحسان.. عبر ابن عطاء عن أدنى هذه الرتب بكلمة شعاع البصيرة، وعن الرتبة الثانية بكلمة عين البصيرة، وعن الرتبة الثالثة بكلمة حق البصيرة.

الرتبة الأولى: هي التي يعتمد فيها المؤمن على شعاع البصيرة، والمراد بها العقل ونوره، فهم يستخدمون أدلة عقولهم الهادية إلى اليقين بوجود الله إلها مبدعا خالقا لهذا الكون، والتعرف على صفاته سبحانه.. عندئذ يدرك قربه الدائم من الله عز وجل، إذ قد علم من صفات الله سبحانه وتعالى أنه لا يحده مكان ولا يحصره زمان، إذ هو رب الزمان والمكان، ومنشيء كل منهما، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد: 4)، ومن ثمرات هذه الرتبة تنامي الحضور مع الله، فيقين العبد بقربه الدائم من الله عز وجل، يجعله يصطحب شعورا يساوره على الدوام بأن الله قريب منه ويراه، بل أنه حاضر معه.. وما أعظم هذه المعية !.. وما أروع آثارها.. وهي بداية الرتبة الثانية.

الرتبة الثانية: وتتمثل في الشهود العملي، حيث أن الأولى تتمثل في اليقين العلمي، وصاحب هذه الرتبة تتلاشى أمام ناظريه المكونات كدليل على خالقها، بل إنه كلما نظر إليها لم يجد فيها إلا صفات الخالق عز وجل.. عندما ينظر في نجوم السماء، في الرياحين والزهور والنباتات والثمار، في الفراش والطيور والأسماك بألوانها الخلابة وقدرتها على التكيف مع بيئاتها، لم يجد في شيء من كل ما يراه إلا صفات الله عز وجل: القدرة والحكمة والجمال..الخ، فهو يرى بعينيه المخلوق، ولا تريه بصيرته من ذلك إلا الخالق، فالمكونات أصبحت الآن في حكم بصيرته معدومة، وهو ليس العدم الذاتي، بل عدم الفاعلية والجدوى.

أما الرتبة الثالثة فهي عندما يقبل المؤمن على الدنيا غير ملتفت إلى شيء من الظلال والآثار لا بحكم وجود عليها ولا بحكم عدم، فإن التفت إليها أو تعامل معها، فبأمر من الله يلتفت إليها وتنفيذا لشرعه يتعامل معها.. فهو لا يتعامل إلا مع الوجود الحق الذي هو وجود الله عز وجل.

وما ختم به هذه الحكمة، فحديث ذكره رسول الله ﷺ، أورده البخاري في ثلاث روايات: إحداها جاءت بلفظ: "كان الله ولم يكن شيء غيره"، والثانية بلفظ: "كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء"، والثالثة بلفظ: "كان الله ولم يكن شيء قبله"، وقد نصت على هذه الحقيقة عبارة قرآنية جامعة من كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (الزمر: 62).

والزيادة التي جاءت في الحكمة (حذفتها حتى لا تختلط بمعنى الحديث):

"وهو الآن على ما عليه كان"، أي كما أن الله عز وجل لم يكن معه شيء في ظلمات الماضي السحيق قبل أن توجد المخلوقات، فهو الآن أيضا ليس معه شيء، أي شيء له وجود حقيقي، وجود فاعلية وتأثير، ولن يختلف الماضي والحاضر في ذلك عن المستقبل الآتي أيضا.. إن كل شيء ما خلا الله هو في حكم المعدوم، وليس بينه وبين بطلانه سوى أن يتخلى الله عنه، وهذا هو الفرق بين الوجود مع الله وهو باطل ومستحيل، وبين الوجود بالله وهو ثابت وحق".

وعندما يصبح قلبك كله بصيرة تصبح نورا... وهذه قضايا يتذوقها القلب ويشعر بها.. فالإنسان عندما تتجرد روحه في بعض الحالات يصبح إبصاره غير مرتبط بالعين: مثال ذلك ما يراه النائم فهو لا يرى بالعين بل بالروح والقلب، وكذلك حادثة عمر مع سارية، والرسول عليه الصلاة والسلام كان يرى أمامه كما يرى من خلفه، كما ورد في الأثر..

۞ ۞ ۞

"أَمَرَكَ في هذِهِ الدّارِ بِالنَّظَرِ في مُكَوَّناتِهِ، وسَيَكْشِفُ لَكَ في تِلْكَ الدّارِ عَنْ كَمالِ ذاتِهِ"

جعل الله المسلم في الدنيا والآخرة على صلة به سبحانه... جعله في الدنيا على صلة بآثاره، وجعله في الآخرة على صلة بآثاره وبذاته... قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القيامة: 22-23).

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "من شأن المؤمن الذي يحب الله أن

يتمنى لو رآه، وقد سبق أن أعلن كليم الله سيدنا موسى عليه السلام إلى اشتياقه إلى رؤيته سبحانه، فقال له: "رب أرني أنظر إليك "، ولكن الله عز وجل أجابه، وكل متطلع إلى رؤيته في هذه الحياة الدنيا بالقضاء الذي قضى به، فقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف: 143)، فنبههم بذلك إلى الطبيعة الضعيفة التي أقام الله فيها عباده في حياتهم الدنيا هذه، والحياة الترابية التي يعيشون في غمارها.. ولكنه عوضهم عن ذلك بأمرين اثنين:

أحدهما: الموعدة التي وعدهم إياها بأن يروه سبحانه إذا وفدوا إليه صالحين ملتزمين بالعهد، وأن يجعل رؤيتهم له في مقدمة المكرمات التي سيتحفهم بها، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القيامة: 22-23)، ثانيهما: مخلوقاته المتنوعة العجيبة التي تحمل إليهم الكثير من مظاهر لطفه وإحسانه وحكمته وجماله.. إنها لوحات متنوعة شتى مبثوثة في جنبات هذه الدنيا بوسعك أن تقرأ في كل منها رسالة مرسلة من الله إليك، تحمل إليك في طواياها الكثير من صفاته وآلائه، وتزيدك تعلقا به، وحنينا إلى رؤيته.

فإذا طويت هذه الدنيا، وتجاوز الناس مرحلة الحياة البرزخية، وقاموا جسدا وروحا لرب العالمين، فإنه من الثابت يقينا أن الله يخلقهم خلقا جديدا متمتعين بطاقات عضوية وجسدية متميزة عما كانوا عليه في دار الدنيا لتؤهلهم

للحياة الآخرة، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الصالحين الذين يدخلهم الله في نعيمه ورضوانه، يبعثون بقامات أطول، وأشكال أجمل، وإمكانات أقوى (أقول: وقد ظهرت بعض هذه االتغيرات في الشكل لأحدهم في رؤيا منامية طيبة عندما رأى نفسه في الجنة، نسأل الله أن يجعلنا جميعا من أهلها).

ورؤية العبد الصالح لربه في الآخرة أكدها رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: "إنكم سترون ربكم عيانا، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته" (متفق عليه)، وفي الحديث القدسي: "إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم" (صحيح مسلم) وهو أعلى أنواع النعيم، وصدق الله القائل: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ (السجدة: 17)"، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

" شَتَّانَ بَينَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيه. المُسْتَدِلُّ بِهِ عَرفَ الحَقَّ لأَهْلِه، فَأَثْبَتَ الأَمْرَ مِنْ وُجودِ أَصْلِه. وَالاسْتِدْلالُ عَلَيهِ مِنْ عَدَمِ الوُصولِ إِليهِ، وَإِلّا فَمَتى غابَ حَتّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟! وَمَتى بَعُدَ حَتّى تَكونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إِلَيْهِ؟! "

يقول الدكتور البوطي (بتصرف): "أيهما أدل على الآخر: الأصل على الفرع، أم الفرع على الأصل؟ النبع على الجدول أم الجدول على النبع؟ الشجرة على الثمرة

أم الثمرة على الشجرة؟... في الناس من يبدأ فيتعرف على الأصل، ثم أن الأصل يهديه إلى الفروع والنتائج، وفيهم من يبدأ من النتائج والفروع ثم إنه يستهدي بها إلى الأصل الذي انبثقت منه.. والذي يتحكم بالأمر في هذا التقسيم، هو الخفاء والظهور، فالظاهر هو الذي يدل دائما على الغائب أو الخفي.. والإحتمالان في المخلوقات وارد، ولكن هل يرد الإحتمالان في المخلوق مع الخالق، في موجد الكون مع الكائنات؟.. إذا تأملت تجد أن الإحتمالين هنا غير متساويين، لأنك عندما تعمل نور بصرك وعقلك في الكائنات، إنما تدركها بنور هذه الهداية الربانية التي منحك إياها، فدليلك الهادي إلى وجود المخلوقات وحقيقتها هو الله، فكيف ينقلب الدليل، وهو الله، ليصبح مدلولا عليه؟.. دعني أعطيك مثالا على ذلك:

رجل أقبل في الظلام الدامس إلى مصباح، فحمله ودخل به دارا مظلمة، فرأى على ضوء المصباح أمتعة شتى، وأطعمة ونقودا، ترى أيهما كان الهادي الدال؟ هل في العقلاء من يجهل أن المصباح المضيء هو الدليل الهادي، وأن كل ما كشفته أشعة المصباح هو المهدي إليه وهو المدلول عليه؟.. إنك بالله ترى الدنيا التي من حولك، وبالله تدرك ما تدرك من أسرارها، وهذا بعض من معنى قول الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (النور: 35) فأما المقربون أصحاب الشهود، فقد رأوا المصباح أولا.. رأوا الله نور السموات والأرض أولا، ثم إن رؤيتهم له بصرتهم بالآثار، بصرتهم بمخلوقاته ومصنوعاته، وقد أيقنوا أنه لولا الصانع لما وجدت المصنوعات، لولا النور الهادي لما انكشف شيء من ظلمات المكونات... أما الذين حجبوا أنفسهم بالصور عن المصور، فقد راحوا يبحثون عن المصباح بالأشياء التي كشفها لهم ضياء

المصباح، وإنه كما ترى لشيء مضحك... فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟..

وللروح طريق آخر.. فما تكاد تبصر صورة من الجمال الأرضي والبشري، أو تسمع صوتا شجيا، حتى تحن الروح إلى الجمال العلوي الذي أهبطت منه لتستقر حبيسة إلى حين في هذا الجسد الذي أصبح لها دارا، إنه الدار الجسدية التي استودعت وأسكنت فيها بالأمس، وستفارقها عما قريب.. والسبيل إلى إزاحة الحجب إنما يكون بعقد مصالحة بين الروح وأشواقها، والجسد وحاجاته، على أن يكون الجسد بكل ما يحتاج إليه في خدمة الروح دون العكس، ذلك لأن الروح هي الحقيقة الباقية، والجسد آيل إلى الاضمحلال فالزوال.. وفي يوم البعث والنشور يخلق الله للروح وعاء من جسد جديد، يتفق في إمكاناته وطاقاته وحاجاته مع نظام ذلك العالم الجديد، قال تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: 22)... ومنهج هذا الصلح هو اتباع الشريعة وسمت الصالحين، مع الربط الدائم للنعم بالمنعم العظيم سبحانه.. ومن المعلوم أن تعظيم الجليل، وهو الله، أقصر طريق إلى تحقير القليل وهو الدنيا.. فإذا عظم الجليل في قلبك، هانت الدنيا وصغرت في نفسك، وعندئذ ترتفع الحجب وتزول الغشاوة، وترى الله بعين قلبك ليس دونه أي حجاب يستره عنك.. وييسر ذلك كثرة التجاءك إلى الله والتبتل على أعتابه سبحانه، والتضرع إليه أن يأخذك من نفسك، وأن يقيك من سوء حالك، وأن يرفع الحجب المسدلة على عين قلبك، لتكون من السابقين المقربين، جعلنا الله وإياكم منهم بفضله وكرمه ومنته.. اللهم آمين".

۞ ۞ ۞

قصيدة: "بك استجير"

للشاعر: إبراهيم علي بديوي

بك أستجير ومن يجير سواكا، فأجر ضعيفا يحتمي بحماكا
إني ضعيف أستعين على قوي ذنبي ومعصيتي ببعض قواكا
أذنبت ياربي وآذتني ذنوب مالها من غافر إلاكا
دنياك غرتني وعفوك غرني ما حيلتي في هذه أو ذاك
لو أن قلبي شك لم يكن مؤمنا بكريم عفوك ما غوى وعصاكا
يا مدرك الأبصار والابصار لا تدري له ولكنهه إدراكا
أتراك عين والعيون لها مدى ما جا وزته ولا مدى لمداكا
إن لم تكن عيني تراكا فإنني في كل شيء أستبين علاكا
يا منبت الأشجار عاطرة الشذى هذا الشذا الفواح نفح شذاكا
يا مجري الأنهار ما جريانها إلا انفعالة قطرة لنداكا
رباه ها أنا ذا خلصت من الهوى واستقبل القلب الهوي هواكا
وتركت أنسي بالحياة ولهوها لقيت كل الأنس في نجواكا
ونسيت حبي واعتزلت أحبتي ونسيت نفسي خوف أن أنساكا
ذقت الهوى مرا ولم أذق الهوى يارب حلوا قبل أن أهواكا
أنا كنت يارب أسير غشاوة رانت على قلبي فضل سناكا
واليوم يا ربي مسحت غشواتي وبدأت بالقلب البصير أراكا

ياغافر الذنب العظيم وقابلا للتوب قلب تائب ناجاكا

أترده وترد صادق توبتي حاشاك ترفض تائبا حاشاكا

فليرض عني الناس أو فليسخطوا أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا

يا رب جئتك نادما أبكي على ماقدمته يداي لا أتباكا
أخشى من العرض الرهيب عليك وأخشى منك إذ ألقاكا
يا رب عدت إلى رحابك تائبا مستسلما مستمسكا بعراكا
مالي ومال الأغنياء وأنت يا رب الغني ولا يحد غناكا
مالي ومال الأقوياء وأنت يا ربي ورب الناس ما أقواكا
مالي وأبواب الملوك وأنت من خلق الملوك وقسم الأملاكا
إني أويت لكل مأوى في الحياة فما رأيت اعز من مأواكا
وتلمست نفسي السبيل إلى النجاة فلم تجد منجى سوى منجاكا
وبحثت عن سر السعادة جاهدا فوجدت هذا السر في تقواكا
أدعوك يارب لتغفر حوبتي وتعينني وتمدني بهداكا
فاقبل دعائي واستجب لرجاوتي ما خاب يوما من دعى ورجاكا
يا رب هذا العصر ألحد عندما سخرت له يا رب دنياكا
علمته من علمك النووي ما علمته فإذا به عاداكا
ماكاد يطلق للعلا صاروخه حتى أشاح بوجهه وقلاكا
واغتر حتى ظن أن الكون بيمنى بني الإنسان لا يمناكا
أو ما درى الإنسان أن جميع ما وصلت إليه يداه من نعماكا

يا أيها الإنسان مهلا واتئد واشكر لربك فضل ما أولاكا
واسجد لمولاك القدير فإنما مستحدثات العلم من مولاكا
الله ميزك دون سائر خلقه وبنعمة العقل البصير حباكا
إن النواة والإلكترونات التي تجري براها الله حين براكا
ماكنت تقوى أن تفتت ذرة منها لولا الله قد قواكا
كل العجائب صنعة العقل الذي هو صنعة الله الذي سواكا
والعقل ليس بمدرك شيء إذا ما الله لم يكتب له الإدراكا
لله في الآفاق آيات لعل أقلها ما هو إليك هداكا
ولعل ما في النفس من آياته عجب عجاب لوترى عيناكا
والكون مشحون بأسرار إذا حاولت تفسيرا لها أعياكا
قل للطبيب تخطفته يد الردى يا شافي الأمراض من أرداكا ؟
قل للصحيح يموت لا من علة من بالمنايا يا صحيح دهاكا ؟
قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى بها من الذي أهواكا ؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام بلا اصطدام من يقود خطاكا ؟
قل للجنين يعيش معزولا بلا راع ومرعى:من الذي يرعاكا؟
قل للجنين بكا وأجهش البكاء لدى الولادة ما الذي أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله من الذي بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهدا وقل للشهد من حلاكا ؟
بل سائل اللبن المصفى من بين دم وفرث:ما الذي صفاكا؟

وإذا رأيت الحي يخرج من حنايا ميت فاسأله:من أحياكا ؟
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى عن عيون الناس. من أخفاكا؟
قل للنبات يجف بعد تعهد ورعاية من بالجفاف رماكا؟
وإذا ترى النبت في الصحراء يربو وحده فاسأله من أرباكا؟
وإذا رأيت البدر يسري ناشرا أنوارا فاسأله من أسراكا ؟
اسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبعد كل شيء ما الذي أدناكا ؟
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله من يا نخل شق نواكا؟
وإذا رأيت النار شب لهيبها فاسأل لهيب النار من أوراكا؟
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحا قمم السحاب فسله من أرساكا ؟
وإذا ترى صخرا تفجر بالمياه فسله من بالماء شق صفاكا ؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى فسله من الذي أجراكا ؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج طغى فسله من الذي أطغاكا ؟
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحيا فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا ؟
وإذا ترى ابن البيض أسود فاحما فاسأله من بالسواد طلاكا ؟
وإذا ترى ابن السود أبيض ناصعا فاسأله من بالبياض رماكا ؟
هذي عجائب طالما أخذت بها عيناك وانفتحت بها أذناكا
والله في كل العجائب ماثل إن لم تكن لتراه فهو يراكا
يا أيها الإنسان مهلا ما الذي بالله – جل جلا له – أغراكا
سخر نشاط العلم في حقل الرخاء يصنع من الذهب النضار ثراكا
سخره يملأ بالسلام والتعاون عالما متناحرا سفاكا

وادفع به شر الحياة وسوئها وامسح بنعمى نوره بؤساكا
العلم إحياء وإنشاء وليس العلم تدميرا ولا إهلاكا
فإذا أردت العلم منحرفا فما أشقى الحياة به وما أشقاكا

❁ ❁ ❁

الفصل العشرون

المختار من المناجاة

"إلهي، أنا الفقيرُ في غِنايَ، فكَيْفَ لا أكُونُ فقِيراً في فقْري؟!
إلهي، أنا الجاهلُ في عِلْمي، فكَيْفَ لا أكُونُ جهُولاً في جَهْلي؟!"

العبد موصوف بصفات النقص وهي ذاتية له... ومن ثم ما ذكره المؤلف من كونه فقيرا في غناه، وجاهلا في علمه هو صحيح مستقيم في معناه.. وتقديمه لهذه المعاني بين يدي دعائه ومناجاته في غاية الحسن، قال أبو الحسن: ما طلبت من الله شيئا إلا وقدمت إساءتي أمامي، وقال أبو عثمان في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ (الأعراف: 55) "التضرع في الدعاء: ألا تقدم إليه أفعالك وصلواتك وصيامك وقيامك وقراءتك ثم تدعو على أثره، إنما التضرع أن تقدم إليه افتقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلة حيلتك ثم تدعو بلا علاقة ولا سبب، فيرفع دعاؤك"... فأعظم وسائل العبد إلى مولاه هو تحققه بما توجبه عبوديته: وهو فقره إليه في كل حال من أحواله، فلا يرى لنفسه حسنة يقتضي بها ثوابا، ولا يدلي بحجة يستدفع بها عن نفسه عقابا، فإن

كان الأغنياء قد قدموا بين يديهم الأموال، فأنا أقدم إليك فقري في جميع الأحوال، وإن كان الأقوياء قد قدموا إليك صالح الأعمال، فأنا أقدم إليك التضرع والابتهال..

❁ ❁ ❁

"إِلهِي، ما أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي، وَما أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي!"

إن الحق إذا كان وكيلا لك وناصرا لك وحفيا بك، فقد لطف بك وأنت لا تشعر، فاللطف هو سوق المسار من حيث المضار، أو سوق المنافع في قالب الفجائع، والحاصل أن اللطف هو جلب الخير جلبا لطيفا لا يعرفه إلا أهل البصائر، فاللطف الجميل هو الذي يكون باطنه نعمة وظاهره نقمة، باطنه جمال وظاهره جلال، فالعارف بالله يرى نفسه مغمورا في اللطف في كل حال، وقد تقدم قول المؤلف رحمه الله: من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره... فالجاهل بالله لا يشعر باللطف إلا إذا كان حسيا ظاهرا جليا، ولذلك قال الشيخ في هذه المناجاة تواضعا وتذللا: إلهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي: حيث جهلت لطفك الخفي وطلبت لطفك الجلي..

فالعافية واللطف، هو الرضا والتسليم، وسكون القلب عند مجاري الأقدار، والرحمة هي اللطف والمحبة والتقريب، فالحق تعالى يريد أن يقرب عبده إليه، ويطوي مسافة البعد بينه وبينه، أحيانا بما يسلط عليه من إيذاء الخلق وغير ذلك مما يؤلم النفس ليجعله يفر إليه، كما تقدم...

وقبيح الفعل هو الذنوب والمعاصي، فإنها توجب المقت والبعد... لكن رحمة الرحمن الرحيم، غلبت عذابه الأليم...

قيل أنه أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام: "يا موسى خاطب المذنبين باللطف واللين، وادعهم إلي بالقول الجميل، ورغبهم في النعيم المقيم، ولا تغلظ عليهم فلو شئت أن أعجل عقوبتهم لما أمهلتهم طرفة عين، وأعلمهم أنه من تاب إلي قبلته، ومن تمادى أمهلته، ومن عصاني عذبته، يا موسى: من ذا الذي قصدني صادقا فخيبته، أو لجأ إلي فأسلمته، أو سألني فمنعته، أو رجع إلي فطردته، أو تاب إلي وما قبلته، أو تضرع إلي وما رحمته ؟".

قال ابن عجيبة: لما أنزل الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ (الشورى: 30)، قال سيدنا علي كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: " يا علي من آخذه الله بذنبه في الدنيا فهو أكرم من أن يعذبه عليه في الآخرة، ومن عفا عنه في الدنيا فهو أعز من أن يعاقبه في الآخرة، ومن ستره في الدنيا فهو أجل من أن يفضحه في الآخرة " (الترمذي وابن ماجة). قال علي: فكانت عندي خيرا من الدنيا وما فيها... وقد ورد أيضا في تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة:

عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه قَالَ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَل آيَة فِي كِتَاب اللَّهَّ عَزَّ وَجَلَّ وَحَدَّثَنَا بِهِ رَسُول اللَّهَّ ﷺ ؟ قَالَ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ وَسَأُفَسِّرُهَا لَك يَا عَلِيّ: مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَرَض أَوْ عُقُوبَة

أَوْ بلاء فِي الدُّنْيَا فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ، وَاللهُ تَعَالَى أَحْلَم مِنْ أَنْ يُثَنِّي عَلَيْهِ الْعُقُوبَة فِي الآخِرَة، وَمَا عَفَا اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا فَاللهُ تَعَالَى أَكْرَم مِنْ أَنْ يَعُود بَعْد عَفْوه".

❁ ❁ ❁

"إلهي، علمتُ باختلاف الآثار وتنقُّلات الأطوار أنَّ مُرادك منِّي أنْ تتعرَّف إليَّ في كُلِّ شيءٍ حتَّى لا أجْهَلك في شيءٍ."

إنها اختلفت آثار القدرة لتعرف عظمة الخالق.. واختلافها كائن في كل شيء، كالعلويات من أفلاك وأجرام، وكالحيوانات وسائر المخلوقات، لتعرف من ذلك سعة قدرته وعلمه وعظمته... وكذلك تنقلات الأطوار من شباب وشيخوخة، ومن مرض وصحة، وهدم وبناء، وقبض وبسط، وجلال وجمال، وحياة وموت إلى غير ذلك...

فإن الحق تعالى قد تعرف لعباده في أجناس مصنوعاته، جهله من جهله، وعرفه من عرفه، فلا يسمى الإنسان عارفا حتى يعرف الله في الأشياء كلها مع اختلاف آثارها وتنقلات أطوارها... فالله تعالى إنها أراد من عباده معرفته، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56)، قال ابن عباس: أي ليعرفوني.

قال مالك بن دينار: خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شئ فيها، قيل: وما ذاك ؟ قال: معرفة الله تعالى..

وقال آخر: في الدنيا جنة معجلة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة، ولا إلى شيء، ولم يستوحش من شيء، قيل: وما هي ؟ قال: معرفة الله تعالى..

قال الشيخ رحمه الله في كتابه " التنوير" في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الرحمن: 29): كأنه سبحانه وتعالى يقول لك: يا عبدي، لا تأس على شيء مادمت لك، ولا تفرح بشيء وأنا لست لك، فأنا المعوض لك عما سواي، وما سواي لا يغنيك عني، ولا تكون ممن يعبدني بالعلل فتكون من عبيد الحروف، بل اعبدني.. لي، فإني بكمال الغنى موصوف، وبدوام الأفضال معروف، قال الله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ (الحج: 11)، لأن الذي طلبه عزلناه عنه، فما دام له، وهو ما طلبنا حتى نكون له، ومن عبده لما سواه، فهو عبد لما سواه... فكن عبد الله في كل شيء... انتهى

قال ابن عجيبة: ويكفي من عرف الله الراحة من كدر الرزق، وتعب الحرص، وتشويش البال منه، وتعلق الوهم به، فإنه لم يؤت أكثر الخلق إلا من الاهتمام به، ولو قنع العبد لاستغنى الغني الذي لا فقر بعده، والتوكل على الحي الذي لا يموت هو الغنى الأكبر، الذي لا يلحقه فقر أبدا.

حكي أن رجلا ضاق حاله من أجل المعيشة وطال به الكدر والتعب، فخرج هائما على وجهه ودخل الصحراء، فوجد قصرا خربا قد كشف عنه الريح، ووجد في حائط ذلك القصر رخاما، مكتوبا فيه هذه الحكمة:

لما رأيتك جالسا مستقبلاً.... أيقنت أنك للهموم قرين
ما لا يقدر لا يكون بحيلة..... أبدا، وما هو كائن سيكون
سيكون ما هو كائن في وقته..... وأخو الجهالة متعب محزون
يجري الحريص ولا ينال بحرصه..... شيئا، ويحظى عاجز ومهين
فدع الهموم، تعر من أثوابها..... إن كان عندك بالقضاء يقين
هون عليك وكن بربك واثقا......فأخو الحقيقة شأنه التهوين
طرح الأذى عن نفسه في رزقه.... لما تيقن أنه مضمون

۞ ۞ ۞

"إلهي، كُلَّما أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ وَكُلَّما آيَسَتْنِي أَوْصافِي أَطْمَعَتْنِي مِنَنُكَ."

العبد إذا نظر إلى أوصاف نفسه اللئيمة وأفعالها الذميمة، استحيا من الله أن يرفع إليه حاجة يطلبها، فإذا نظر إلى سعة كرم الله وجوده وإحسانه وبره، انطلق لسانه بالسؤال، وطمع فيما له من سعة العطاء والنوال.

ولهذا ورد في بعض الأدعية: اللهم افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، أنت أهل التقوى وأهل المغفرة..

قال أبو سليمان الداراني: "يقول الله تعالى: عبدي.. إنك ما استحييت مني: أنسي الناس عيوبك، وأنسي بقاع الأرض ذنوبك، وأمحو من أم الكتاب

زلاتك، ولا أناقشك الحساب يوم القيامة ".. اللهم اجعلنا من هؤلاء بفضلك وكرمك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

۞ ۞ ۞

" إلهي، حُكْمُكَ النَّافِذُ ومَشِيئَتُكَ القاهِرَةُ
لَمْ يَتْرُكا لِذِي مَقالٍ مَقالاً، ولا لِذِي حالٍ حالاً "

لا شك أن حكم الحق نافذ في خلقه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء: 23).

وأمر المشيئة مبهم، والسابقة والخاتمة غير معلوم أمرهما، وهذا هو الذي حرك قلوب العارفين فلم يطمئنوا بحال، ولم يعتمدوا على عمل ولا مقال، بل صاروا مضطرين إلى الله في كل حال، لأنهم قد علموا أن حكم الله نافذ كلمح البصر أو هو أقرب، ومشيئته قاهرة لا يصرفها عن إنفاذ مرادها صارف، ولا تردها همة ولي ولا عارف، ففي لحظة واحدة يقرب البعيد ويبعد القريب، ويرفع الوضيع ويضع الرفيع، ويعز الذليل ويذل العزيز... إلى غير ذلك، فكيف يصح لعاقل أن يركن إلى حاله ومقامه، أو يعتمد على علمه وأعماله، أو يغتر ببسط لسانه ومقاله، والله تعالى يقول: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: 24) .

فسبحان من يعطي ويمنع، ويضر وينفع.. جذبت العناية سلمان الفارسي من أرض فارس، ونودي بلال من بلاد الحبشة، وأبو طالب على باب التحقيق، وقد حرم التوفيق، وقع الحكم، ونفذ الأمر، وسبقت المشيئة، وجف القلم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: 118).

قال أبو بكر الواسطي: الرضا والسخط نعتان من نعوت الحق، يجريان على الأبد بما جريا به في الأزل، يظهران الوسمين على المقبولين والمطرودين، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم، كما بانت شواهد المطرودين بظلامها عليهم، وقال ابن عجيبة: جرت عادة الله وسنته أنه من ظهرت عليه الطاعات والإحسان، كان ذلك علامة الرضا والرضوان، ومن ظهرت عليه المخالفة والعصيان، كان ذلك علامة السخط والخسران وبهذا جاءت الشرائع، والمرء يموت على ما عاش عليه، والنادر لا حكم له، والله تعالى أعلم...

ومع هذا لم تزل الأكابر تخاف من السابقة والخاتمة، إذ لا يدري ما سبق به القضاء والقدر.

۞ ۞ ۞

"إلهي، أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إلى الآثارِ فَارْجِعْني إِلَيْهَا بِكِسْوَةِ الأَنْوارِ وَهِدايَةِ الاِسْتِبْصارِ..
حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْها:
مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْها، وَمَرْفُوعَ الهِمَّةِ عَنِ الاعْتِمادِ عَلَيْها.
إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ."

الرجوع إلى الآثار: هو النزول إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ، ومثال الأول: وهو النزول إلى سماء الحقوق، ما يلزم العبد من العبادات البدنية أو المالية المؤقتة أو غير المؤقتة، ومثال الثاني: وهو النزول إلى أرض الحظوظ، ما تفتقر إليه البشرية من مأكل ومشرب وملبس ومنكح وغير ذلك من الأمور الحاجية... فطلب الشيخ رضي الله عنه أن يرده إليها بعد أن كان رحل عنها بهمته، بكسوة الأنوار وهي أنوار الشهود، فيكون رجوعه إلى الأثر بالله غائبا عن حظه وهواه، وقد كان قبل أن يرحل عنها يتعاطاها بنفسه بعد متعته وحظه، فلما عرف الحق غاب عن نفسه، فإذا رجع إلى رسم بشريته، رجع بالله، قد كساه أنوار الشهود عن الالتفات إلى ما سواه، وطلب أيضا أن يكون رجوعه إلى الآثار متلبسا بهداية الاستبصار، وهي تحقيق المعرفة في الأشياء التي يتعاطاها، عبادات كانت أو عادات، فلا يسرقه فيها طبع ولا حس، بل يدخل فيها بالله ومن الله وإلى الله، ويخرج منها كذلك، وهو معنى قوله حتى أرجع إليك منها: أي حتى تكون تلك الأشياء هي التي تردني إليك حين نعرفك فيها...

فتحصل أن كسوة الأنوار هي دخوله في العبادات وفي العادات بالله، لا بنفسه... وهداية الاستبصار: هي معرفته بالله في تلك الآثار التي نزل إليها ورجع

لها، وهي أيضا العلم الراسخ المتين... فإذا رجع العبد إلى الآثار على هذا الأسلوب والمعيار لم تؤثر فيه، ولم تأخذ منه لكمال حريته عنها، مصون السر عن النظر إليها بعين الإستحسان، مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها في نوال أو إحسان.

۞ ۞ ۞

"إلهِي، هذا ذُلِّي ظاهِرٌ بَيْنَ يدَيْكَ.
وَهذا حالِي لا يَخْفى علَيْكَ.
منْكَ أَطْلُبُ الوُصُولَ إلَيْكَ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ.
فَاهْدِنِي بِنُورِكَ إلَيْكَ. وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ العُبُودِيَّةِ بَيْنَ يدَيْكَ."

هذا اعتراف بغاية الذل والانكسار، وإظهار لشدة الفاقة والاضطرار، وانطراح على باب مولاه في إظهار ذله وبث شكواه، مما كساه حلة العز والافتخار، وأبهاه بين الخلق بالظهور والاشتهار، حتى صار كلامه تتحلى به القلوب والأسماع، ويعظم به التأثير والانتفاع، وذلك ثمرة من تذلل بين يدي العزيز الحكيم، الغني الكريم...

وفي هذا الابتهال تطارح منه على مولاه، ومبالغة في بث شكواه، وتلطف في سؤال رحماه، وبمثل هذا يرجى إجابة الدعاء، واستحقاق جزيل العطاء... والحال الذي لا يخفى على مولاه هو حال الضعف والافتقار والذل والانكسار،

وإنما يكون ظهور ذلك الحال لتحقيق المعرفة والوصال بمعونة منه سبحانه، فقال: منك أطلب الوصول إليك، لا من غيرك ولا على يد غيرك ولا إلى غيرك، وتحول بيننا وبين غيرك، وهو معنى قوله "وبك استدل عليك لا بغيرك"...

۞ ۞ ۞

"إلهي، علِّمْني مِنْ علْمِكَ المَخْزُونِ، وَصُنِّي بِسرِّ اسْمِكَ المَصُونِ"

العلم المخزون هو العلم الموهوب الذي يفيض على القلوب من حضرة علام الغيوب، لا ينال بحيلة ولا اكتساب، ولا يؤخذ من دفتر ولا كتاب، وإنما يعطى بمحض الفضل والنوال، وإليه الإشارة في قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ (البقرة: 282)، فهو العلم الذي طريقه التقوى، ومصدره الفتح، وثمرته المعرفة.

قال أبو بكر الواسطي في قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ (آل عمران: 7): هم الذين رسخوا بأرواحهم في عالم الغيب، وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادة، فانكشف لهم من مذخور الخزائن، والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النظر.. بحارا، فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة... انتهى.

والإسم المصون هو اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل

به أعطى، أي: احفظني من شر نفسي ومن شر خلقك كلهم بسر اسمك الأعظم.

❁ ❁ ❁

"إلهِي، أَغْنِني بتَدْبيرِكَ لي عَنْ تَدْبيري، وَبِاخْتِيارِكَ عَنْ اخْتِيارِي"

الاستغناء بتدبير الله عن تدبير النفس، وباختيار الحق عن اختيار العبد إنما يكون بشهود مدبر الأمر الفاعل المختار، الواحد القهار، لأنه هو المنفرد بالتدبير والاختيار، والمشيئة والاقتدار، وقوله اغنني بتدبيرك: أي بشهود تدبيرك.

❁ ❁ ❁

"أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأنْوارَ في قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ.
وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ. وَلَمْ يَلْجَأوا إلى غَيْرِكَ...
أَنْتَ المُونِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوالِمُ. وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمُ المَعالِمُ"

❁ ❁ ❁

" ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ..؟ وما الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟ ! "

فمن فقد الله فقد خسر خسرانا مبينا، وظلم نفسه ظلما عظيما، وخاب وتعس، وشقي وهلك، وناله شر مستطير وخطب جسيم، وهو أفقر الفقراء، ولو ملك الدنيا بحذافيرها..

قال أبو سعيد الخراز: "كل ما فاتك سوى الله: يسير، وكل حظ لك سوى الله قليل"... وقال الشاعر:

لكل شئ إذا فارقته عوض ... وليس لله إن فارقت من عوض

وأما من وجد الله.. فماذا فقد ؟... بل ما أغناه وما أسعده !! لقد ملك الوجود بأسره، واستغنى الغنى الذي لا فقر بعده، وسعد السعادة التي لا ييأس بعدها... أبد دهره... فكان من المفلحين الفائزين... فإن في الله خلفا من كل هالك، وعوضا من كل فائت..

فما سوى الله، إن هو إلا عدم وظلمة، وإن الوجود الحق والنور المتحقق إنما هو الله عز وجل... فما الذي فقد من وجدك يا الله ؟...

ورد في الأثر عن الله سبحانه وتعالى: ".. ومن طلبني وجدني.. ومن وجدني وجد كل شيء ".

" لَقَدْ خابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً "

أي لقد خاب وخسر من أحب شيئا دونك، ورضيه بدلا منك، ولقد خسر من أوقفته ببابك، ثم طلب باب غيرك، وتحول إليه، والتجأ إلى غير جنابك، فلا أخسر منه ولا أبخس صفقة من تجارته، ترك باب الكريم والتجأ إلى باب العبد اللئيم.

۞ ۞ ۞

" يا مَنْ أَذاقَ أَحِبّاءَهُ حَلاوَةَ مُؤانَسَتِهِ فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ.
وَيا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِياءَهُ مَلابِسَ هَيْبَتِهِ فَقامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ "

التملق هو التلطف في بث الشكوى، والتودد بمسارة النجوى، فالتملق بين يدي الحبيب، ومسارة القريب، هي من أعظم الرغائب وأفضل المطالب، لا يعرفها إلا أهل الشوق والاشتياق...

وألبس الله أولياءه ملابس هيبته، حتى هابهم كل شئ لما هابوا جنابه سبحانه وتعالى، فخاف منهم كل شئ ولم يخافوا من شئ، وفي الأثر: " من خاف الله خاف منه كل شئ، ومن لم يخف الله أخافه كل شئ " (البيهقي في شعب الإيمان).

لما رفعوا همتهم عن الخلق أعزهم الله، ولما رفعوا همتهم عن الدنيا أعزهم الخلق، فإن الولي إذا أراد الله أن يرده إلى خلقه لينفع به عباده ألبسه حلتين:

- حلة البهاء والجمال: ليقبل الناس عليه بالمحبة والوصال فيغنيهم الله به..
- وحلة الهيبة والجلال: ليمتثل أمره إذا أمر، ويجتنب نهيه إذا نهى، وهاتان الحلتان يكساهما عند الرسوخ والتمكين، وأشار إلى ذلك بعض الشعراء بقوله:

إن عرفـــان ذي الجـــلال	لعـز وضـياء وبهجـة وسرور
وعـلى العـارفين أيـضا بهـاء	وعلـيهم مـن المحبـة نـور
فهنيئـا لمـن عرفـــك إلهي	هـو والله دهـــره مســـرور

۞ ۞ ۞

"أَنْتَ الذَّاكِرُ قَبْلَ الذَّاكِرِينَ، وَأَنْتَ البادِيُ بِالإِحْسانِ قَبْلَ تَوَجُّهِ العابِدِينَ، وَأَنْتَ الجَوادُ بِالعَطاءِ قَبْلَ طَلَبِ الطَّالِبِينَ، وَأَنْتَ الوَهَّابُ، ثُمَّ لِما وَهَبْتَ لَنا مِنَ المُسْتَقْرِضِينَ."

أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين: فأنت سبحانك الذاكر لهم من قبل أن يذكروك، فلولا ذكرك إياهم ما ذكروك، قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ ﴾ (الإنسان: 1)، فهو الذي أنشأ الإنسان من العدم، ولولا ذكره إياهم ما وجدوا.. ولولا ذكره لهم بالعناية والتوفيق، ما تشرفوا وتنعموا بذكره سبحانه... قال أبو يزيد رضي الله عنه: غلطت في بداية أمري في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتبهت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي أولا حتى طلبته...

"وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين": فلما بدأتهم بالإحسان توجهوا إليك بالطاعة والإذعان... وأنت الوهاب.. وهبت لنا النعم، وأمرتنا بالسخاء والكرم، ووفقتنا لعطائها، ووعدتنا بالنعيم الجزيل عليها، لله ما أعطى، وله ما أخذ، فإذا عرف العبد هذا لم تبق له وسيلة يتوسل بها إلا فضل الله وكرمه...

وفي مناجاة الجنيد رضي الله عنه: "يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه، يا بادئ العارفين بما به عرفوه، يا موفق العابدين لصالح ما عملوه، من ذا الذي يشفع عندك إلا بإذنك، من ذا الذي يذكرك إلا بفضلك".

واستقراض الرب من عبده ما وهبه له، ووعده مع ذلك جزيل الثواب عليه، نهاية في كرم الله وتفضله على عبيده.

۞ ۞ ۞

"إلهي، إنَّ رَجائي لا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ. كَما أَنَّ خَوْفِي لا يُزايِلُني وَإِنْ أَطَعْتُكَ"

لما كانت السابقة مبهمة والخاتمة مجهولة، كان العبد بين خوف ورجاء، وإن بلغ ما بلغ، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، والنواصي بيد قدرته تقودها حيث شاءت..

والسابقة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ ﴾ (الأنبياء: 101)، جاء في تفسير هذه الآية الكريمة من تفسير الطبري:

"عَنَى بِهِ: كُلّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللهَّ السَّعَادَة مِنْ خَلْقه أَنَّهُ عَنْ النَّار مُبْعَد، وقَالَ اِبْن زَيْد فِي قَوْله تعالى "إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ"، قَالَ: الْحُسْنَى: السَّعَادَة. وَقَالَ: سَبَقَتْ السَّعَادَة لِأَهْلِهَا مِنْ اللهَّ، وَسَبَقَ الشَّقَاء لِأَهْلِهِ مِنْ اللهَّ"..

فالخوف والرجاء حالان يتعاقبان على قلب العبد، واعتدالهما واستواؤهما هو المطلوب...

۞ ۞ ۞

"يا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرادِقاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الأبْصارُ"

السرادقات في اللغة هي: الأسوار المحيطة بالدار، وهي هنا كناية عن الحجب القهرية، وهي حجب العزة التي احتجب الحق تعالى بها عن عباده مع شدة ظهوره، ومرجعها إلى دوائر الحس والوهم والغفلة، والأكنة التي على القلوب، وتنحصر في عدة أمور:

الأول: حب الدنيا، الثاني: ارتباط الأسباب مع مسبباتها كتوقف أمر الرزق على حركة السبب، والنبات على وجود المطر وغير ذلك، فظن الجهال أنها لا تنفك عن مسبباتها، فحجبوا بها عن مسبب الأسباب، والحكيم العليم يرزق من غير أسباب ويعطي بلا حساب، وبهذا احتجب كثير من الناس فوقفوا مع الأسباب، وحجبوا عن شهود رب الأرباب، إلا من نفذت بصيرته

من ذوي الألباب. الثالث: وقوف البعض مع ظاهر العلوم وترك علم اليقين والخشية والمعرفة، فحجبوا بالعلم عن المعلوم.. وهي معرفة الحي القيوم، قال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧ ﴾ (الروم: 7)، جاء في تفسير ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: " أَيْ أَكْثَرَ النَّاس لَيْسَ لَهُمْ عِلْم إِلا بِالدُّنْيَا وَأَكْسَابهَا وَشُؤُونهَا وَمَا فِيهَا، فَهُمْ حُذَّاق أَذْكِيَاء فِي تَحْصِيلهَا وَوُجُوه مَكَاسِبهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ فِي أُمُور الدِّين وَمَا يَنْفَعهُمْ فِي الدَّار الآخِرَة، كَأَنَّ أَحَدهمْ مُغَفَّل لا ذِهْن لَهُ وَلا فِكْرَة ".

۞ ۞ ۞

والله الموفق، وبه نستعين..

والله الموفق إلى سواء الطريق، وبه أستعين... فإنه القوي المعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المصطفى الكريم... وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين...

۞ ۞ ۞

خاتمة:

وفي ختام هذه الرحلة مع هذه المختارات من حكم ابن عطاء الله السكندري رحمه الله، أقول ما قاله ابن عجيبة في خاتمة شرحه - غفر الله لنا وله:

"وأعتذر لذوي الألباب.. من أي تقصير قد يكون وقع في هذا الكتاب، وأسأل من طالعه أن ينظر إليه بعين الرضا والصواب، فما كان من نقص كملوه، وما كان من خطأ أصلحوه، فقلما يخلص مصنف من الهفوات أو ينجو مؤلف من العثرات... وإني أسأل الله تعالى أن ينفع به من كتبه أو طالعه أو حصل شيئا منه أو سمعه، أو عمل بما فيه، وأن يكسوه جلباب القبول، ويبلغ محصله كل مطلوب ومأمول"... ونستغفر الله من أي خطأ نكون قد وقعنا فيه".

۞ ۞ ۞

وقد انتهيت من إعداد الطبعة الأولى لهذا المختصر للحكم العطائية في مساء يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان المبارك عام خمس وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة، وذلك بقرية أبتشرش بمقاطعة كنت ببريطانيا.. كما تم الانتهاء من إعداد الطبعة الثانية مساء يوم السبت الحادي عشر من رمضان عام واحد وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة بمدينة العين بدولة الإمارات العربية.

وما مـن كاتـب إلا سـيبلى ... ويبقـي الـدهر مـا كتبـت يـداه
فـلا تكتـب بكفـك غـير شيء ... يـسرك في القيامـة أن تـراه

غفر الله لكاتبيه وللناظرين فيه ولجميع المسلمين، والصلاة والسلام على من أخرجنا على يديه من الظلمات إلى النور، سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، الطيب الروح والجسد، وأفضل من قام وركع وسجد، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه البررة الأكرمين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين تسليما كثيرا..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

المراجع

1- أبواب الفرج، د. محمد علوي المالكي.

2- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي.

3- أساسيات العقيدة الإسلامية، د. فتح الله جولن.

4- إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ابن عجيبة الحسني.

5- البحر الرائق في الزهد والرقائق، د. أحمد فريد.

6- التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين، د. محمد شخاني.

7- التصوف بين الإفراط والتفريط، د. عمر عبد الله كامل.

8- تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير.

9- التنوير في إسقاط التدبير، ابن عطاء الله السكندري.

10- تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول،الموسوعة الحديثة.

11- ابن تيمية والتصوف، د. مصطفى حلمي.

12- الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي.

13- جدد حياتك، الشيخ محمد الغزالي.

14- الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي

15- دستور السعادة، د. محمد عمر سالم.

16- دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي.
17- الدين والطب النفسي، د. محمد عمر سالم.
18- رسالة العقائد، الشيخ حسن البنا.
19- رياض الصالحين، النووي.
20- سلسلة في الطريق إلى الله، د. يوسف القرضاوي.
21- شرح الأصول العشرين، محمود عيد أبو العينين.
22- شرح حكم ابن عطاء: للشيخ زروق، تحقيق د. عبد الحليم محمود.
23- صحيح الأحاديث القدسية، عصام الدين الصبابطي.
24- الصوفية والفقراء، ابن تيمية.
25- علو الهمة، د. محمد أحمد إسماعيل المقدم.
26- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفري.
27- الفرج بعد الشدة والضيق، إبراهيم بن عبد الله الحازمي.
28- في الزنزانة، د. علي جريشة.
29- في ظلال القرآن، سيد قطب.
30- في ملكوت الله مع أسماء الله، عبد المقصود محمد سالم.
31- قرة العينين على تفسير الجلالين، الشيخ محمد كنعان.
32- كتب السنة التسعة، موسوعة الحديث الشريف.

33- لا تحزن، د. عائض القرني.

34- لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري.

35- الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني.

36- مجموعة فتاوى ابن تيمية، ابن تيمية.

37- مدارج السالكين، ابن القيم.

38- مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، سعيد حوى.

39- المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى.

40- مقامات عائض القرني، د. عائض القرني.

41- المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب، د. يوسف القرضاوي.

42- الموسوعة الصوفية، د. عبد المنعم الحفني.

43- موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى، د. يوسف القرضاوي.

44- الهدي النبوي في الرقائق، د. شرف القضاة.

45- الوجود والعدم، د. مصطفى محمود.

نبذة عن المؤلف:

د. محمد عمر سالم

حاصل على عديد من شهادات التخصص في الطب النفسي: شهادة الزمالة من الكلية الملكية البريطانية للطب النفسي، وشهادة بورد معهد الطب النفسي بلندن، ودبلوما الطب النفسي من الكلية الملكية الأيرلندية.

عمل كاستشاري للطب النفسي بالمستشفيات البريطانية، وكذلك قام بالتدريس في جامعتي لندن وكنت.

وله أبحاث علمية عديدة في مجال العلاج السلوكي المعرفي بمحتوى ديني، والجوانب الفلسفية والثقافية في الطب النفسي وأبحاث الأحلام والرؤى.

وهو عضو بالعديد من الهيئات العلمية العالمية أهمها:

- الجمعية البريطانية للعلاج السلوكي المعرفي.
- شعبة الجوانب الدينية والروحية من الطب النفسي بالكلية الملكية الريطانية
- الممثل الإقليمي (الشرق الأوسط) للهيئة العالمية لدراسة الأحلام بالولايات المتحدة الأمريكية.

وهو يعمل حاليا أستاذ مشارك بقسم الطب النفسي بكلية الطب والعلوم الصحية بجامعة الإمارات العربية المتحدة.